د. ماجدة حمود

فارس النهضة والأدب



عبد الرحمن الكواكبي



دراسة

اهداءات ٢٠٠٢

الهيئة العامة للاستعلامات

أ / نبيل عثمان

عبد الرحمن الكواكبي

فارس النهضة والأدب

البريد الالكتروني: E-mail :unecriv@net.sy

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu-dam.org

تصميم الغلاف للفنان : فراس جباخانجي

□□

الدكتورة: ماجدة حمود

عبد الرحمن الكواكبي
فارس النهضة والأدب

- دراسة -

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق - 2001



الإهـــداء:

إلى أحفاد الكواكبي
الذين يقرنون القول بالفعل
ويتمثلون كلماته كي لا تصير صرخة في واد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

شغف الباحثون بريادة عبد الرحمن الكواكبي الفكرية، وفي زحمة حماستهم لأفكاره نسيوا حقيقة هامة، وهي أن ريادته كانت أدبية إلى جانب ريادته الفكرية، وأن أي تجديد في الأفكار يحتاج إلى تجديد في اللغة، لذلك استطاع الكواكبي أن يكون فارس النهضة بكل ما تعنيه من معان (فكرية، أدبية، دينية، اجتماعية، سياسية...الخ)

وبذلك بدت اللغة العربية وقد تجاوزت على يديه مرحلة الترهل، كما بدا الفكر متجاوزا مرحلة الجمود، وبذلك يقدم لنا مثلا ناصعا على أن الفكر واللغة جسد واحد لا يمكن لأي إنسان أن يرى الجسد بعيدا عن الروح، إلا إذا تحول هذا الجسد إلى جثة هامدة!

ستحاول هذه الدراسة التوقف عند إنجازات الكواكبي الأدبية واللغوية التي كانت منسجمة مع إنجازاته الفكرية، وستعتمد من أجل ذلك على كتابيه "أم القرى" و"طبائع الاستبداد" وعلى مقالاته الصحفية التي قام بجمعها الباحث جان دايه.

أعتقد أنه من المفيد أن نبدأ هذه الدراسة بنبذة عن حياة الكواكبي، التي هي سيرة معاناة مع الاستبداد، وسيرة مقاومة له، ضحى في سبيل مواجهة المستبد بكل ما لديه، واستخدم كل ما يملك من أسلحة، وقد كانت الكلمة الصادقة إحدى أهم الوسائل التي يقاتل بها عدوه ويقوي بها أهله الذين يعانون مثله وطأة الاستبداد.





لمحة عن حياة الكواكبي:

ولـــد الكواكبي في حلب (1855) لأسرة عربية، تمتد جذورها إلى الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) من جهة الوالدين(1)

توفيـــت والدتـــه عفـــيفة آل النقيـــب وعمره ست سنوات، فكفلته خالته صفية واصـــطحبته إلـــى بيتها في أنطاكية، حيث بقي هناك ثلاث سنوات، عاد بعدها إلى حلب، ليتعلم فيها على يد الشيخ "طاهر الكلزي" وبعد أن تعلم القراءة والكتابة، وأتم قـــراءة القـــرآن وحفظه، عاد إلى خالته، كي ترعى تنمية علومه، فاستعانت بقريبها "نجيب النقيب" (أصبح فيما بعد أستاذا للخديوي عباس الذي كان على عرش مصر حين لجأ إليها الكواكبي).

وحيـــن أتمّ تعليمه هناك، عاد إلى حلب ليتابعه بالعربية والفارسية، بعد أن أتقن التركية في أنطاكية، فدرس الشريعة والأدب وعلوم الطبيعة والرياضة في المدرسة الكواكبـــية، التي كانت تتبع مناهج الأزهر في الدراسة، وكان يشرف عليها ويدرّس فـــيها والـــده مع نفر من كبار العلماء،لم يكتف الكواكبي بالمعلومات المدرسية، فقد اتســـعت آفاقه أيضا بالاطلاع على كنوز المكتبة الكواكبية التي تحتوي مخطوطات قديمـــة وحديـــثة، ومطـــبوعات أول عهـــد الطباعة، فاستطاع أن يطلع على علوم السياسة والمجتمع والتاريخ والفلسفة...الخ .

لاشـــك أن هـــذه الثقافة المنفتحة التي تمتع بها الكواكبي بالإضافة إلى التربية الإسلامية منحته شخصية متميزة.

عمله الصحفي:

بدأ حياته بالكتابة إلى الصحافة، ويرجح حفيده (سعد زغلول الكواكبي) أن جده عمـــل فـــي صـــحيفة "الفرات" الرسمية سنتين لا أكثر، وقد ترك العمل فيها نظرا لمعاناته (الرقابة، الاضطهاد لكونه لا يمدح السلطة...) .

وقد أحس أن العمل في صحيفة رسمية يعرقل طموحه في تنوير العامة وتزويدها بالأخبار الصحيحة، لذلك رأى أن ينشئ صحيفة خاصة لاعتقاده أنه يستطيع الكتابة فيها بحرية أكبر من الصحيفة الرسمية للدولة، فأصدر صحيفة "الشهباء" (عام 1877) باسم صديق له (هاشم العطار) كي يفوز بموافقة السلطة العثمانية، لأنه لو طلب الترخيص باسمه لما فاز به، وكان عمره آنئذ حوالي اثنين وعشرين عاما!

لم تستمر هذه الصحيفة طويلا، عطلت ثلاث مرات قبل أن تغلق بشكل نهائي بعد صدور العدد السادس عشر، إذ لم تستطع السلطة تحمل جرأته في النقد، فالحكومة كما يقول الكواكبي نفسه "**تخاف من القلم خوفها من النار**".

تابع جهاده الصحفي فأصدر (عام 1879) باسم صديق آخر جريدة الـ"اعتدال" سار فيها على نهج "الشهباء" فعطلتها السلطة، فتابع الكتابة في صحف عربية تصدر في بلدان عربية وغربية ("النحلة" بنسختيها العربية والإنكليزية، و"الجنان" و"ثمرات الفنون" و"الجوائب" و"القاهرة" والمؤيد"..)

كان قلمه نصير الحق، يقف إلى جانب المظلوم بغض النظر عن انتمائه الديني أو العرقي، لذلك وجدناه يشرّع قلمه في وجه المستبد، فينقد تصرفاته وتهاونه تجاه مواطنيه، فكتب مقالا ينتقد فيه عدم قبول بعض المسيحيين في الجيش العثماني إلا بعد اشتراط تغيير أسمائهم بأسماء إسلامية!!

المهن التي زاولها الكواكبي:

بعد أن تعطّلت صحيفتاه، انكبّ على دراسة الحقوق حتى برع فيها، وعيّن عضوا في لجنتي المالية والمعارف العمومية، والأشغال العامة (النافعة) ثم عضوا فخريا في لجنة امتحان المحامين، وفي سنة 1886 صار مأمورا للإجراء.

وبعد أن أحس أن السلطة تقف في وجه طموحاته، وتعرقل مشاريعه، بل وصل الأمر بها إلى عزله وقطع رزقه، لذلك انصرف إلى العمل بعيدا عنها، فاتخذ مكتبا للمحاماة في حي (الفرافرة) قريبا من بيته وسراي الحكومة يستقبل فيه المظلومين من سائر الفئات وسائر أنواع الظلم، فيسعى إلى تحصيل حقوقهم ورفع ظلاماتهم بكتابة الشكاوي وإرشادهم إلى طرق الاحتجاج القانوني، وقد كان يؤدي عمله، في معظم الأحيان، دون أي مقابل مادي، حتى اشتهر بلقب (أبي الضعفاء)

ولكن إلى جانب هذا العمل الخاص نجد الكواكبي قد شغل مناصب عامة

كثـــيرة، دون أن تفلـــح الدولة في جعله تابعا لها، أو تغيير منهجه في نصرة الحق وخدمـــة المصـــالح العامـــة، لذلك سيواجه المتاعب في كل أعماله، وسيحاربه كل المستفيدين من الفساد والتسيّب، فحين عين رئيسا لبلدية حلب (في زمن الوالي الذي كـــان مقـــدرا لمواهبه عثمان باشا 1893) قام بمشاريع عمرانية، كما حاول الحفاظ على سوق المدينة الأثري، فأقام أعمدة حديدية تحول دون دخول الجمال إلى السوق التـــي كانـــت تصـــدم المـــارة وتملؤه أوساخا، درس مشروع سد الفرات، وتجفيف مســـتنقعات الـــروج، وكلّف بعض المهندسين باستثمار (حمامات الشيخ عيسى) بعد تجمـــيلها وترمـــيمها، وقـــد كانت المكافأة التي تلقاه الكواكبي على إصلاحاته هي العـــزل، فقـــد ضجّ التجار الذين منعت دوابهم من دخول السوق، ولم يكتفِ الوالي بعزلـــه، بل غرّم قيمة الأعمدة الحديدية، وفروقَ رواتب موظفي البلدية التي زادها لهم قطعا لدابر الرشوة!!

ثـــم تسلّم رئاسة المصرف الزراعي، ورئاسة غرفة التجارة في حلب، فأسس شـــركة للتبغ بالتعاون مع تجار حلب، كي يخفف الضغط على الفلاحين، بالإضافة إلـــى قـــيامه بإصلاحات أخرى تضرر منها أصحاب السلطة، الذين كانوا يشاركون المهربيـــن فـــي تهريب التبغ، فأحرقوا مواسم الفلاحين من هذا المحصول، فاضطر الكواكبي إلى حل الشركة ودفع قيمة الأسهم المستحقة من جيبه الخاص!!

فـــي عـــام (1894) تســـلم وكالة المحكمة الشرعية بحلب، فاستطاع أن ينظّم ديـــوان المحكمة، ويحارب شهود الزور الذين يجلسون أمام المحكمة على المصطبة متظاهريـــن بالتديـــن (كـــانوا يدعون بشهود المصطبة) فحاربه هؤلاء وغيرهم من الفاسدين حتى عزل.

بعـــد ذلـــك عيـــن رئيسا للجنة بيع حق الانتفاع من الأراضي الأميرية (التي أصـــدر الســـلطان أمـــرا بـــتملكها هو وورثته) فبدأ الكواكبي يوزعها على الفقراء ويحجبها عن المتسلطين من رجال الدولة، لذلك عملوا على الإسراع بإقالته!

معاناة الكواكبي مع السلطة العثمانية:

عـــرف الكواكبـــي بمقالاته، سواء في حلب أم في خارجها، التي تفضح فساد الـــولاة، لذلـــك ناصـــبه هؤلاء العداء، ولم يوفروا أية فرصة لإيذائه، فقد استغلت الســـلطة محاولة اغتيال (أو بالأحرى تهديد) والي حلب (جميل باشا) من قبل شاب (أرمنـــي) يـــتدرب علـــى المحامـــاة في مكتب الكواكبي، فألقت القبض عليه بتهمة الـــتحريض على قتل الوالي، لكنه خرج من هذه التهمة بريئا، رغم ذلك لم يتخلص

من مضايقات والي حلب، فقد اتهمه الوالي (عارف باشا) بالتآمر مع الأرمن لإثارة المشاكل في حلب، وقد استغلّ حادثة تعرض القنصل الإيطالي للإصابة بحجر قرب بيت الكواكبي، ليثبت هذه التهمة، فقبض عليه وصودرت أملاكه، وحكم عليه بالإعدام في محكمة حلب، وكان رئيسها من أعوان الوالي، فقدم الكواكبي استئنافا لإعادة محاكمته في بيروت، نظرا للخلاف بينه وبين الوالي، حيث بُرّيء وعُزل الوالي، بعد أن عانى الكواكبي من السجن مدة عام تقريبا في حلب وبيروت.

لم تكتف السلطة بمصادرة حريته الصحفية بمنعه من إصدار صحيفة، ومصادرة حريته الشخصية بالسجن والاستيلاء على أملاكه، بل وصل الأمر بالاستبداد أن اغتصب منه نقابة الأشراف، وأعطاها لأبي الهدى الصيادي الذي زوّر انتسابه لآل البيت، مع أنه من المعروف أن نقابة الأشراف تتوارثها أسرة الكواكبي في حلب والأستانة وبغداد، باعتبارهم من آل البيت من جهتي الأم والأب منذ أيام أحمد الكواكبي في منتصف القرن الحادي عشر الهجري، وقد كانت نقابة الأشراف مغتصبة من ابن عمه الأكبر منه سنا (حسن الكواكبي) من قبل الصيادي صديق السلطان عبد الحميد ونديمه الأثير!

بعد وفاة ابن عمه استحق عبد الرحمن الكواكبي نقابة الأشراف، وكان يعدّ نفسه وأهل حلب أيضا النقيب الحقيقي وإن لم يصدر أمر سلطاني بذلك، لأن النقابة تكون في الأكبر سنا من أفراد الأسرةُ المؤهل علميا واجتماعيا.

اعترض على تزوير نسب الصيادي لآل البيت، بل نجده يحرج أبا الهدى الصيادي أمام جمع من الناس أتوا لتهنئته بمناسبة خروجه من السجن، حين قال له "**الحمد لله على السلامة يا بن العم**" فردّ عليه أمام الناس جميعا "**وعليك السلام لكن ابن العم هذه من أين أتيت بها؟**" قاطعا عليه طريق الاعتراف بنسبه إلى آل البيت، مبطلا ادعاءه أمام الناس جميعا، ومن المعروف أن النسب إلى آل البيت يحتاج إلى تصديق ممن يعدّون أنفسهم يمثلونه، وقد كان عبد الرحمن يمثلهم خير تمثيل، لهذا كان إحراجه للصيادي كبيرا، سيردّه له أذى مضاعفا.

لم تكن ثورة الكواكبي على الصيادي بسبب اغتصابه نقابة الأشراف فقط، وإنما كانت بسبب أعماله وظلمه للرعايا، فقد استغل تأثيره الكبير على السلطان عبد الحميد في اضطهادهم، ولهذا من الطبيعي أن يكون الصيادي أحد الذين كادوا له وأوصلوه إلى منصة الإعدام، وهذا ما أشار إليه الكواكبي في مرافعته ببيروت.

ضيق الاستبداد الخناق على الكواكبي، حتى كان يقترض ليعيش بعد أن صودرت أملاكه، ومنع من مزاولة أي عمل، رغم ذلك لم تستطع السلطة شراءه

بالمناصب، فرأت أن تتخلص منه، بعد أن أصبح شخصية مؤثرة في حلب، بل امتد تأثيره إلى سائر البلاد العربية، بسبب مقالاته التي كان يرسلها إلى الصحف العربية، لذلك أرسلت له شخصا ملثما لاغتياله، وفعلا طعنه أثناء عودته إلى بيته ليلا، بعد هذه الحادثة التي نجا منها بأعجوبة، رأى أن المقام في ديار الاستبداد باتت مستحيلة، فقرر الهرب إلى مصر (1900) حيث ستصلها يد الاستبداد وتفلح في قتله، بأن تدس له السم في فنجان قهوة في مقهى يلدز (1902) لا فرق أن تكون هذه اليد هي يد السلطان عبد الحميد أو يد أبي الهدى الصيادي، ومما يؤكد هذه الجريمة الإسراع بدفنه على نفقة الخديوي عباس دون أن تفحص أمعاءه، خاصة أنه صرّح لصديقه في القاهرة (عبد القادر الدباغ) قبيل وفاته قائلا: **"لقد سموني يا عبد القادر"**

لعل الأذى الأكبر الذي تعرض له الكواكبي من قبل الاستبداد هو سرقة مؤلفاته وأوراقه، إذ يقال أن السلطان عبد الحميد أوعز إلى من يدّعي صداقة الكواكبي (عبد القادر القباني) صاحب جريدة "ثمرات الفنون" في بيروت بالرحيل إلى مصر وسرقة مؤلفات الكواكبي المخطوطة، وقد فعل ذلك من أجل أن يفوز بمنصب رفيع في الدولة، فتمّ الاستيلاء عليها وتسليمها إلى القاتل، ليقضي عليها كما قضى على مبدعها، لذلك افتقدنا كثيرا من المخطوطات التي كتبت في المرحلة الأخيرة من حياته قبل خروجه من حلب وبعده، وكان من الممكن أن تضاف إلى مؤلفيه المطبوعين ("أم القرى" و"طبائع الاستبداد") وقد ذكرها لنا حفيده سعد زغلول الكواكبي في كتابه "عبد الرحمن الكواكبي:السيرة الذاتية" وهي ("العظمة لله"، "صحائف قريش"، "الأنساب"، "أمراض المسلمين والأدوية الشافية لها" "أحسن ما كان في أسباب العمران"، "ماذا أصابنا وكيف السلامة"، "تجارة الرقيق وأحكامه في الإسلام") ويلاحظ من دلالة عناوينها أنها كانت استمرارا لما كان قد طرحه من أفكار في كتابيه السابقين، وإذا كانت هناك بعض الإضافات فلاشك أنها نتيجة رحلاته التي قام بها في السنتين الأخيرتين قبل استشهاده، ونتيجة نضج معاناته، ورغبته في مناقشة القضايا الإشكالية التي قد تشوّه الدين الإسلامي كقضية الرق.

وهكذا لم يكتف الاستبداد باغتيال الكواكبي وإنما سارع إلى اغتيال كلمته، التي كانت لظى على الاستبداد، يخافها كما كان يخاف الكواكبي، ويرى فيها تجسيدا لروحه، لذلك لا معنى لقتل الجسد وبقاء روحه الثائرة! لكن هذه الروح، بفضل الله تعالى، باقية بيننا رغم كل هذا القهر، وجدناها حية متألقة ثائرة في وجه الاستبداد في كتابيه ("أم القرى" و"طبائع الاستبداد) وفي بعض مقالاته التي استطاع الباحث

جان دايه العثور عليها (جريدة "الشهباء" و"اعتدال" و"العرب") وهي مازالت حية بفضل عناية الباحثين في كل مكان في العالم بما بقي من إنتاجه، لأن عظمة أي إنتاج فكري لا تقاس بكميته، وإنما بفعاليته التي تتجاوز الشرط الزماني والمكاني.

وبذلك نجد أن الكلمة الصادقة التي هي نبض المعاناة اليومية للكواكبي، بقيت حية لا تموت، رغم ما تعرضت له من محاولة اغتيال وقهر على يد الاستبداد، فقد بدت لنا أقوى من المستبد قادرة على مواجهته والقضاء عليه في أي زمان وأي مكان.

رحلات الكواكبي:

ذاق الكواكبي صنوف المعاناة على يد الاستبداد العثماني وأعوانه، حتى لم يبق له مصدر رزق، وصار يستدين من أجل متطلبات حياته اليومية، لذلك حين عرض عليه السلطان منصب قضاء (راشيا) كي يبعده عن بلده (حلب) ويضعف تأثيره، تظاهر بقبوله، وسافر إلى الأستانة سرا، ليقوم بتحريات سرية عن أعمال السلطان وزبانيته، ويرى أنواع استبداده في عقر داره، لكن سرعان ما اكتشف أمره، ودعي للإقامة في قصر خاص بالضيافة، وقد التقى أثناء زيارته تلك بجمال الدين الأفغاني (1895) الذي جاء إلى الأستانة (1892) وبقي هناك (حتى وفاته أو بالأحرى قتله 1897) في منزل للضيافة تحت الإقامة الجبرية، وقد أحس الكواكبي بعد لقائه بالمصير المشابه الذي ينتظره ، لذلك سارع بالعودة إلى حلب سرا.

لقد كان ظاهرا للعيان رغبة السلطان في التخلص منه، خاصة بعد أن أدرك أن المناصب في حلب لم ولن تغيره، فرأى الكواكبي حين عرض عليه السلطان منصب القضاء في راشيا وسيلة جديدة لإبعاده، خاصة أن هذا المنصب قد جاء بعد محاولة الاغتيال التي تعرض لها والتضييق على حريته في الأستانة، لذلك قرر الهرب إلى مصر سرا (1900) بعد أن رهن البيت الذي كان مسجلا باسم زوجته، ليؤمن تكاليف سفره.

ولو تأملنا أسباب اختيار الكواكبي مصر موطنا له، للاحظنا أنها تنحصر في الحرية: جوهر الوجود الذي عاش من أجله الكواكبي ومات في سبيل تحقيقه، وهذا ما تخيل وجوده في مصر زمن الخديوي عباس، فقد كانت ملاذا للكتاب، الذين هاجر إليها أغلبهم من بلاد الشام، رغبة في الحرية، (التي يلمسها المرء خاصة في الجرائد المصرية التي كانت تتمتع بحرية نقد السلطان عبد الحميد) وإلى جانب الحرية في التعبير، كانت هناك حرية في استخدام اللغة العربية في الكتابة التي

كانت شبه ممنوعة في شرقي السلطنة، لذلك أسس المهاجرون إليها صحفا ومجلات، واستطاعوا أن يسهموا في إغناء الحياة الأدبية والفكرية في مصر، وقد شكّلوا صوتا واضحا في الصحافة عرف فيها، واشتهر باسم "الشوام"

عاش الكواكبي في القاهرة حوالي سنتين حيث ذاع صيته، وتابع نشر مقالاته في الصحف المصرية، بل نجده قد أصدر فيها "صحيفة العرب" التي لم تلبث أن توقفت، دون أن نعرف السبب، ربما قد يكون بسبب تقارب الخديوي عباس والسلطان عبد الحميد!! وقد كان أحد أهم شروط هذا التقارب، ألا يساند الخديوي المناوئين للسلطة العثمانية!!

كذلك استطاع أن ينشر فيها كتابيه "أم القرى" و"طبائع الاستبداد" اللذين كتبهما في حلب ولم يستطع نشرهما إلا بعد هربه منها، ويقول نديم الكواكبي (عبد المسيح الأنطاكي): إن الكواكبي ظل مختفيا في القاهرة حتى طبع كتاب "أم القرى" إذ أرسل منه نسختين إلى الخديوي في الإسكندرية، ونسخة إلى"الشيخ محمد عبده" والثالثة إلى"الشيخ علي يوسف" وقد سرّ الخديوي بالكتاب فطلب إلى الشيخين أن يسعيا للتعرف على صاحب الكتاب الذي لم يذكر اسمه عليه، ومنذ ذلك الوقت نشأت صداقة بين الخديوي والكواكبي التي يبدو أنها لم تعمّر طويلا، بسبب التقارب بين الخديوي والسلطان عبد الحميد، ورفض الكواكبي طلب الخديوي للسفر معه إلى الأستانة للتصالح مع السلطان.

أثناء إقامته في القاهرة، قام برحلتين زار فيهما بلادا عربية وأخرى إسلامية، ليتفهم أحوال المسلمين وليدرس عن كثب مشروع رابطة أم القرى الذي تحدث عنه بشكل نظري في كتابه "أم القرى" فزار السودان والجزيرة العربية واليمن، والتقى القبائل العربية، ليعرف مدى مقدرتها على القتال، وليحرضها على الثورة ضد الأتراك، لكن اللافت للنظر اهتمامه بالشؤون الاقتصادية والجيولوجية لبلاد العرب، حيث ذكر ابنه (كاظم) الذي رافقه في رحلته الثانية، أنه كان يجمع نماذج من صخورها، ويجلبها معه إلى مصر لدراستها من قبل المتخصصين لمعرفة الثروات المعدنية التي تحتويها الجزيرة (وقد كان من بينها على ما يذكر ابنه زيت النفط الذي دلّه عليه الأعراب في الجزيرة) .

إذاً لا تبدو الغاية من رحلاته دراسة أحوال الأمة العربية والإسلامية من الناحية السياسية والعسكرية فقط، بل دراسة أحوال البلاد الاجتماعية والاقتصادية، كي يؤسس لدولة عصرية، ترتكز على إمكاناتها الاقتصادية الذاتية، لذلك سعى إلى معرفة ما تملكه من ثروات باطنية بالإضافة إلى ما تملكه من استعداد حربي، فهو

يــدرك أن حــرية الــدول لا تكــون بجــلاء الغريب عنها، وإنما بامتلاك القدرة الاقتصــادية التــي تستطيع حماية الحرية، وتأسيس بنيان الدولة على أسس متينة، تمنحها استقلالا حقيقيا.

لقــد امــتلك الكواكبي وعيا سابقا لعصره، فسعى إلى الحرية بأفضل معانيها، جــنّد فــي سبيلها كل ما يملكه من مواهب أدبية وفكرية، وضحى من أجلها بكل ما يملك، حتى دفع حياته ثمنا لها.

***

الحواشي:

1- جمــيع المعلومــات التــي في وردت في هذه المقدمة، أخذت من كتاب حفيد الكواكبي القاضــي سعد زغلول الكواكبي، وهو بعنوان "عبد الرحمن الكواكبي: سيرة ذاتية" دار بيسان، بيروت، ط1، 1998، ص15_120 بتصرف.

■ ■

كتاب (أم القرى)

محاولة في تقديم الفكر التنويري في قالب قصصي

أعتقد أن الكواكبي جسّد لنا ظاهرة تستحق التأمل في الفكر العربي الحديث، إنها ظاهرة انسجام القول النظري بالمواجهة العملية، فقد بدت لنا حياته مرآة لأفكاره، إذ جسّد صورة المثقف النموذجي، الذي يقرن القول بالفعل، فيبدو لنا خطابه النظري في مقاومة الاستبداد وإصلاح الأمة نتيجة جهاد حقيقي في مواجهة الظلم، بالنفس والقلم والمال، لذلك نجده واجه سلطة الاستبداد العثماني فعلا وقولا، وبدأ يحاول النهوض بأمته عبر بث الوعي لدى أبناء أمته في الصحافة، وعبر الممارسة العملية، حين استلم رئاسة البلدية في حلب (1893) لذلك لم يبق فيها سوى شهر واحد، فقد عُزِل نتيجة الإصلاحات التي أدخلها، كما رأيناه يحول مكتبه إلى مركز لرفع الشكاوي ضد الولاة الفاسدين، وكتابة مظالم الفقراء وإرسالها إلى السلطان، حتى إنه لقب بأبي الضعفاء.

حاول بذل جهده في نصرة الحق و إقامة العدل الذي ضاعت أسسه، بعد أن ساد الفساد بين الولاة، لذلك جنّد نفسه لمواجهة المستبدين والحكام بكل ما يملك من وسائل فكرية وعملية.

كان صلبا في مقارعة المستبد، ممن يؤمنون بأن "**أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**" ولاشك أن تربيته على أخلاق الدين الإسلامي ومبادئه السمحة، بالإضافة إلى تعرضه لظلم السلطة (صودرت أملاكه، سلبت منه نقابة الأشراف، وأعطيت إلى إنسان لا يستحقها، يدعى أبو الهدى الصيادي، سُجن وحكم عليه بالإعدام ظلما، أغلقت صحيفته، اضطراره للهجرة إلى مصر) أدى كل ذلك إلى شحذ عزيمته لمقاومة الاستبداد، فبدا لنا مرهف الإحساس لمعاناة

غيره من المظلومين، يمتلك حسا بالمسؤولية حيال الضعفاء من قومه، الذين لا يملكون أدوات مواجهة الاستبداد.

لذلــك حــاول أن يفضــح أســاليب الظالمين من الحكام بكل ما يملكه من وســائل، كمــا حاول أن يساند المظلومين بكل ما يملكه من إمكانات لعل أهمها القلم.

كتاب "أم القرى" (1898)

أتاحــت لـــه مقارعــة سلطة الاستبداد والعمل في الصحافة فهم الواقع المــتردي، ممــا جعله يدرك أن التخلف مرض يصيب جسد الأمة بأكمله، لهذا نجــده فــي هــذا الكتاب يحاول الوقوف عند الخلل الذي أصاب المسلمين وقفة مــتأملة موضوعية، تتجاوز المألوف في ذلك العصر، إنها وقفة تتجاوز النظرة القدريــة المستســلمة، إذ حاول أن يجمع، عبر الخيال، علماء المسلمين، ليسمع آراءهــم، لذلــك كان كتابه "أم القرى"(1) تجسيدا لرغبة كامنة في أعماقه، هي وحدة المسلمين وقوتهم، فكان منهج عمل لدراسة حال الأمة الإسلامية، ومناقشة أسباب هذا التخلف بطريقة علمية، تنقب عن أفضل الوسائل التي تنهض بالأمة، لهذا نجده يحدد، بلسان علماء الأمة، موضع الداء أولا ثم أعراضه وجراثيمه، ليقــترح هؤلاء العلماء بعد ذلك الدواء، مبيّنين كيفية استخدامه، معلنين ضرورة اتحــاد المسلمين في جمعية تأسيسية، تستطيع تنظيم العلاج، تدعى "جمعية تعليم الموحدين" وبذلك يتوارى الكواكبي وراء آراء جماعة علماء المسلمين وفقهائهم، لينأى عن الرأي الفردي الذي لن يكون منقذا لعامة المسلمين باختلاف أقطارهم ومذاهــبهم، وبذلك استطاع أن يقدم لنا أول مؤتمر إسلامي متخيل، يجسد رغبة حقيقية في وحدة المسلمين.

وعلى هذا الأساس اختار لكتابه شكلا جديدا أقرب إلى فن الرواية، إذ تخيل فــيه جمعــية تضم أعلام المسلمين تعقد اجتماعا في "مكة المكرمة" قبل موسم الحــج، وقــد ســمعنا فــي المقدمــة صوت الرحالة الراوي، الذي هو صوت الكواكبــي، يقول: **"فعقدت العزيمة، متوكلا على الله تعالى، على إجراء سياحة مــباركة بــزيارة البلاد العربية، لاستطلاع الأفكار وتهيئة الاجتماع في موسم أداء فريضة الحج".**

نلاحــظ أن الكواكبي حين تخيل عقد الاجتماع، لم يكتف بعلماء عرب، بل أضــاف إلــيهم علمــاء مســلمين من كافة البلاد الإسلامية، بل من بلاد غير

إســـلامية، فـــالمهم لديه انتماء العالم إلى الفكر الإسلامي بغض النظر عن بلده (السعيد الإنكليزي).

وبما أن الراوي هو الصوت الرئيسي، الذي يجسده صوت الكواكبي نفسه، لهذا شغل حيزا كبيرا في الكتاب، دون أن يحاول إلغاء الأصوات الأخرى، فهو يـناقش أحـــوال المســلمين مـــع شخصيات أخرى تنتمي إلى الأمة الإسلامية (الفاضـــل الشـــامي، البليغ القدسي، العلامة المصري، المحقق المدني، المولى الرومي، الشيخ السندي، الفقيه الأفغاني، الخطيب القازاني،السعيد الإنكليزي..).

تعمّد الكواكبي، في هذا الكتاب، أن يبرز وحدة الأمة الإسلامية رغم تنوع بلدانهـــا، وقد ساعد هذا التنوع على إبراز تعدد الأمراض التي يشكو منها جسد الأمـــة، واســـتطاع بالتالي أن يبرز تعدد الآراء والحلول من أجل معالجة هذه الأمراض.

وقـــد بـــدت لنا استفادته من إنجازات الفن الروائي حين أسبغ على العلماء أســـماء وهمية، مستغلا دلالات الاسم المكانية ليفصح عن انتماء الشخصية إلى بلـــد إســـلامي بعيـــنه، فتـــتحدث حديث العارف، دون وجل، عن أوضاع بلاد المســـلمين ومعاناتهم، ولا يمكن أن ننسى ظروف القهر والاستبداد التي أدت به إلى الاستعانة بهذه الأسماء الوهمية.

صـــحيح أن فـــن الرواية، زمن الكواكبي، لم يكن قد أثبت حضورا كبيُرا علـــى صـــعيد التألـــيف، لكـــن المحاولات الأولى كانت قد بدأت على يد سليم البســـتاني الـــذي أصـــدر رواية "الهيام في جنان الشام" (1870) بعد أن نشرها مجـــزأة في صفحات (الجنان) ويمكن القول أن حركة الترجمة في مصر ولبنان كانـــت أكثر نشاطا من التأليف، ولاشك أن الكواكبي الذي عرفنا نهمه للمطالعة قـــد اطلـــع على هذا الفن الوافد، سواء أكان مترجما أم مؤلفا، واستفاد منه في كتابه "أم القرى" .

وممـــا تجدر الإشارة إليه أن طريقة التخييل الروائي قد ساعدته على تقديم شخصـــيات متـــنوعة، حـــتى إننا نجد بينها شخصيات غريبة عن الإسلام (نجد مستشـــرقا أســـلم حديثا، يناقش مفتي قازان، فيقدم لنا حوارا متخيلا على لسان إحـــدى الشخصـــيات المشـــاركة في المؤتمر (الخطيب القازاني) وبفضل هذه الشخصية المتخيلة استطاع أن يقدم أحكاما جريئة كرفض أقوال الفقهاء مادامت متناقضة، إذ **"ما الموجب لتكليف النفس ما لم يكلفها به الله؟ أليس من الحكمة أن يحفـــظ الإنســـان حريته واختياره، فيستهدي بنفسه لنفسه، فإن أصاب كان**

مـــأجورا، وإن أخطأ كان معذورا، ويكون ذلك أولى من أن يأسر نفسه للخطأ المحتمل من غيره"(2).

وبذلـــك أتـــاح لـــه الشكل الفني المبتكر أن يقدم أفكارا لا يمكن أن ينسبها صراحة إلى نفسه، فهو ينتقد ظاهرة تقديس أقوال الفقهاء، أي ظاهرة النقل لدى المســلمين وإغفـــال العقل، فيجدهم أسرى للفروع، غافلين بذلك عن الأصول، لذلـــك سنجد سعيد الإنكليزي (وهو أحد ممثلي مسلمي بريطانيا) يعلن صراحة بأنـــنا **"تركـــنا ديـــن آبائـــنا وقومنا لنتبع دين محمد نبي الإسلام عليه الصلاة والســلام، لا لنتبع الحنفي أو الشافعي أو الحنبلي أو المالكي، وإن كانوا ثقاة ناقلين".**

وبمـــا أن أفكـــارا جريئة سيتمّ طرحها في هذه الجمعية، لهذا هيأ لها مناخا مناســبا، يضـــفي أهمـــية عليها، فالشخصيات التي تطرح أفكارا جريئة، وتنتقد الأفكـــار التقلـــيدية ليست شخصيات عادية، بل هي شخصيات منتقاة من علماء الدين (حملت لقب: العلامة، الفقيه، الشيخ...) وقد جعلها تجتمع في مكان مقدس (أم القـــرى) وفـــي زمـــن مقدس قبيل أداء فريضة الحج (في شهر ذي القعدة) وبذلـــك يحمـــي أعضـــاء الجمعية المصلحين من تهمة الكفر التي يوجهها لهم الجـــاهلون حين يسمعون أفكارا تناقض ما ألفوه، فجعل شخصيات هذه الجمعية مـــن العلمـــاء، تجتمع في مناسبة إسلامية (أثناء أداء فريضة الحج) وبهذا يذكر الكواكبـــي بالوظـــيفة الدنـــيوية للحـــج (إصلاح حال المسلمين، وتوحيدهم لحل مشاكلهم) ويؤكد على وقوفها إلى جانب الفريضة الدينية.

تـــبدو لـــنا هذه الجمعية أحد أحلام الكواكبي التي سعى في حياته لتحقيقها، فســـافر مـــن أجـــل إنشـــاء مشـــروعها على أرض الواقع إلى البلاد العربية والإســـلامية، محـــاولا أن يســـتفيد مـــن اللاوعي المقدس الذي يؤسس وجدان المســـلمين، فبدت لنا ملامح الخطاب المقدس في أصدق تجلياته (القول الديني: القـــرآن الكـــريم والحديث الشريف، الشخصية: رجال دين علماء، الزمن: قبيل وأثـــناء فريضـــة الحج، المكان: المدينة المقدسة "مكة المكرمة" الذي اختار لها اسما يوحد كافة المدن الإسلامية: "أم القرى"...) .

كمـــا اســـتخدم أساليب توحي لنا بسرية الخطاب، فسعى إلى إطلاق أسماء رمـــزية على أعضاء الجمعية، بل وجدناه يمنح كل عضو من أعضاء جمعيته رقمـــا سريا، يُعرّف به، وذلك زيادة في الحيطة، وكذلك وجدناه حين يبدأ السرد التفصـــيلي يجتنـــب التفاصـــيل الدقيقة، فالمكان عام (أم القرى) الذي يعقد فيه

الاجتماعات لا نعرف تفاصيله، تحيطه السرية، يقول السيد الفراتي "**اتخذت لي دارا في حي متطرف في مكة، مناسبة لعقد الاجتماعات بصورة خفية، ومع ذلك استأجرتها باسم بواب داغستاني روسي، لتكون مصونة من التعرض رعاية للاحتياط**" أي رعاية لحرية التعبير وحماية الأعضاء من عيون السلطة المبثوثة في كل مكان، لذلك لم يكتف باختيار مكان سري بعيد عن مركز المدينة! بل يستأجر البيت باسم بواب لا علاقة له بالجمعية، نحس هنا بمعاناة الكواكبي من عيون السلطة التي لاحقته في حلب والقاهرة، لذلك بدت لنا جملة الاحتياطات التي حدثنا عنها الراوي لانعقاد هذه الجمعية هي الاحتياطات التي كان الكواكبي يتخذها في حلّه وترحاله، وبذلك نستطيع أن نعايش القهر والملاحقة التي تعرض لها، أيام السلطان عبد الحميد الثاني، الكواكبي وأمثاله من أصحاب الرأي الذين يحاولون أن يكونوا فاعلين، ستصل هذه المعاناة حدّ الاغتيال بدس السم في فنجان القهوة، كما حصل للكواكبي!

كذلك يبدو لنا أن الهدف من انعقاد اجتماع الأعضاء في مكان الحج وزمنه، ليس الهالة القدسية فقط، وإنما لفت أنظار المسلمين إلى أن هذه الفريضة ليست فردية، وإنما فرضها الله تعالى لصالح الجماعة الإسلامية، كي يتمّ مناقشة أوضاعها المتردية وطرق النهوض بها، وهذا ما حاول الكواكبي تجسّيده في كتابه "أم القرى" إذ ناقش أعضاء جمعية الموحدين أوضاع المسلمين، شرّحوا ضعفهم، وبيّنوا أسباب تخلفهم على جميع الأصعدة: الدينية والتربوية والاجتماعية والاقتصادية، أي جميع العوامل التي أسهمت في تخلف المسلمين، وبذلك يردّ على أولئك الذين يرون في هذه الفريضة شأنا خاصا بالفرد المسلم، إذ لا جدال في الحج، ليبيّن أن هذه الفريضة جماعية أوجدها الله تعالى لإصلاح حال المسلمين ومجتمعاتهم، كما هي فريضة فردية لإصلاح حال الإنسان المسلم، وذلك عن طريق تبادل الحوار الهادئ والمنطقي الذي يقوّي المسلمين ويزيل أسباب الخلاف بينهم فيوّحدهم على صعيد الفكر كما توّحدهم هذه الفريضة على صعيد الروح، أما الصراع والجدال الذي يرمي إلى الفرقة والإضرار بوحدة المسلمين فهذا ما يرفض الكواكبي ممارسته في الحج، لذلك وجدناه يعرض لنا جملة الأسباب التي أدت إلى تخلف المسلمين عن طريق الحوار بين علمائهم المخلصين الذين يؤدون فريضة الحج، فيجعلونها متلازمة مع فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالاقتراب من الله في هذه الفريضة يعني الاقتراب من مصالح الجماعة الإسلامية من مناقشة أوضاعها وأسباب تخلفها من أجل النهوض بها، لذلك رأيناه يتوقف عند الأسباب التالية:

1_ الأسباب الدينية:

يحاول الكواكبي أن يعود بالإسلام إلى صفائه وقوته، فيربطه بالحياة العامة، ويرى أن من أسباب ضعف المسلمين إهمالهم **"تشريع الجماعة والجمعة وجمعية الحج! وترك خطباؤهم ووعاظهم، خوفا من السياسة، التعرض للشؤون العامة"(3).**

إذاً يلاحظ الكواكبي العبث بأركان الإسلام الأساسية ذات السمات العامة التي يجتمع فيها المسلمون (صلاة الجمعة، فريضة الحج، التكافل الاجتماعي..) فيتمّ تحويلها إلى فريضة خاصة، لا علاقة لها بهموم الجماعة، وذلك خوفا من الحكام المستبدين، فمثلا تم العبث بفريضة أساسية (الحج) وتحويلها من فريضة جماعية تنمّي الحسّ الإسلامي بالوحدة، والحسّ الإنساني بالمصير المشترك إلى فريضة خاصة بالفرد المنعزل عن إخوانه من المسلمين، فيبدو كأنه الإنسان الوحيد في هذا الكون! وبذلك ينسى أولئك العابثون، الذين يشوّهون الدين، حقيقة إنسانية يوضحها لهم الكواكبي: الإنسان **مدني بالطبع، لا يعيش إلا بالاشتراك، لكنه ينسى أوامر الكتاب والسنة له بضرورة الحفاظ على الرابطة الدينية التي تعني لديه: الولاء لعامة المسلمين، وبذلك ينسى الأصول ويتعلق بالفروع.**

تم تشويه الدين الإسلامي أيضا، في رأي الكوكبي، على يد بعض الفقهاء، حين **أدخلوا عليه عقيدة الجبرية والزهد في الدنيا وإماتة المطالب النفسية** (حب المجد والرياسة والمفاخر...) وقد شبّه الكواكبي هذا التشويه الذي يشيع الجبرية في حياة المسلمين بالمخدرات أو المثبطات التي تميت كينونة الإنسان وروحه ليبقى جسده فقط على قيد الحياة! ومثل هذا الميتة أقسى من ميتة الروح والجسد معا.

ومما شوّه الإسلام أيضا، في رأيه، هو **التشدد في الدين والتعصب**، فنجده يدعو هذا التشدد بـ**"العاهة"** التي تشوّه وجه الإسلام السليم، وتعرقل فاعليته في الحياة العامة، وقد أدى تعصب الآخرين (النصارى أثناء الحروب الصليبية) إلى إدخال التعصب على الإسلام، مع أن طبعه يأباه وينكره شرعه، على حد قوله.

إذاً بسبب انتشار هذه المفاهيم (الفردية في ممارسة العقائد، الجبرية، الزهد، الموات، التعصب...) لم يعد الدين عامل قوة في حياتنا، وهو يذكرنا بحقيقة نكاد ننساها فيقول: **"إن كل دين كان في أوليته باتّا النظام والنشاط**

وراقـيا (بمعتنقـيه) إلـى أوج السعادة في الحياة، إلى أن يطرأ عليه التأويل والتحريف والتفنن والزيادات...فيأخذ في انحطاط الأمة...".

لاشـك أن مسـؤولية هـذا الانحطاط تقع على رجال الدين الذين يدعوهم الكواكبي بـ"**المتعمّميـن الجهّال**" وقد صاروا أضرّ على الدين من الشياطين، إذ اقتصـر همهـم فـي النوافل والقربات ورواية الحكايات والإسرائيليات ونوادر الـزهاد وكـراماتهم! وقد شاع فيهم الجهل إلى درجة أنهم لا يستطيعون قراءة نعوتهم المزورة!! وخير من يمثل هؤلاء (أبو الهدى الصيادي) الذي كان مقرّبا مـن السلطان عبد الحميد بسبب شعوذته، لذلك منحه نقابة الأشراف واغتصبها من الكواكبي وأسرته!

وهكـذا يـبدو لـنا الصيادي وأمثاله يبيعون دينهم بدنياهم، فيسبغون على السـلطان الألقـاب التـي تقرّبهم من الشرك (المولى المقدس، صاحب الجلالة والعظمـة...) ويشـجعونه علـى الاستقلال في الرأي ومعاداة الشورى، ونجد هـؤلاء المنافقيـن لا يعـرفون من القرآن سوى آيتين يفسرونهما وفق أهواء المتسـلطين مـن الأمـراء، إحداهما قوله تعالى "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، وأولي الأمر منكم" متغافلين عن صيغة الجمع في "**أولـي الأمر**" وما يقتضيه قيد "**منكم**" والثانية "وجاهدوا في سبيل الله" متغافلين أن الجهاد في سبيل إعزاز كلمة الله لا تأيـيد الأمـراء وحمايـتهم، ولذلك لم يعد الدين يستوطن القلوب، وإنما رؤوس الألسـن، لاسيما عند بعض الأمراء والأعاجم الذين يتظاهرون بالتديّن لتمكين سلطتهم على بسطاء الأمة، كما أن ظواهر عقائدهم تحكم عليهم بالشرك وهم لا يشعرون(4).

لذلـك وجدنـا الكواكبي يحمّل الفقهاء مسؤولية الإساءة إلى سماحة الدين، حيـن رفضـوا الحرية الدينية وتعدد التأويلات، وشدّدوا على صحة آرائهم مخطئيـن الآراء المخالفـة، فأثـاروا فتـنة الجدل في العقائد الدينية والتعصب للمذاهـب، ممـا شـوّش أفكار الأمة، إذ كثرت فيها الآراء المختلفة في فروع الدين، وبناء على ذلك نجد الكواكبي يؤكد أن الاختلافات الموجودة في الشريعة ليسـت كمـا يظن شاملة للأصول، بل هي في فروع تلك الأصول، وفي بعض الأحكام التي ليس لها في القرآن الكريم والسنة نصوص صريحة، وهذه الأحكام الخلافـية كلها ترجع إلى دلائل إما قطعية الثبوت ظنية الدلالة، أو ظنية الثبوت والدلالـة، ويـرى أن منشـأ اخـتلاف المجتهدين يعود إلى الخلافات النحوية والبيانـية، ثـم وجدنـاه يـورد أقـوالا للأئمة (ابن حنبل، مالك، أبي حنيفة،

الشـــافعي..) التـــي تبيّن أن اجتهادهم فيما لم يرد في القرآن والسنة قابل للأخذ والـــرد، فهـــو يلفـــت النظر إلى أن هؤلاء الأئمة اجتهدوا وفق ظروف زمانهم ومتطلباته، لذلك قد يكون هذا الاجتهاد غير صالح لزمن آخر، وبالتالي يتوجب علـــى العلمـــاء فـــي العصر الحديث الاجتهاد وعدم الركون إلى أقوال الفقهاء السابقين، وبذلك يدعو العلماء إلى إعمال العقل في كل ما لم يجدوه في الأصول (القـــرآن والســـنة) وإن وجدوه في الفروع، كما يدعوهم إلى سعة الأفق وقبول الرأي المخالف لآرائهم خاصة حين يصدر عن عالم مثلهم.

إذاً يحـــاول الكواكبـــي أن يضع يده على عوامل ضعفنا وتمزقنا، فيقدّم لنا العـــلاج، مبيّـــنا أن علينا ترك الخلافات المذهبية التي نتبعها تقليدا، وأن نعتمد صـــريح الكـــتاب وصحيح السنة وثابت الإجماع، لكيلا تفرقنا الآراء، أما ما لم يرد فيه نص أو إجماع، فنأخذ ما يناسبنا من أي مذهب كان دون أن نقيد أنفسنا بمذهـــب معيـــن، فهـــو يـــريد التوفيق بين المذاهب حلا للخلاف بينها وتوحيدا للمســـلمين، وقـــد لمسنا هذه الدعوة لدى جمال الدين الأفغاني وغيره من رجال النهضة حرصا على توحيد كلمة المسلمين.

2_ الأسباب السياسية:

لاحظنا كيف تميز الكواكبي بالجرأة في نقده لرجال الدين، فبيّن أنهم سبب تشـــوّه الديـــن وتفـــريق المسلمين، وقد وجدنا هذه الجرأة ذاتها في نقده للسلطة السياسية منذ وقت مبكر (1877) في الصحافة (في جريدة الشهباء) فقد بيّن أن ســـبب الفســـاد الـــذي يســـيطر على الفكر العام أربعة قرون هو تلك "**السياسة المطلقـــة العنان**" التي اتبعها الحكام، لهذا سارعت السلطة العثمانية بإغلاق هذه الجـــريدة، فعمـــد بعد أن أغلقت السلطة جريدة أخرى له (جريدة الاعتدال) إلى تأليف كتاب "أم القرى" كي يجد متنفسا للتعبير الحر عن أفكاره، فيستمر في نقده الإصلاحي، بعد أن زادت أفكاره السالفة وضوحا ونضجا، وهذا أمر طبيعي فقد مضى عشرون سنة تقريبا على إغلاق جريدتيه حين بدأ الكتابة في (أم القرى).

يـــرى الكواكبـــي أن المنشأ الأصلي لكل شقاء هو انحلال السلطة القانونية بسبب فسادها أو غلبة سلطة شخصية عليها، وهكذا انحرفت السياسة الإسلامية من الديمقراطية، في عهد الراشدين، إلى الملكية المقيدة بقواعد الشرع الأساسية، ثم أصبحت شبه مطلقة، ومثل هذا الانحراف أدى إلى ضعف المسلمين.

وحيـــن أراد أن يبيّـــن أثر افتقاد القانون وضياع حقوق الإنسان، جعل أحد مضـــطهدي الحكومـــة العثمانـــية (المولى الرومي) يوضح لنا **"أن البلية فقدان الحـــرية، ومـــا أدراك مـــا الحرية؟ هي ما حرمنا معناه حتى نسيناه..."** لذلك وجدنـــاه يعـــرّف الحـــرية **"بـــأن يكون الإنسان مختارا في قوله وفي فعله لا يعترضه مانع ظالم..."(5).**

يلفت نظرنا الدلالة السلبية التي يحملها اسم (المولى) الذي اختاره الكواكبي لأحـــد المضـــطهدين من قبل الدولة! لذلك يقدم فهما متميزا للحرية (هي القدرة علـــى الاختـــيار وممارسة الإرادة) كما يجعل من فروع الحرية المساواة في الحقـــوق ومحاســـبة الحكام الذين هم وكلاء الله على الأرض، لذلك من واجب المسلم بذل النصيحة لهم، والجرأة في المطالبة بالحقوق.

ويـــرى الكواكبي أن من فروع الحرية أيضا حرية التعليم، حرية الخطابة والمطـــبوعات، حـــرية البحث العلمي...لذلك نجده معنيا بإبراز مكانة الحرية: **فهـــي "أعـــزّ شيء لدى الإنسان بعد حياته، وحين نفقدها تفقد الآمال، وتبطل الأعمـــال، وتمـــوت النفوس، وتتعطّل الشرائع، وتختلّ القوانين"** وبذلك تصبح قوام الحياة والتطور، فإذا فقدناها ساد في حياتنا الضعف والفساد والدمار.

لا نجـــد الكواكبـــي مكتفيا بالتلميح في نقد السلطة العثمانية، بل نجده على لســـان الـــراوي (السيد الفراتي) الذي رأيناه الشخصية المركزية في (أم القرى) ولســـان حال الكواكبي، يصرح بأن الخلل أصاب المملكة العثمانية، في الستين ســـنة الأخـــيرة، كـــان بسبب أنها عطلت أصولها القديمة ولم تحسن التقليد ولا الإبداع، وصرف السلطان قوة سلطنته كلها في سبيل حفظ ذاته الشريفة وانفراده بالسلطة.

ينتقد الكواكبي السلطة العثمانية نقدا موضوعيا، يستند في ذلك على معاناته الخاصـــة ومعانـــاة أبـــناء وطنه (حيث كان يكتب مظالمهم ليتمّ عرضها على المســـؤولين) فقـــد ذاق الظلـــم وكبت الحرية، فكانت معاناته جزءا من المعاناة العامـــة التي عايشها بشكل يومي، عبر ذاته وعبر حسه المرهف بالقهر العام، لذلـــك نجده يتناول إدارة هذه السلطة بالنقد مستفيدا من تجربته وثقافته القانونية والمدنية.

- فهـــي لا تنتبه لاختلاف الأجناس التي تحكمها، فتتمسك بأصول الإدارة المركزية مع بعد الأطراف عن العاصمة، وتزيد الأمر تعقيدا حين تميز بين أجناس الرعية، ولا تقيم المساواة بين رعاياها.

- لا تحسن اختيار القادة والولاة، ولا تعاقبهم إن أخطؤوا، وهي تكثر من العمـال دون حاجـة سوى أن تحيط نفسها بالمتملقين، بل تميز الأسافل وتجعلهـم وّلاة، وهكذا يتم التعيين في دوائرها وفق قانون المحسوبيات، لا وفق مبدأ تكافؤ الفرص.
- الضـغط علـى الأفكار المتنبهة الواعية، ومداراة المطلعين على عيوب السـلطة العثمانـية، كيلا ينفثوا ما في صدورهم، ويطلعوا العامة على الحقـيقة فتـثور، (أي بلغـة عصرنا) كبت الحريات ومنع المثقفين من ممارسة دورهم التنويري.

وقـد وضع الكواكبي يده على أهم غاية تسعى إليها السلطة، وهي أن يبقى الشـعب جاهلا، فيبقى بالتالي خانعا لأمرائه الجاهلين الذين يتشدقون بالإصلاح السياسي، ويبطنون الإصرار والعناد على ما هم عليه من إفساد دينهم ودنياهم.

تـبدو لـنا سعة أفقه واضحة حين لا يحمّل مسؤولية هذا الضعف والفساد للأمـراء فقـط بـل يشارك الشعب بسبب ضعفه وجهله بهذا الوضع المتردي، فالأمـراء هم **"لفيف منا، وهم أمثالنا من كل وجه، وقد قيل "كما تكونون يولى عليكم" فلو لم نكن مرضى لم يكن أمراؤنا مدنفين..."(6)**

نلاحـظ أنـنا أمـام باحث موضوعي واسع الأفق، إذ لا يرى العيب في الأمـراء وإنما يراه أيضا في أبناء الشعب، الذين يغرقونُ في عالم الجهل، إلى درجة ألفوا معها الذل، حتى إنهم لشدة جهلهم يقلبون الحقائق، فيرون في طالبي الإصلاح مارقين عن الدين لمجرد أن الأمير مسلم، مع أنه يخرّب البلاد بظلمه.

إذاً ينتـبه الكواكبـي إلى طرفي المعادلة الرئيسيين (الحاكم والمحكوم) فلا يلقي تبعة الاستبداد وتخلف البلاد على عاتق الحاكم فقط، فالمحكوم مسؤول عن ضـعفه وجهلـه، لذلك فإن أي تطور أو نهوض لن يكون إلا من صنع الأفراد المحكوميـن، والكواكبي هنا يقتدي بالآية الكريمة "**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**"(سورة الرعد، آية رقم 10).

وتـبدو لـنا النظرة المتعمقة والمتفهمة، لدى الكواكبي، حين ينتقد السلطة الاسـتبدادية **لكونهـا غريبةً عن رعيتها أي غير متجانسة معها**، فقد لاحظ أن أعظـم الملـوك والقـواد الفاتحين كانوا متجانسين مع رعاياهم وجيوشهم في **الأخـلاق والمشارب واللغة** تجانسا تاما، كأنهم رؤوس لتلك الأجسام، لا كرأس جمل على جسم ثور...

إن التطابق بين الحاكم والمحكوم الذي يسعى إليه الكواكبي يجعل الأمة تعدّ رئيسها رأسها، فتتفانى في حفظه كما يتفانى في رعايتها، وهو، هنا، لا يكتفي بالتلميح إلى أن السلطة العثمانية غريبة عن العرب، بل نجده يصرح مستخدما قول الحكيم المتنبي:

إنما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم

كذلك يبين أن افتخار الأتراك بمحافظتهم على غيرية رعاياهم (فلم يسعوا إلى استتراكهم) هو كذب وادعاء، لأن السبب الحقيقي وراء ذلك هو بغضهم للعرب واحتقارهم لهم، ويقدم دليلا على ذلك أقوالهم التي تجري على ألسنتهم مجرى الأمثال (ديلنجي عرب: العرب الشحاذون، عرب عقلي: عقل عربي أي صغير، بسْ عرب: عربي قذر، وهم يطلقون لفظة عرب على الرقيق وكل حيوان أسود...(7).

نلاحظ أن الكواكبي يستفيد من إتقانه للغة التركية، فيتتبع دلالات لفظة (عرب) في هذه اللغة، فيصل إلى نتيجة أن هذه اللفظة لا تحمل سوى دلالات سلبية، تنم عن احتقار للعرب، وابتعاد الهوة بين الحاكم التركي والمحكوم العربي!

لذلك شذّ الأتراك، برأيه، عن غيرهم من الأمم التي حكمت العرب، إذ حاولت أن تنسجم مع رعاياها، فتعلمت العربية (كآل بويه والسلجوقيين والأيوبيين والجراكسة وآل محمد علي) باعتبارها لغة القرآن الكريم والإسلام.

يلفت النظر، هنا، إلى أهمية اللغة الواحدة في خلق عوامل تجمع الأمة، وتجعلها متجانسة، لأن اللغة ليست فقط مفردات وتراكيب محايدة، وإنما هي تجسيد لفكر الإنسان وروحه.

وهكذا رسّخ العثمانيون عوامل الفرقة في الأمة برفضهم تعلم لغة القرآن الكريم، وقد بدا لنا تعصبهم العرقي بأوضح صوره حين حاولوا التتريك في أواخر الدولة العثمانية.

وقد لاحظنا أنه كان ينتقد ممارسة ولاة الدولة العثمانية للتعصب الديني، منذ وقت مبكر، في مقالاته الصحفية، وخاصة في صحيفته (الشهباء) فيبين أن التمييز بين المسلمين والمسيحيين سيؤدي إلى التذمر ويقوّي عناصر الانشقاق والتنازع، مما يؤدي إلى طمع الأغيار في الدولة العثمانية.

لهذا ليس غريبا أن يؤدي مثل هذا النقد إلى إغلاق الصحيفة (1878)كما سبق وأشرنا. لكن ذلك لم يؤدِ إلى تخلي الكواكبي عن أفكاره، سنجده في (أم القرى) بعد ذلك بحوالي عشرين سنة، يبين أن من واجب "جمعية الموحدين" الاعتناء شرعا بتعليم الأمة المجاملة مع غير المسلمين وحسن المعاشرة ومقابلة معروفهم بخير منه، ورعاية أهل الذمة والتأمين والمساواة في الحقوق كي يتم تجنب التعصب الديني أو العرقي، مما يضمن قوة الدولة.

إن المتتبع لأعمال الكواكبي يلاحظ أنه ليس هناك ما يدل "أن مهاجمة الكواكبي العنيفة للأتراك، قد جعلت منه عربيا قوميا بالمعنى الضيق للكلمة، وإنما كان مفكرا إسلاميا مصلحا لحال المسلمين، خاصة بعد أن لاحظ أن السلاطين العثمانيين لم يكونوا مخلصين لإسلامهم، لأنهم قدّموا أولا مصالحهم السياسية التوسعية على مصالح الإسلام الحقيقية..."(8) كما يقول الأستاذ حسن سعيد.

3_ إهمال العلم:

ومما يلفت النظر أنه جعل إهمال العلم والعلماء من الأسباب السياسية التي تسهم في ضعف الأمة، وبذلك نجده يربط النهوض السياسي بالنهوض التعليمي، فيبرز كيف أساء الحكام إلى الأمة حين أهملوا العلم وأفقروا العلماء، وقرّبوا المدلّسين، وفوّضوا خدمة الدين إلى الجهلاء.

ويرى من أسباب ضعف الدولة أيضا: اقتصارها على العلوم الدينية وإهمال العلوم الرياضية والطبيعية، وهو يلفت النظر إلى أن هذه العلوم آخذة في النمو في الغرب، فيلتقي، في نقده هذا، مع رواد النهضة، فقد رأينا رفاعة الطهطاوي يبيّن أن العلماء في الغرب ليسوا علماء دين كالشرق، إذ يطلق اسم العلماء على من له معرفة بالعلوم العقلية(9).

وقد بيّن الكواكبي أن دواء الضعف والتخلف يكمن في الاهتمام بهذه العلوم العقلية النافعة، كما كان المسلمون في الماضي، فيجلبون إلى دينهم منجزات العالم المتمدن، ويبعدون عن عقولهم الخرافات، وهو ينبهنا إلى خطورة الابتعاد عن العلوم، إذ يتحول الإنسان إلى ما يشبه الحيوان، كما قال الله تعالى "**هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**"(سورة الزمر آية رقم 9) فهو يخاطب اللاوعي المقدس لدى المتلقي، فيقدّم للمسلم شاهدا على أهمية العلم من الكتاب

الــذي يقدســه، فــلا يأتيه الباطل من أمامه ولا من خلفه، فيؤثر على الوجدان الديني، مما يزيد حجته قوة، ويدفع المسلم إلى إنقاذ حياته بالعلم كما أمره دينه.

وبذلــك يضع يده على أبرز عوامل النهضة التي سبقنا إليها الغرب، وهو العلــم، فيحاول أن يقدم لنا تجربة الأجداد المسلمين في الاستفادة من علوم الأمم الأخــرى، ويدعــم رأيه هذا بما يكوّن ضمير المسلمين وثقافتهم، فيذكر لهم آية قرآنــية تحــض على العلم، وبذلك يجنّد الموروث الديني إلى جانب التعلم من إنجازات الآخر الذي سبقنا إلى التطور والنهضة.

4_ أسباب أخلاقية:

إن مــا يقصــده الكواكبــي بالأســباب الأخلاقــية هي الأسباب التربوية والاجتماعــية والاقتصــادية، أي جمــيع مناحــي الحياة التي أسهمت في فتور المسلمين.

الأسباب التربوية والاجتماعية:

يشــخص لــنا الكواكبــي أمــراض الأمة الإسلامية، فقد ساد الجهل فيها وارتاحــت إليه، كما بدت الأدوات التي تسهم في إزالته فاسدة: التعليم، الوعظ، الخطابــة، التربية الدينية والأخلاقية، وكما لاحظنا سابقا، فضح الكواكبي بعض الأوهــام السائدة التي تؤسس لسيطرة التخلف على حياتنا: كالاهتمام بعلوم الدين دون سائر العلوم، حتى في هذا المجال نجده يوضح التوهم، الذي كان سائدا في عصره، وهو أن علم الدين قائم في العمائم وفي الكتب لا في العقول، بالإضافة إلى معاداة العلوم العالية (الطبيعية).

وقد وجدناه يبرز أسبابا للضعف تمتزج فيها الجوانب التربوية بالاجتماعية، مــثل ترك المرأة دون تعليم بدعوى أن تعليمها يؤدي إلى الفجور، فيبين أن هذه الدعــوة باطلــة إذ "**ربمــا كانت العالمة أقدر على الفجور من الجاهلة، ولكن الجاهلة أجسر عليه من العالمة**".

وهــو بطريقة غير مباشرة يرد على أولئك الرافضين لتعليم المرأة، فيبين أن التعلــيم يزيدها وعيا وإحساسا بالكرامة، على نقيض المرأة الجاهلة التي لا تستطيع أن تفكر بأبعاد تصرفاتها.

ويوضـــح لــنا الكواكبـــي أن جهل المرأة لا ينعكس على ذاتها فقط، وإنما يتعدى ذلك إلى الزوج والأولاد، فالرجل **"ينجر طوعا أو كرها لأخلاق زوجته، فـــإن كانت سافلة، تسفّل لا محالة، وإن كانت غريبة بغضتّه في أهله وقومه، وجـــرّته إلى موالاة قومها، ولا شك أن هذه المفسدة تستحكم في الأولاد وأكثر الأزواج...وربمـــا كان أكبر مسبب لانحلال أخلاق الأمراء المسلمين أتاهم من جهة الأمهات والزوجات السافلات...إن أعاظم الرجال لا يوجدون غالبا إلا من أبناء وبعول نسوة شريفات أو بيوت قروية..."(10).**

وهكـــذا فـــإن الـــتردي الاجتماعي والتربوي الذي تعيشه المرأة لا بد أن يـــنعكس علـــى الحـــياة السياسية، ويسهم في ترديها أيضا، فالمرأة الحرة تنشئ الأحـــرار، والعـــبدة تنشـــئ العبيد، لذلك لن نستغرب حماقة الأمراء وتمسكهم بالاستبداد وانغماسهم بالترف والشهوات وابتعادهم عن النبلاء الأحرار وتقريبهم المتملقين الأشرار، كل ذلك بسبب الجهل الذي رضعوه من إماء ذليلات!

يلاحـــظ المرء أن الكواكبي اهتم بتربية الإنسان، سواء أكان أميرا أم إنسانا عاديا، لأنه اللبنة الأساسية في عملية النهوض والتطور، لذلك توقف عند التربية الذلـــيلة موضـــحا معالمها بلغة ساخرة، متغلغلا في أعماق النفوس الذليلة التي يدعوها بـــ(الواهنة) راصدا عاداتها السيئة وأفكارها الخاطئة قائلا:

"وهؤلاء الواهنة يحقّ لهم أن تشقّ عليهم مفارقة حالات ألفوها عمرهم، كما قد يألف الجسم السقم، فلا تلذ له العافية، فإنهم منذ نعومة أظفارهم تعلموا الأدب مـــع الكبـــير، يقبلون يده أو ذيله أو رجله، وألفوا الاحترام فلا يدوسون الكبـــير ولـــو داس رقابهم، وألفوا الثبات ثبات الأوتاد تحت المطارق، وألفوا الانقياد ولو إلى المهالك، وألفوا أن تكون وظيفتهم في الحياة دون النبات ذاك يتطاول وهم يتقاصرون، ذاك يطلب السماء وهم يطلبون الأرض كأنهم للموت مشتاقون.

وهكـــذا طـــول الألفـــة على هذه الخصال قلب في فكرهم الحقائق، وجعل عـــندهم المخـــازي مفاخر فصاروا يسمون التصاغر أدبا والتذلل لطفا والتملق فصاحة، واللكنة رزانة، وترك الحقوق سماحة، كما يسمون دعوى الاستحقاق غرورا، والخروج عن الشأن الذاتي فضولا، ومدّ النظر إلى الغد أملا، والإقدام تهورا، والحمية حماقة، والشهامة شراسة، وحرية القول وقاحة، وحب الوطن جنونا"(11).

يجسّد لنا الكواكبي أفكاره الاجتماعية الناقدة، في كتابه "أم القرى"، بأسلوب أدبي حار، ينبض بمشاعر الألم لما آل إليه حال المسلمين، حتى بات الذل مرضا يألفه الإنسان الضعيف إلى درجة لا يفضل الشفاء منه، وقد عمّ الفساد والتشوّه حتى شمل المفاهيم التربوية التي ينشأ عليها الإنسان، التي من المفترض أن تكون في صالحه، فبات احترام الكبير انسحاقا أمامه، مع أن هذا الكبير لا يستحق الاحترام (فيقبلون يده أو ذيله أو رجله) نلاحظ هنا اللغة الساخرة التي تشمل الإنسان المشوّه سواء أكان سيدا (له ذيل) أم عبدا (يرضى بأن يقبّل حتى الذيل) وبذلك سلخت التربية المشوهة سماتهم الإنسانية (حين قبل أحدهم الذل والثاني حين رضي أن يكون مستبدا مذلا للآخرين) فانحدرت الحياة الإنسانية إلى مهاوي الحياة الحيوانية!!

استخدم الكواكبي، هنا، اللفظة الساخرة معتمدا على الدلالة النقيضة (ألفوا الاحترام...) يقصد أنهم ألفوا الذل، وهو يبيّن لنا كيف يقلب الإنسان الذليل دلالات اللغة، فيحمّل ألفاظ الذل التي يستخدمها مع المستبد معاني جديدة نقيضة، إنها ألفاظ الأدب واللطف لا الهوان والخزي، وهو يقلب دلالات الألفاظ النبيلة إلى دلالات الألفاظ السيئة!

هذا التلاعب اللغوي يعكس لنا فهم الكواكبي لنفسية الإنسان الذليل، الذي يريد أن يخفف مظاهر ذله بادّعاء الأدب واللطف، ويهرب من متطلبات الحياة الكريمة العزيزة ومتاعبها بادعاء التعقل! فكأنه يضحك على نفسه، ويموّه حالته السيئة ببعض كلمات تطفئ قلقه، لهذا لن نستغرب شيوع لغة التناقضات في هذا النص التي توحي لنا بانهيار القيم الأصلية وسيطرة قيم الضعف والحياة الذليلة (السقم/ العافية، يتطاول/ يتقاصر، السماء/ الأرض...) ومثل هذه اللغة المتناقضة تضفي حيوية على النص وتزيد قدرته على تجسيد بؤس الحالة التي تشيع بين المسلمين، إلى درجة تنقلب فيها الذلة إلى لطف واحترام!!

ومما زاد جمال نص الكواكبي استخدامه لغة ذات أبعاد تصويرية، تزيد الفكرة وضوحا من جهة وتؤثر في فكر المتلقي ووجدانه، فالأذلاء ألفوا الثبات على ذلهم كثبات الأوتاد تحت المطارق (لنلاحظ هذه الصورة والدلالة القوية للفظة: مطارق، التي تبيّن مدى القهر الذي يتعرض له الإنسان، إذ تنهال عليه المطارق دون أن يحرك ساكنا، فقد أصبح فاقدا لإنسانيته كالوتد) قد جاءت الصورة الثانية لتؤكد بشاعة الوضع الذليل الذي يصل بالحياة الإنسانية إلى أدنى من حياة النبات، يلفت نظرنا استخدامه لفعل (ألفوا) للدلالة على طغيان قانون

العـادة والألفـة الذي يجعل وظيفتهم في الحياة دون وظيفة النبات ذاك يتطاول معتزا بخدمة الحياة، في حين يتقاصر هؤلاء الأذلاء ملتصقين بالأرض، فشتان بين صورة من يطلب السماء بعزته وبين من يطلب القبر بذله!

إذاً إن مـثل هـذا التصـوير الذي يجتاح المخيلة ويؤرق الوجدان، فيزيد المتلقـي نفورا من حياة الذليل ومن بشاعة ثباتها تحت مطرقة الاستبداد، فتبدو حـياته هامدة لا أمل في تغييرها! لهذا يرضى الإنسان الذليل أن يعيش ملتصقا بـالأرض كأنه يشتاق القبر ولا يعرف سوى الحضيض، غافلا عن نعمة الحياة وروعـة الحركة، في حين نجد حتى النبات مزهوا بحياته، يطمح لتجاوز واقعه والوصول إلى السماء علوا ورفعة!

جسّـد لنا هذا التصوير التحريضي وهذه اللغة الاستفزازية روح الكواكبي الثائرة وفكره المتيقظ الذي طمح إلى التغيير، فيبدأ بتحريض واستفزاز الإنسان نواة النهضة الحقيقية، معتمدا على كل ما يملك من إمكانات جمالية وفكرية.

5_ التفرنج:

هـناك مرض آخر عانى منه الإنسان المسلم وما زال يعاني **(هو التفرنج)** وذلـك حين يظن الكمال في الأجانب، فيندفع إلى تقليدهم مهملا واجباته الدينية وعاداتـه القومـية التـي تهبه هوية خاصة به، لذلك يرى من الواجب محاربة "المتفرنجين" بكل وسيلة، بل نجده يدعو الأدباء إلى ممارسة دورهم في التوعية، وذلك بوضع الأهاجي والأناشيد بعبارات بسيطة محلاة بالنكتة، كي تنتشر على ألسنة العامة، فيتم القضاء على هؤلاء الواهنة، ونشر قيم أصيلة بين العامة.

إذاً يوحـي لنا الكواكبي عبر هذه اللفظة الدقيقة (الواهنة) بالمرض الشامل للعقل والجسد وهو يصيب أولئك الذين يرون في الأجنبي مثلا أعلى له، وهو لا يكتفـي بالإيحـاء بـل نجـده يحدد لنا سمات الواهنة: إنهم أناس أذلاء بائسون فاشـلون ممسـوخو الشخصية أمام المستبد حين يرضخون له، وهم كذلك أمام الغربي حين يقلدونه!!

6_ الأسباب الاقتصادية:

انتبه الكواكبي إلى أن الأسباب السياسية، التي رأينا بعض ملامحها سابقا، فـي ضـعف المسـلمين، أدت كذلـك إلى ضعفهم من الناحية الاقتصادية، فقد

انحصـــر همّ النظام السياسي بالجباية المقلوبة، أي في الأخذ من الفقراء وإعطاء الأغنياء، وكذلك بات الاهتمام بالجندية مشجعا الناس على تفضيل الارتزاق بها وتـــرك الصـــنائع!! إذ يترك الناس الحياة التي تعتمد على العمل اليومي الشاق ليركـــنوا إلـــى الارتزاق الشهري الذي يبدو أكثر سهولة واستقرارا! وبذلك يتم إهمال الحرف والزراعة!

كذلـــك نجده يبيّن أثر إهمال الحقوق العامة على النفوس، إذ تصاب باليأس والخمـــول، فتـــترك العمل، بعد أن فقدت الحافز الذي يدفعها لبذل الجهد مادام العـــدل مفقودا! وهذا يؤدي إلى افتقاد الإنسان الإحساس بالأمان، هذا الإحساس الذي يعدّ ضروريا لاستمرار أي عمل وتطويره.

أما إهمال الرابطة الدينية فقد تجلى في انحلال نظام الحسبة (المراقبة) كما تجلى في فقدان القوة المالية الاشتراكية بسبب التهاون في الزكاة!

وقـــد بـــدا داء الفقر لدى الكواكبي داء عاما، فهو **"قائد كل شر، ورائد كل نحـــس، فمـــنه جهلنا ومنه فساد أخلاقنا، بل منه تشتت آرائنا في ديننا، ومنه فقـــد إحساســـنا..."** فهو، إذاً سبب كل المصائب التي تحيط بالمسلمين (الجهل، الفساد، الذل، التهاون في الدين...).

وهـــو يحـــاول أن يبعد اليأس عنا، ويبث الثقة في نفوسنا، فيبيّن أننا نملك مقومـــات النهضـــة مـــن حيث تكويننا الفطري، وعددنا الكثير، وغنى أرضنا، وشرعنا القويم، لذلك لا ينقصنا عن الأمم الحية غير القوة المالية، التي أصبحت لا تحصّل إلا بالعلوم وبالفنون العالية، وهذه لا تحصل إلا بالمال الطائل، فوقعنا في حلقة مفرغة، عسى أن نهتدي لفكّها، وإلا **أصابنا ناموس فناء الضعيف في القوي وبيننا الجاهل والعالم**(12).

إنـــه يدل الأمة على طريق النهوض، فيدعوها لامتلاك القدرة المادية التي لـــن تحققهـــا إلا بـــرعاية العلـــم والعلماء، يلفت نظرنا اهتمام الكواكبي بالقدرة الروحـــية التـــي تحققهـــا الفنون، فترتقي بإنسانية الإنسان، فتشكل أساسا قويما لامـــتلاك القـــوة المالـــية، كما وجدناه يدل الإنسان على طريق تطوير وضعه الاقتصـــادي، فنجده يدعوه إلى العمل بإتقان، فيعطي العمل وقتا مناسبا وتفرغا، وأن يـــنفق على قدر ما يكسب، ويرتب أموره الدينية والدنيوية بما يتناسب مع دخلـــه، وأن يقتصد في النفقة من أجل مرحلة العجز، وأن يربي أولاده (ذكورا وإناثا) على الاعتماد على النفس.

وقـــد انتبه منذ وقت مبكر إلى جانب فكري هام أسهم في تخلفنا وضعفنا،

هو افتقاد النقد، رآه سببا مؤثرا في أخلاقنا وسلوكنا، إذ بفضل النقد نتعرّف على عيوبــنا ونحــاول تجاوزهــا، كما نتعرّف على محاسننا فنقوم بتطويرها، مما ينعكس إيجابيا على حياتنا الأخلاقية والسلوكية، ومثل هذه الفعالية النقدية مازلنا نفتقدها إلى اليوم ونتجاهل أهميتها، وقد سماها الكواكبي "**التباعد عن المكاشفات والمفاوضات في الشؤون العامة**" فهو يقصد بـــ"**المكاشفات**" إظهار العيوب التي تنخر جسد الدولة، أما "**المفاوضات**" فيقصد بها الحوار الذي يجب أن يدور حول القضايا العامة والأزمات التي تعرقل نهضتنا، ومن البديهي أن أي تطور حقيقي لا بــد أن يـــبدأ من نقد السلبيات التي تعوق مسيرته، ليتمّ تجاوزها على أسس واعــية، وبذلك نستطيع القول بأن الكواكبي قد سبقنا في الانتباه إلى أهمية النقد والحوار، ومازال المفكرون العرب ينادون بضرورتهما لأية نهضة حقيقية.

ولكن أين يكمن الخلاص والأمل لدى الكواكبي؟

إن هذا الخلاص لن يكون إلا لدى الشباب المتديّن الذي يحرص على القيام بواجــباته الدينية ويتجنب المنكرات، لا يفتخر بعظام نخرها الدهر، ولا يرضى أن يكون حلقة ساقطة بين الأسلاف والأخلاف، لأنه يملك شخصية متميزة غير ممسوخة، لذلك يأبى الذل والأسر ويود أن يموت من أجل كرامته، يحب وطنه ولا يبخل عليه بفكره ووقته وماله، ويعلم أن **الإنسانية هي العلم والبهيمية هي الجهالــة، يعرف أن خير الناس أنفعهم للناس، وأن القنوط وباء، وأما القضاء والقدر فهما السعي والعمل(13).**

مــا يلفــت النظر، هنا، هو هذا الفهم الجديد الذي يقدمه الكواكبي للقضاء والقــدر، إذ يجعلهمــا مرادفيــن للعمل والسعي، بعد أن كانا مرادفين للتواكل والاستسلام في عصور خلت!!

إن الكواكبي يقدم فهما جديدا للموروث الديني، كي يجعله عامل دفع وبناء للإنســان، لذلــك نجده يذكرنا بأن الله تعالى، جلّت حكمته رتب هذه الحياة على أســباب ظاهرية، ولم يشأ أن يجعلها كالآخرة عالم أقدار، فالتغيير لا بد له من معــرفة الأسباب العقلية التي تقضي على مسببات الضعف، لهذا دعا إلى تربية تعــتمد مــبادئ قويمــة تبني الإنسان من الداخل، مما يجعله نواة رأي عام لا يتطرق إليه التخاذل.

دور المثقف ومسؤوليته لدى الكواكبي:

يحسن الإشارة في البداية إلى أن مصطلح "المثقف" لم يكن متداولا زمن الكواكبي، لذلك سنجده يستخدم مقابلا له مصطلح (الحكماء، العلماء، الفقهاء...)

جسّد لنا الكواكبي عبر مواقفه الحياتية وكتاباته الصحفية ومنشوراته من الكتب خير صورة للمثقف التنويري الذي يؤمن بأن خدمة الوطن واجبة على كل إنسان حسب إمكاناته، والذي يحس بمأساة التخلف التي تعيشها أمته، فيسهم في نهضتها، ويرى معنى وجوده يتلخص في مساهمته في القضاء على الذل والضعف اللذين يكبلان أمته.

وقد لاحظ أننا نفتقد في أمتنا الحكماء ذوي النشاط والعزم الذين "**ينبهون الناس ويرفعون الالتباس**" فيجمعون بين الفكر الواعي والعمل بعزم، يضحون بأعزّ ما لديهم حفظا لشرفهم الذي لا يقوم إلا بشرف قومهم، بل **حفظا لحياتهم وحياة قومهم من أن يصبحوا أمواتا متحركين في أيدي أقوام آخرين**.(14)

إنه يحمّل المثقف مهمة إيقاظ الناس وتوعيتهم حتى يستطيعوا معرفة واجباتهم وحقوقهم، وهو لن يستطيع القيام بمهمته هذه إلا إذا امتلك القدرة على التضحية وإلغاء أنانيته، عندئذ يستطيع أن يمتزج بقومه امتزاجا تاما فيرى شرفهم هو شرفه، وحياتهم هي حياته، وبذلك يتفاعل الخاص بالعام لديه، فيتمكن من حماية نفسه وقومه من الموات، إذ يصبح بإمكانهم الحفاظ على هويتهم والدفاع عن وجودهم تجاه المعتدي، وبذلك يضع الكواكبي المثقف بين خيارين إما أن يسهم في تفعيل النهضة فيحيي أمته، وإما أن يتوانى عن ممارسة وعيه فيسهم في موتها.

إنه يرى بداية النهضة تكون بولادة إنسان جديد يمتلك سمات خاصة بأمته، لذلك يحمّل المثقف أمانة الحفاظ على كيان هذا الإنسان وهويته، كي يستطيع مواجهة الآخر المعتدي، ومثل هذا الدور لن يكون فاعلا إلا باجتماع الوعي بالممارسة، وهذا ما نزال نفتقده إلى الآن لدى المثقف العربي، الذي مازال مكبلا بهمومه الذاتية أكثر من هموم الوطن باعتقادنا!

وقد وجدنا القضية (31) في كتابه (أم القرى) بمثابة توصية من جمعية الموحدين إلى الأمراء أن يتيحوا لأحد العلماء الغيورين في كل بلدة (أي للمثقف) صفة محتسب ديني على جماعة المسلمين في تلك البلدة، يساعده مستشارون منتخبون من عقلاء الأهالي، وبذلك تتشكل جمعية احتسابية مهمتها

النصيحة للمسلمين دون عنف، وتسهيل تعميم المعارف والمحافظة على الأخلاق الدينية، إنه يرتفع بهؤلاء العلماء الغيورين على مصلحة أمتهم إلى ما يشبه مقام الأنبياء، فهم يقومون بدور الهداية إلى خير الدنيا والآخرة.

وقد رأى في انعزال العلماء الحقيقيين عن الحياة العامة، وانحراف العلماء الرسميين (الذين دعاهم الجهّال المتعمّمين) داء دفينا وسببا من أسباب ضعفنا، فقد أفسد هؤلاء المدلسون الدين وجعلوا كثيرا من المدارس تكايا للبطالين ... ورغم ذلك نالوا بسحرهم نفوذا عظيما، مما ضيق على العلماء الخناق، لا رزق ولا حرية، فضاع العمل والدين، فاضطربت عقائد العامة، وفقدت قوانين الله، ففسدت دنياهم واعتراهم هذا الفتور.

وقد كرر القول بأن الفقهاء أحد أكبر أسباب انحطاط المسلمين، فهم يضيقون الدين على المسلمين وذلك بتوسيع دائرة أحكامهم وتكفيرهم، إلى درجة لا يكاد مسلم يصل إلى مرتبة الإيمان والنجاة، لتعذر تطبيق جميع عباداته ومعاملاته التي يتطلبها هؤلاء الفقهاء المتشددون.

وبذلك أصبح الجمهور الأكبر من المسلمين يعتقدون في أنفسهم التهاون اضطرارا، فيهون عليهم التهاون اختيارا، وبسبب هذا التشدد التجأ كثير من المسلمين إلى الصوفية التي تهوّن عليهم دينهم.

وعلى هذا الأساس بات هؤلاء الفقهاء يمارسون دورا مقلوبا.فبدل أن يقربوا الناس من الدين باتوا ينفرونهم، إنهم أبعد ما يكونون عن روح الدين الإسلامي، الذي لمسناه في قول رسوله (ص) "**يسروا ولا تعسروا**" والسبب في ذلك أن هؤلاء الفقهاء يعانون الجهل في أمور دينهم، ويعيشون على ما ألفوه من أفكار لدى آبائهم!

ولهذا كله لن يكون مستغربا أن نجد في توصيات الجمعية (جمعية أم القرى) وقضاياها (قضية 27) توصية تدعو إلى الاهتمام بإيقاظ فكر علماء الدين، وتنشيطهم للسعي في تطوير التعليم باتباع خمسة أمور هي:

1. تعميم القراءة والكتابة مع تسهيل تعليمهما.
2. الترغيب في العلوم النافعة التي هي من قبيل الصنائع، مع تسهيل تعليمها.
3. تخصيص كل من المدارس والمدرسين لنوع واحد أو نوعين من العلوم والفنون، لنجد في الأمة أفرادا متخصصين.

4. إصلاح تعليم اللغة العربية والعلوم الدينية، ليسهل تحصيلهما في أقصر وقت، فيتمكن الطالب من تحصيل العلوم النافعة الأخرى.
5. السعي من أجل توحيد أصول التعليم وكتب التدريس.

وإذا كـان يرى أن بداية النهضة التعليمية تتم على يد علماء الدين، فإنـه في توصية أخرى (قضية 29) يطوّر نظرته إلى العملية التعليمية وينتبه إلـى أهمـية الـنهوض بالإنسان القائم على ممارستها وتحسين ظـروف حـياته، وهـو ينتبه إلى تلك العلاقة الدقيقة بين سوية المتعلم والمعلم، فيجعلها على أربع مراتب:

1. العامة ومعلموهم أئمة المساجد.

2. المهذبون ومعلموهم مدرسو المدارس العمومية والجوامع.

3. العلماء ومعلموهم مدرسو المدارس المختصة.

4. النابغون ومعلموهم الأفاضل المتخصصون(15).

إذاً قـد تكون بداية التعليم منوطة برجال الدين، لكن حين يرتقي المتعلمون تصبح الحاجة ملحة إلى مدرسين مختصين، يستطيعون تناول علوم أخرى غير علوم الدين.

وقد انتبه الكواكبي منذ وقت مبكر إلى أهمية العناية بالطلبة النابغين، وذلك بفـرزهم عـن الطلـبة العاديـين في مدارس خاصة من جهة وبوضع أساتذة مختصـين لتعلـيمهم مـن جهة أخرى، ومثل هذه العناية ستكون أحد العوامل المؤسسة لبداية نهضة علمية باعتقادنا.

وقـد أكـد على قدسية مهنة التعليم كمهنة الطب، لذلك يتوجب على أمراء الأمة التدقيق والحجر رسميا على كل من يتصدر للتدريس والإفتاء والوعظ ما لـم يكـن مجـازا من قبل هيئة امتحانية رسمية موثوق بها تقام في العواصم، وبذلـك نـبعد الجهّال عن ممارسة جهلهم في منابر العلم والدين، لنحافظ على عقول الأجيال ووجدانهم كما نحافظ على أجسادهم.

يلفـت نظـرنا هـذه المكانة الرفيعة التي يمنحها للمعلمين، إذ يجعلهم في مصـاف الأطـباء وفقهـاء الدين وأئمة الجوامع، لذلك يجب أن يخضع هؤلاء جمـيعا للامـتحان من قبل لجنة رسمية، فتنتخب العالم لممارسة هذه الوظائف الحساسة، وتحظر على الجاهل القيام بمثل هذه الوظائف.

وكذلك وجدناه في إحدى توصياته (قضية 32) حريصا على دعوة الدولة إلى تأمين الرزق والمكانة الرفيعة للعلماء، فتمنعهم عن كل ما يخل بشرفهم ومكانتهم، وبذلك يؤكد أن بداية النهضة ستكون بالعناية بالعلم والعلماء.

موقف الكواكبي من العروبة:

لاشك أن انتماء الكواكبي العريق إلى بيت النبوة (ينتهي نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه) سيجعله أكثر الناس اعتزازا بعروبته وإسلامه معا، وربما أكثر حساسية للوضع الذليل الذي تعيشه الأمة الإسلامية.

يلاحظ المتتبع لكتاب "أم القرى" اهتمامه بالإسلام أكثر من العروبة، لعل السبب في ذلك أنه يرى الإسلام والعروبة شيئا واحدا، لذلك يكون النهوض بأمة الإسلام نهوضا بالعرب، على اعتبار أنهم يشكلون نواة الإسلام، وقد بيّن، كما رأينا سابقا، استحالة أي نهوض حقيقي ما لم يكن مصاحبا بنهضة تعليمية تبدأ بإصلاح اللغة العربية التي يجب أن تكون لغة المسلمين جميعا.

وقد ظهر اعتزازه بعروبته واضحا حين أعلن أن العرب هم أكفأ الناس لإزالة الضعف بين المسلمين، لذلك نجده يشترط في الأعضاء العاملين والمستشارين في جمعية (أم القرى) القدرة على التكلم والكتابة بالعربية، أما الأعضاء الفخريون فعليهم أن يتقنوا إحدى اللغات الأربع التي يتكلم بها المسلمون: العربية، التركية، الفارسية، الأوردية.

وبما أنه يرى أن السبب الأعظم لمحنتنا هو انحلال الرابطة الدينية، لذلك يعول على أهل جزيرة العرب في حفظ الحياة الدينية والنهوض بها، جاعلا المركز الرسمي للجمعية العامة في "مكة المكرمة" ومبينا مزاياهم فيذكر ستا وعشرين ميزة تؤهل العرب لخدمة "**الكلمة الدينية بل الكلمة الشرقية**" على حد قوله.

ولو تأملنا هذه الميزات للاحظنا أنها مكتسبة من صلتهم العميقة بالإسلام من حيث تأسيسه ونشره بين الأمم، ومن حيث التزامهم بأخلاقه ومبادئه (المساواة، الشورى، احترام العهود...) أو فطرية تنسجم مع حياة البادية (الأنفة، تحمّل قسوة العيش، عدم الاختلاط بالأمم الأخرى...) بالإضافة إلى مميزات تتعلق بلغتهم العربية (لغة القرآن الكريم) فهي أغنى اللغات وأوسعها انتشارا.

رغم حماسته للعروبة لا نستطيع أن ندعي بأن الكواكبي في هذه الفترة (1898) كان من دعاة الانفصال عن الدولة العثمانية صراحة (وإن وجدناه في ملحق الكتاب يلمح إلى ذلك) وعلى هذا الأساس نجده يعدد خصائص الأمم الأخرى، إلى جانب خصائص العرب، جاعلا لها مقاما مهما، وإن لم يكن رئيسيا، فقد جعل لكل أمة وظيفة في الجامعة الإسلامية، إذ أناط مسؤولية حفظ الحياة السياسية ولاسيما الخارجية بالترك العثمانيين، ومراقبة حفظ الحياة المدنية التنظيمية تليق بالمصريين، والقيام بمهام الجندية يناسب أن يتكفل بها الأفغان وتركستان والقوقاز يمينا ومراكش وإمارات إفريقيا شمالا، وتدبير الحياة العلمية والاقتصادية خير من يتولاها أهل إيران وأواسط آسيا...

نلاحظ أن مفهوم العروبة، بكل صفائه، يتجسد لديه في شبه الجزيرة العربية دون غيرها، لذلك تحدث عن دور المصريين في الجمعية وأهل شمال إفريقية دون أن يشير إلى رابطة العروبة التي تجمعهم مع أهالي شبه الجزيرة العربية، ولا شك أن مفهوم العروبة قد تطور عما كان عليه زمن الكواكبي لهذا لا يحق لنا أن نلومه على فهمه هذا خاصة أنه كان في بداية تلمس طريق الوعي الذاتي.

وبما أن الجمعية يهمها أمر النهضة الدينية أولا، لذلك رأت أن تربط آمالها بالجزيرة وما يليها (الشام والعراق) وكي يدفع عن نفسه تهمة التعصب السياسي أو العرقي نجده يبرر أسباب ميل الجمعية للعرب وموطنهم شبه الجزيرة (**فهي مشرق النور الإسلامي، فيها الكعبة والمسجد النبوي، تقع في وسط الدول الإسلامية، وهي سليمة من الأخلاط الجنسية والدينية، بعيدة عن الأجانب والطامعين نظرا لفقرها الطبيعي**(16) إذ لم يكن قد اكتشف فيها النفط بعد.

إن هذه النزعة في تفضيل العرب على غيرهم من الأمم سبقه إليها الطهطاوي الذي رأيناه يقول "**العرب هم خيار الناس، وقبائلهم أفضل القبائل... ولسانهم أفصح الألسن، ولقد اشتهرت أمة العرب جاهلية وإسلاما بالفضائل...**"(17).

لعل الغاية من هذا الحديث لدى بعض رواد النهضة هي بث الثقة في النفوس الخانعة والضعيفة، لكن يضاف إلى ذلك، لدى الكواكبي، أن هذه الإشارة إلى مميزات العرب وجزيرتهم العربية كانت أشبه بتمهيد منطقي، يريد منه أن يقنعنا بما سنجده في الملحق من قرار خطير وهو (إقامة خليفة عربي قرشي مستجمع للشرائط في مكة) وهذا إعلان صريح برفض السلطة العثمانية

التي كانت تدعي الحفاظ على الإسلام والتي جمعت بين السلطنة والخلافة زمن السلطان عبد الحميد الثاني الذي عاصره الكواكبي وحاول أن يردّ عليه بطريقة علمية ستظهر في مقالاته الصحفية (خاصة في جريدة "العرب" التي أصدرها في مصر) وعملية ستظهر في تأليفه لجمعية "أم القرى" لذلك يعدّ هذا الإعلان بعروبة الخليفة إعلانا جريئا في تلك الفترة، إذ لم نجد رائدا من رواد النهضة يدعو إليه، فهو يطعن في أهلية الأتراك لاستلام السلطة الدينية، خاصة أن السلطة العثمانية حاولت أن تستغل الرابطة الدينية التي تقوم بينها وبين العرب، لاستمرار سلطتها عليهم.

ومما يلفت النظر في دعوته للخلافة العربية أنه جعلها خلافة دينية لا شأن لها بالسياسة، وهي تقوم على الشورى، بل يجعلها أشبه بانتخاب رئيس للجمهورية، إذ يعاد تجديد البيعة للخليفة (أي الانتخاب) كل ثلاث سنوات، كما أن الخليفة ليس لديه سلطة عسكرية، حتى حفظ الأمن في الحجاز يناط بقوة عسكرية مختلطة يكون قائدها من إحدى الإمارات الصغيرة، يتلقى أوامره من هيئة الشورى(18).

وبذلك يبدو لنا وقد منح السلطة الدينية (الخليفة) بعدا رمزيا، إن هذا الخليفة يشكل استمرارا لنمط من الحكم كان سائدا في الأمة الإسلامية، لكن الكواكبي يمنحه بعدا شكليا، إذ لا دور سياسي له ولا عسكري، بل نلاحظ أن إدارة أمور الدولة تعود إلى مجلس شورى منتخب، وبذلك يعلن عن فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية، مبينا لنا إصراره على عدم تكرار النماذج السيئة للجمع بين السلطتين في نموذج حاضر هو السلطة العثمانية، وفي نموذج غائب حاضر في التاريخ الإسلامي (الخلافة الأموية والخلافة العباسية) إذ لم نجد في تاريخنا النموذج الصحيح لاجتماع هاتين السلطتين إلا في العصر الراشدي، بل قد لا نجد سوى خليفة واحد في العصر الأموي استطاع أن يقدم لنا نموذجا مشرقا لاجتماع السلطتين الدينية والسياسية (عمر بن عبد العزيز).

ومما ساعده في إعلان هذا الرأي الخطير، في زمنه، هو الشكل التخييلي الذي اعتمده، باعتقادنا، فقد جعله بعيدا عن صوته الخاص به، يأتي عبر رسالة يرسلها الصاحب الهندي تتضمن لقاءه بأمير (مجهول الاسم) وحواره معه، ثم رغبة هذا الأمير في إرسال آرائه إلى السيد الفراتي، وقد أحاطه، مع ذلك، بالسرية التامة، فلم نجد له اسما ولا بلدا ينتمي إليه، حتى عادته في إطلاق اسم رمزي على شخصياته تدل على بلدهم، نجده يتخلى عنها زيادة في السرية،

اكتفى بإحاطته بصفات نادرة (**أمير جليل، فاضل، من أعاظم نبلاء الأمة ورجال السياسة**).

إن دعوتـــه إلى خلافة عربية مردها، إلى جانب الاعتزاز بعروبته، ضيقه مـــن السلطان التركي الذي أعلن نفسه خليفة، حتى إنه وصل حد الشرك بسبب غـــروره وظلمـــه، لهذا أورد رأي رجال الدين في **تفضيل الحاكم الكافر العادل علـــى المســلم الجائر**، وذلك حين سألهم هولاكو بعد دخوله بغداد: أيهما أفضل (السلطان العادل الكافر أم الجائر المسلم)(19) .

إنـــه يريد أن يثبت في الأذهان أن وظيفة الحاكم وظيفة دنيوية الغاية منها العدل وإقامة المصالح العامة وإعمار البلاد وترقية العباد، وأي حاكم يقوم بهذه الغاية، مهما كان دينه وجنسه، جدير بحكم المسلمين، لهذا وجدناه يجعل للخليفة العربـــي وظـــيفة دينـــية لا سياســـية، فيفصل بذلك السلطة الدينية عن السلطة السياســـية الدنـــيوية، وقـــد توصـــل إلى هذا الرأي نتيجة ما لاحظه من معاناة المسلمين في ظل الحكم العثماني، فقد أساء السلطان العثماني الحكم وتمادى في الإساءة نظرا لاجتماع السلطتين الدينية والسياسية لديه.

وقـــد لاحظـــنا أن الإمام محمد عبده يفصل أيضا بين هاتين السلطتين، إذ يؤكد أنه "**ليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر، هي سلطة خوّلها الله لأدنى الناس يقرع بها أنف أعلاهم، كما خوّلها لأعلاهم يتناول بها أدناهم**"(20).

لكـــن مـــيزة الكواكبي، باعتقادنا، أنه لم يكتفِ بالتلميح للفصل بين السلطة السياســـية والسلطة الدينية بل وجدناه يصرح بذلك، وبذلك يكون قد سبق الشيخ علـــي عبد الرازق الذي أكد على هذا الفصل في كتابه "الإسلام وأصول الحكم" الذي صدر عام (1925) في حين صدر كتاب "أم القرى" عام (1898).

قـــد يكـــون لبعض رواد النهضة المسيحيين (سليم البستاني) أثر في دعوته تلـــك، برأي جان دايه، لكننا نعتقد أن معاناة الكواكبي، سواء على صعيد ذاته أم قومـــه، قـــد كان لها أكبر الأثر في هذا الفصل، خاصة وقد لاحظ كيف تستغل الســـلطة العثمانية هذا الجمع استغلالا كبيرا، وقد وجدنا ما يؤكد هذا الفصل في مقالاتـــه الصحفية خاصة التي نشرها في مصر، بعيدا عن يد السلطة العثمانية، فـــيقول مـــثلا في "المقطم"(1899) "**نصحت لأبناء ملتي في المقطم أن يجعلوا اتكالهم على أنفسهم في تدبير مصالحهم ولا يلقوا كل اعتمادهم على الحكومة، وأن يـــراعوا دوران الزمان وتغير الأحوال طبقا لمقتضى العمران، فلا يتكلوا**

علـــى الدولـــة العلية في دينهم ودنياهم، بل يطالبوها بالواجب عليها في أمور معاشهم ويقوموا هم بالواجب عليهم في أمور معادهم...إن الغاية التي تسعى إلـــيها الدولة في زماننا دنيوية محضة، وأعني بها تأمين الناس على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم وسنّ القوانين العادلة لهم وإنفاذها فيهم، فإذا قمنا نطلب بلـــوغ الغاية الدينية اللازمة للجامعة الإسلامية من دولة غايتها دنيوية محضة فطلبنا يذهب سدى وسعينا يكون عبثا"(21).

لا نســـتطيع أن نـــتخذ مـــن هـــذا القول، كما رأى الباحث جان دايه، أن الكواكبـــي كـــان مفكـــرا علمانيا، يريد أن ينحّي الدين جانبا، فيعزله عن الحياة الدنـــيوية ويجعلـــه محصـــورا بالآخرة، بل لاحظنا اهتمامه الكبير بتجديد روح الديـــن، وجعله أساس كل نهضة في الحياة الدنيا، وهو حين يبعد السلطة الدينية عـــن السلطة السياسية يستطيع أن يبعد عنها القداسة وبالتالي يخضعها للحساب والنقد دون خوف.

وهـــو هـــنا يناقش دعاة الجامعة الإسلامية في مصر، ومن بينهم صاحب "المـــنار" محمـــد رشـــيد رضـــا، الذيـــن هاجموه واتهموه بالكفر ورق الكفار (الغربييـــن) فـــنجده يوقع مقالته بـــ(مسلم حر الأفكار) ويختمها قائلا **"فالواجب عليـــنا نحـــن المسلمين أن نعوّل على أنفسنا وعلى أفرادنا لا على الدولة في تعلـــيم قومـــنا وإعلاء شأن ديننا وإعداد المسلمين لقبول الجامعة الإسلامية، ومـــتى استعدّوا لها وأدرك عامتنا الغاية المقصودة منها، كما يدركها خاصتنا الآن، فحينئذ يكون زمان الدعوة إليها قد حان...".**

لا يـــرفض الكواكبي الجامعة الإسلامية، لكنه يريد أن تكون هذه الجامعة مطلـــبا شعبيا، لا مطلبا نخبويا، خاصة إذا عرفنا أن المثقفين المصريين تبنوها نتـــيجة دعـــوة أطلقهـــا السلطان عبد الحميد، وهو يبحث عن الطرق الصحيحة لتجسّـــيدها علـــى أرض الواقع، لذلك وجدناه يريد أن يؤسس الجامعة الإسلامية علـــى أساس نهضة دينية، يكون للمثقف.دور مهم، في إيقاظ العامة والتأثير بها عـــن طـــريق العلم، فيعدّهم لتقبل فكرة الوحدة الإسلامية على أسس معرفية لا عاطفـــية، وبذلك يرتفع بالعامة إلى مستوى المثقفين، فيحملهم مسؤولية النهضة، حين يزودّهم بالعلم ليصبحوا حريصين على الوحدة فاعلين من أجلها.

إذاً ينفـــي، هـــنا، الكواكبي عن نفسه تهمة الكفر بطريقة ذكية مهذبة، حين يحـــاور مـــن يخالفـــه الـــرأي بطريقة هادئة طارحا بعض الأسس العملية التي بإمكانها أن تحقق الجامعة الإسلامية الفكرة التي يؤمن بها الكواكبي ومن يتّهمه

بالكفر (عن طريق تعليم العامة وتجديد الدين) مبينا أن هذه الجامعة لا تعني عدم الفصل بين السلطة الدينية والسياسية، مبينا عن طريق المنطق أن هذا الارتباط ليس ضروريا، إذ إن سقوط الخلافة العباسية لم يؤدِ إلى القضاء على الإسلام.

يلفت نظرنا في هذا الحوار اللهجة الراقية والمهذبة التي وجهها إلى (محمد رشيد رضا) الذي اتهمه بأقذع التهم، فكان ردّه بأن وصفه بالفاضل"**والغريب أن صاحب المنار الفاضل نعى عليّ ما نعى وطعن فيّ ما طعن، واتهمني بالمروق والغدر...** " مفصحا في آخر المقال عن رغبته في اللقاء لا في الصراع، لهذا يخاطبه بيا صاحبي ويوجه له نصيحة صديق لصديقه "**اعلم يا صاح أني أحب أن أعيش معك ومع جميع الناس بحب وسلام. فالشغل كثير والعمر قصير، فلا نضيعه في تنغيص العيش بقوارض الكلام، ولكن خذها مني نصيحة صديق لصديق ... إن من يقيم في هذا القطر وينكر الخلافة في الأستانة لا يوافقه وصف الحرية في هذه الديار "برق الكفار"**".

يبدو لنا الكواكبي قد عانى من صفة الكفر والعبودية للغربيين التي وصفه بهما (محمد رشيد رضا) فردّ عليه بأن من هرب إلى مصر من أجل الحرية، ورفض الخلافة العثمانية يؤلمه أن توصف الحرية بنقيضها ويتهم بالكفر!!

إن هذا الحوار الهادئ مع الآخر المخالف في الرأي، وهذه الصفات الإيجابية التي وصف بها من وصفه بصفات سلبية مؤلمة، جعلت من محمد رشيد رضا صديقا حميما له، سيفسح له المجال في صحيفته "المنار" ليكتب مقالاته، وينشر أجزاء من كتبه، ويرثيه حين قتل قائلا: "**في يوم الجمعة 6 ربيع أصيب الشرق بفقد رجل عظيم من رجال الإصلاح الإسلامي وعالم من علماء العمران وحكيم من حكماء الاجتماع البشري...الصديق الكريم والولي الحميم، بل هدّمت منا الركن الركين، وقوّضت أقوى الدعائم والأساطين...**".

وهكذا فإن الحوار الهادئ المبني على احترام الآخر يؤسس لصداقة تنمّي الأفكار وتقوي العلاقات الاجتماعية والثقافية، فلا يضيع عمر المثقف في المهاترات والشتائم، لأن هناك أموراً عظيمة تنتظره.

بناء على ذلك يمكننا أن نقول بأن الكواكبي قد سبق رواد النهضة من معاصريه، وربما سبق الكثيرين من المفكرين المعاصرين اليوم، بالقدرة على الحوار الموضوعي، والتأكيد على ضرورة امتلاك المفكر الروح الديمقراطية، فلا يصر على أنه يقدم الحقيقة المطلقة للآخرين، وأن هؤلاء

عليهم الأخذ بها دون حوار أو تفكير، لذلك نجده يدعو (في كتابه أم القرى) المفكرين الرواد إلى "عدم الإصرار على الرأي الذاتي، وعدم الانتصار له، واعتبار أن ما يقوله ويبديه كل منا، إن هو إلا خاطر سنح له، فربما كان صوابا أو خطأ، وربما كان مغايرا [لما في نفسه] اعتقادا أو عملا، وهو إنما يورده في الظاهر معتمدا عليه، وفي الحقيقة مستشكلا أو مستثبتا أو مستطلعا رأي الغير"(22).

إن طرح الأفكار لا يعني طرح الحقيقة الكاملة، وإنما يعني إتاحة الفرصة للفكرة عن طريق الحوار مع الآخرين لتثبيتها أو نقضها أو تطويرها، لهذا جعل الفكرة خاطرا يخطر على بال الإنسان قد يحمل الصواب فيكون منسجما مع معتقدات المفكر وأفعاله، وقد يكون خاطئا غير منسجم مع المعتقد والفعل، ولا شك أن الأفكار الخاطئة تعشش في الذات لأنها لا تنتقى إلا إذا خرجت من إطار الذات عبر الحوار مع الآخر، وبذلك يشكل الحوار مع الآخرين ميزانا حساسا لمدى صلاحية الفكرة، فتزداد تبلورا وصقلا أو تبدو ضعيفة لا أهمية لها، ومن هنا ضرورة الحوار الذي يتيح الفرصة لنضج الأفكار.

ترى ألهذا السبب جعل كتابه أشبه برواية تعتمد الحوار بين شخصيات متعددة؟ تراه يريد أن يقدم دليلا على أن الحقيقة لا تأتي من شخصية واحدة، بل تأتي من عدة شخصيات يجمعها الحوار فيغني رؤاها ويصقل أفكارها؟ تراه يريد أن يؤكد للمتلقي أن الحقيقة لا يمكن أن يملكها فرد واحد؟

هنا يحسن أن نشير إلى أن اختلاف الآراء في أسباب انحطاط المسلمين الذي جسّدته لنا شخصيات تنتمي إلى بلدان مختلفة، هو في حقيقته غنى في الرأي، ويشير إلى أن هموم المسلمين واحدة مهما اختلفت بلدانهم، إذ قلما نجد سببا للضعف خاصا ببلد مسلم دون آخر.

وقد أضفى الأسلوب الدرامي حيوية على أفكاره، فأتاح له الحوار أن يقدم رؤاه المتعددة حول ضعف المسلمين، بعيدا عن الرتابة التي يحملها الصوت الواحد، ومثل هذا الحوار يوحي للمتلقي بمشاركة جميع المسلمين في مناقشة أسباب الانحطاط بشكل ملموس وواقعي، لأننا لو تأملنا هذه الأفكار المطروحة من قبل مفكرين ينتمون إلى عدة بلدان لوجدناها تتمم بعضها بعضا، لا نلمس فيها تناقضا أو صراعا تفترضه طريقة تعدد الأصوات في الرواية.

وعلى هذا الأساس لا نستطيع أن نقول: إن كتاب "أم القرى" رواية بالمعنى الحديث للمصطلح، الذي لم يكن قد أثبت حضورا في عصره، رغم بعض

المحاولات، بالإضافة إلى طغيان الصوت الواحد الذي هو صوت الراوي (السيد الفراتـــي) كذلك يلاحظ المرء طغيان الهم الفكري على الهم الفني، أي الأسلوب الواقعي المباشر على الأسلوب التخييلي.

ونحن لا نريد أن نحاكم هذا الكتاب، الذي لمسنا فيه بذور الرواية، بمقاييس عصرنا، بل نجد من الواجب أن نشير إلى أن مثل هذه العثرات مازالت الرواية العربـية تعانـــي مـــنها إلى اليوم، وبناء على هذا يمكننا القول: إن الكواكبي اســتطاع أن يقــدم لنا فكره بطريقة تنأى عن المألوف في التعبير، فتستفيد من بعض المقومات التخييلية التي تعتمد القص وتجسيد الشخصية للأفكار، مما يتيح لهــا الحــيوية، ويــبعدها عن الرتابة، فهو يلجأ إلى وسيلة بسيطة تهب الحياة لأفكـــاره، وبالتالـــي يســتطيع عبر هذه الطريقة أن يضمن تفاعل المتلقي معها بشكل أفضل، مما لو قدّمت بشكل نظري جامد.

إذاً لا أعتقد أن مصطلح "الرواية" كان ماثلا في ذهنه، لكنه كان يبحث عن وســيلة أكثر قدرة على التعبير عما يجول في أعماقه من أفكار، فتزداد فاعلية وتأثيرا وجاذبية، وبالتالي تزداد انتشارا بين عامة الناس.

ويضاف إلى إنجاز الكواكبي الذي اجتمع فيه الفكر بالتخييل إنجاز لغوي : هــو تطويع اللغة العربية، التي كانت في عصره لغة جامدة تغلب عليها الصنعة والتكلف، فأصبحت على يديه لغة حية تجسد هموم الإنسان، فوجدناها تستوعب هذه الهموم بكافة أشكالها الفكرية والاجتماعية والاقتصادية... ولاشك أن لعمله في الصحافة واقترابه من لغة عامة الناس (حين كان يكتب تظلماتهم في رسائل يرســلونها للسلطان) كل ذلك كان له أكبر الأثر في تطوير لغته، إذ جعله على صــلة بالحــياة باحــثا عن لغة يعبر فيها عن واقع معيش تنغصّه هموم التسلط والضعف، فجعل من اللغة خير وسيط يصور بؤس الواقع المتردي فيهزّ وجدان الإنســان المسلم ، حين يتعرّف مدى بؤس حياته، ويتنبه إلى ضعفه، عندئذ يبدأ بــتعرّف ذاتـــه على حقيقتها، كما يتعرّف حقوقه وواجباته، لذلك بيّن في مقدمة كــتابه أنه يتوجه في كتابه هذا إلى المتلقي الجاد الذي يقرأ الكتاب قراءة واعية متتــبعة لا تعــرف التصــفح، فلا يصدر حكما نقديا على ما يقرأ إلا بعد قراءة الكتاب بأكمله قراءة متعمقة، لذلك نجده يتوجه ناصحا المتلقي: "**أما إذا كنت من أمة التقليد وإسراء الأوهام، بعيدا عن التبصر، لا تحب أن تدري من أنت وفي أي طــريق تســير وما حق دينك ونفسك عليك، وإلى ماذا تصير، فتأثرت من كشــف الحقــائق ودبيب النصائح، وشعرت بعار الانحطاط وثقل الواجبات، فلم**

تطـق تتـبع المطالعة، وتحقيق العقل والنقل في المقدمات والنتائج، فأناشدك الإهمال الذي ألفناه..."(23).

إذا يـريد قارئـا جادا لكتابه تقلقه أسئلة أمته المصيرية، إذ لا يمكن لقارئ ألغـى عقلـه واستسلم للتقليد والأوهام أن يستفيد من هذا الكتاب، إنه يبحث عن قارئ يتفاعل مع النص تفاعلا إيجابيا، خاصة أنه يقدم معرفة تنير عقله وتدفعه لتغيـير حياته وسلوك الطريق الصحيح،؛ بعد أن يطرد مشاعر اليأس والإحباط التي تكبله، إنه يريد أن يسهم عبرَ كتابه في صنع إنسان جديد لا يعرف الإهمال ويـنفض عن ذاته غبار الوهن، يحاسب نفسه من أجل النهوض بها، لأنها، كما يـراها الكواكبـي، بداية أي نهوض حقيقي للأمة، خاصة إذا لاحظنا أنه يحمّل الإنسان المسلم مسؤولية نفسه وأمته ودينه معا.

هـنا لابـد أن نتساءل: هل نستطيع أن نقبل قول العقاد: بأن الكواكبي كان **"يواجـه القـراء كما يواجه المستمعين"**(24) بمعنى أنه كان يستخدم الأسلوب الخطابـي الـذي يجعله يلقي بالقلم جانبا ليتحدث إلى قرائه حديث الخطيب على المنبر؟

فـي الحقـيقة تنوعـت لغة الكواكبي فلم نجده يستخدم اللغة الخطابية التي تعتمد الانفعال واللفظة الرنانة فقط، إذ لاحظنا استخدامه لغة المنطق التي تعتمد التحلـيل والتعليل، وتبدأ بمقدمات لتصل إلى النتائج، وهو في كثير من الأحيان يقدّم أفكاره بأسلوب تصويري يزيد الفكرة وضوحا كما لاحظنا سابقا، ومثل هذا الأسـلوب موّظف لخدمة الفكرة وحيويتها من جهة، ولجذب المتلقي إلى متابعة القراءة من جهة أخرى.

وكمـا وظّف التصوير لخدمة الفكرة، نجده يوّظف اللغة التراثية (التناص الدينـي) مـن أجـل ذلك أيضا، لهذا تبدو لنا لغته أكثر إقناعا وأشد تأثيرا في وجـدان المتلقي الذي يشكل هذا الموروث مكونا أساسيا من مكونات شخصيته، فهـا هو ذا يقول **"إن انحطاطنا من أنفسنا، إذ إننا كنا خير أمة أخرجت للناس، نعبد الله وحده، أي نخضع ونتذلل له، ونطيع من أطاعه مادام مطيعا له، نأمر بالمعـروف وننهى عن المنكر، أمرنا شورى بيننا، نتعاون على البر والتقوى ولا نتعاون على الإثم والعدوان، فتركنا ذلك كله، ما صعب منه وهان"(25).**

يتحول هذا النص في مجمله إلى لغة قرآنية، فتبدو أفكاره متجلية عبر قبس قرآنـي، يشكل لاوعي المسلم، كما يشكل فكره، ويوجه سلوكه، وبذلك تكتسب

لغــته قــوة تعبــيرية مؤثرة في الوجدان، تحرض المسلم وتنير دربه إلى حياة جديدة.

لعل ميزة الكواكبي أنه لم يفصل الدين عن الحياة حين نادى بفصل السلطة الدينــية عن السلطة السياسية، فقد نادى بأفكار إصلاحية تمتلك جذورا في الدين الإسلامي، وبذلك لم يكن الدين لديه شأناً شخصياً ينفع الآخرة بعيدا عن الدنيا، إذ رأى ضـــرورة أن يـــتجاوز المسلم حالة الضعف والانحطاط بما يمليه عليه ديــنه، أي بمـــا يؤمـــن من تعاليم وأفكار، ولكن مع الأسف مازال يهمّشها، أو يتعامل معها بشكل آلي، دون أن ينتبه إلى دلالاتها الفاعلة التي يمكن أن تساعده على تغيير حياته وتطوير مجتمعه.

وبذلك يبحث الكواكبي عن لغة مشتركة بينه وبين المتلقي، لغة يعايشها كل يوم خمس مرات على الأقل في صلاته، فيدله على ما تحويه من دلالات غنية، ترقى بحياته، حوّلها المتلقي إلى لغة عادية يمارس عبرها طقوس عباداته بشكل آلي، فينتزع بذلك روح اللغة ومعناها ليحوّلها إلى تمتمات صوتية لا علاقة لها بنبض حياته.

كذلـــك نلاحـــظ أنـــه استخدم التناص الشعري باعتباره لغة مشتركة تشكل وجـــدان المتلقـــي كمـــا يشكلها التناص القرآني، لذلك نجده يستفيد من إمكانات الشـــعر التراثي في هزّ وجدان المتلقي والتدليل على صحة أفكاره، كما لاحظنا ســـابقا حيـــن تحدث عن أسباب ضعف المسلمين، وهو عدم انسجام الحاكم مع المحكـــوم، فالحاكم تركي والمحكومون عرب، فيأتي ببيت للمتنبي يدلل به على صحة قوله:

إنمـــا الـــناس بـــالملوك ومـــا تفلـــح عـــرب ملوكهـــا عجـــم

إن الكواكبـــي يـــدرك وقـــع الشعر على نفس المتلقي العربي، خاصة في تلك الفـــترة، لذلـــك نجـــده يبدأ كتابه بأبيات شعرية ألفها، تختزل أوضاع المسلمين التي سيوضـحها نثرا فيما بعد، وهو بذلك يشدّ المتلقي إلى تتبع كتاب لم يكن مهيئا لمتابعة أســـلوبه الجديد الذي يعتمد لغة جديدة بعيدة عن الصنعة والزخرفة التي كانت سائدة فـــي عصـــره، فيلجأ إلى التمهيد له بلغة جذابة مألوفة هي لغة الشعر، يخاطب بها المتلقي قائلا:

دراك فـــإن الديـــن قـــد زال عـــزّه وكـــان عزيزا قبل غير هين ذا حين

إلام أهـــل العلـــم أجـــلاس بيـــتهم أمـــا صار فرضا رأب هذا التوهن؟

هلمــوا إلــى بــذل الــتعاون إنــه *بإهمالــه إثــم علــى كــل مؤمــن*

هلمــوا إلــى (أم القــرى) وتآمروا *ولا تقــنطوا مــن روح ربّ مهيمن*

فــإن الــذي شــادته أسياف قبلكم *هــو الــيوم لا يحــتاج إلا لألســن*

تقــدم لنا هذه الأبيات أهم القضايا التي كانت تؤرق الكواكبي والتي ظهرت فــي ثنايا كتابه "أم القرى": ضعف الإسلام، مسؤولية العلماء عن هذا الضعف، ضــرورة نبذ الخلافات والتوحد، العمل وفق نظام محدد كالجمعية، عدم اليأس، الوعي لأسباب الانحطاط ومن ثم تجاوزها...ومع ذلك لا يمكننا أن نقول إن لغة الشعر كانت طاغية في الكتاب، ما عدا المقدمة، أما بقية الكتاب فقد جاءت بلغة النــثر لغــة الفكــر والمنطق التي امتزج فيها التخييل والابتكار الذي تجلى في تجسيد عدة شخصيات تتحدث بأفكار متنوعة، نظرا لكونها تنتمي إلى عدة بلدان إسلامية، وبالتالي تكون هذه الشخصيات أكثر تأثيرا كما لاحظنا سابقا.

إذاً نستطيع القول إن الكواكبي سلك كافة السبل المألوفة وغير المألوفة كي يقرّب كتاب "أم القرى" من المتلقي، فيضمن تفاعله مع هذه اللغة الجديدة عليه.

كما يمكن أن نعدّ هذا الكتاب كتابا في الإصلاح الديني والفكري الاجتماعي والاقتصــادي، ومثل هذه المهمة لن تكون ما لم يمتلك الكتاب لغة جديدة ينطق بها، إذ لابد للنهضة الفكرية التي يسعى إليها المرء من أن يواكبها نهضة لغوية، وقــد بــدا لنا الكواكبي واعيا لهذا الإصلاح كل الوعي، فأكد ضرورة أن تقوم جمعــية أم القــرى بوضع مؤلفات بلغة "**وسطى عربية لا مضرية ولا عامية، وجعلهــا لغــة لبعض الجرائد والمؤلفات الأخلاقية ونحوها مما يهمّ نشره بين العــوام فقط**"(26) لأن الدور التنويري الذي يضطلع به المفكر، لابد له من لغة تنويرية، تستطيع مخاطبة جميع الناس، فهو يراهم نواة أي تغيير حقيقي.

وبذلــك قــدّم الكواكبــي فــي كتاب "أم القرى" نموذجا جديدا للكتاب الذي يضطلع بمهمة التنوير، اجتمع فيه الإبداع والفكر.

بــناء علــى هــذه النتيجة لا نستطيع أن نقبل قول الباحثة اليهودية (سيلفيا حايــيم) بأن الكواكبي كان في كتابه "أم القرى" ناسخا وليس مبدعا، ومما دفعها لهــذا القول أنها لاحظت تلاقيا في بعض الأفكار بينه وبين أفكار (بلنت) ويرى الباحــث (جــان دايــه)(27) أنها فعلت ذلك لسببين: الأول أنها ترى كل كاتب عربــي فــي عصــر النهضة لا بد أن يكون تابعا لكاتب أوروبي، والثاني: أن

(بلنت) أصدر كتابه "مستقبل الإسلام" في عام (1882) أي قبل إصدار الكواكبي كتابه بفترة ثمانية عشر عاما فلا بد أن يكون قد اطلع عليه، ويلاحظ (دايه) أن كتاب (بلنت) يدور حول موضوع واحد هو الخلافة، وقد احتل هذا الموضوع ثلاثة أرباع الكتاب تقريبا، في حين يلاحظ أن كتاب "أم القرى" توقف عند هذا الموضوع وقفة سريعة، إذ كان الكواكبي مشغولا بتحديد المفهوم الصحيح للدين الإسلامي، ونهضة المسلمين، وقد أناط بجمعية أم القرى تنفيذ هذا المفهوم وهذه المهمة، أما بلنت فقد خصص لمفهوم الإسلام الصحيح فصلا واحدا هو "الإصلاح المحمدي" وختم الكتاب بفصل بعنوان "اهتمام إنكلترة بالإسلام".

وبذلك اهتمّ كتاب "مستقبل الإسلام" بالشأن السياسي على نقيض كتاب "أم القرى" الذي اهتم بالشأن الديني، أما رأيها الذي يقول بتأثر الكواكبي بكتاب (بلنت) حين فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية، فقد لاحظنا أن جميع رواد النهضة قد ركزوا على هذا الفصل، بالإضافة إلى أننا لاحظنا معاناة الكواكبي من اجتماع هاتين السلطتين بيد رجل واحد (يجبي الضرائب ظلما، يستبد، يقتل...).

وقد لاحظ (دايه) أن هذا الفصل بين السلطتين قد تمّ في مقالاته الصحفية التي ظهرت قبل كتاب (بلنت) بخمس سنوات، كما تمّ التأكيد على أهمية العروبة فيها، أي قبل أن يشير (بلنت) إليها كما تدعي (سيلفيا حاييم).

أعتقد أن الذي منح هذا الكتاب خصوصية إبداعية، وأبعده عن التأثر بالآخرين سواء أكانوا عربا أم أجانب هو اهتمام الكواكبي بتقديم أفكاره عبر شخصيات عدة، وعبر مكان وزمان محددين أحاطتهما هالة التقديس، فاستخدم أسلوبا سرديا يجسد طموحه للتشويق والتأثير، كما يشكل ستارا وهميا يبعد عن نفسه تهمة القول المباشر، فتتحدث شخصيات وهمية بما يريد أن يقوله من كلام خطير، وبذلك تتيح له هذه الطريقة حرية التعبير وربما تنجيه من غضب السلطة.

الأمر الآخر الذي يجعله لا يبدو مقلدا لـ(بلنت) تقديم الكواكبي فهما حيويا للإسلام، يدل على معرفة عميقة بالدين الإسلامي، فقد حاول أن يقدم تفسيرا له يجعله أحد أهم ركائز النهضة، لا عاملا من عوامل تخلف المسلمين كما يراه الآخر الغربي والعربي العلماني.

****

الحواشي :

1. الأعمـــال الكاملـــة للكواكبي إعداد وتحقيق محمد جمال الطحان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1995.
2. الأعمال الكاملة للكواكبي "أم القرى" ص 349.
3. المصدر السابق، ص 306.
4. المصدر السابق نفسه، ص 292 بتصرف.
5. المصدر نفسه، ص 290.
6. نفسه، ص 289.
7. نفسه، ص 366 بتصرف.
8. حسن سعيد "عبد الرحمن الكواكبي، جدلية الاستبداد والدين" سلسلة رواد الإصلاح (5) قم، ط1، 2000، ص 127.
9. د. محمـــد عمـــارة "تيارات اليقظة الإسلامية الحديثة، كتاب الهلال، ع (380) أغسطس، 1983، ص 82 بتصرف.
10. الأعمال الكاملة "أم القرى" ص 370.
11. المصدر السابق، ص 372.
12. المصدر السابق نفسه، ص 305 بتصرف.
13. نفسه، ص 372_ 373 بتصرف.
14. نفسه، ص 298 بتصرف.
15. نفسه، ص 382 بتصرف.
16. نفسه، ص 390 بتصرف.
17. د. محمد عمارة"تيارات اليقظة العربية" ص 93.
18. الأعمال الكاملة "أم القرى" ص 397_ 398 بتصرف.
19. المصدر السابق، ص 293.
20. د. محمـــد عمارة "الإمام محمد عبده" دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1985، ص93 .
21. هـــذا المقطع من كتاب جان دايه "الإمام الكواكبي: فصل الدين عن الدولة، دار منشورات سورافيا للنشر، لندن، 1988.
22. الأعمال الكاملة "أم القرى" ص 287.
23. المصدر السابق نفسه، 274.
24. عـــباس محمـــود العقاد "عبد الرحمن الكواكبي" دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، دون تاريخ، ص 60.
25. الأعمال الكاملة "أم القرى" ص291.
26. المصدر السابق، ص 384.
27. جـــان دايه "صحافة الكواكبي" مؤسسة فكر للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 1984، ص 117 بتصرف.

■ ■

كتاب
(طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)
فلسفة النهضة في لغة الأدب

بعد ثلاثة أعوام من تأليف عبد الرحمن الكواكبي كتاب "أم القرى" أصدر كتابه "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" (1901) الذي يعدّ استمرارا لكتابه الأول، حاول أن يبحث في أحد أبرز أسباب تخلف المسلمين (الاستبداد) بعد أن تحدث عنه في كتاب "أم القرى" حديثا سريعا، ورأى أنه يستحق وقفة متأملة تبحث في أصل الداء وتقترح الدواء، وبذلك يمكننا القول بأنه قدّم في هذا الكتاب خلاصة تجاربه الفكرية، بكل ما تعنيه من معاناة يومية للظلم الذي وقع عليه وعلى قومه العرب، كما نتجت عن جهد معرفي دام ثلاثين عاما قضاها مجاهدا الظلم ومنقبا عن أسباب تخلف المسلمين، متأملا معالم هذه الأسباب، وباحثا عن الدواء الشافي الذي ينهض بأمته.

ومنذ الصفحة الأولى من الكتاب وفي العنوان الآخر الذي أضافه للعنوان الأصلي، نجده يبيّن أن أفكاره المطروحة في كتابه قد تكون صرخة في واد يضيع صداها في عصره، لكنها ستؤثر في العصور المقبلة وتدك عرش الاستبداد، لهذا يقول:

"كلمات حق في واد   إن ذهبت اليوم مع الريح
فقد تذهب غدا بالأوتاد"

إذا منذ الكلمة الأولى في الكتاب نلمس لديه رؤية مستقبلية مستمدة من وعي الكاتب بأن الصراع مع الاستبداد، لن يكون سهلا بسيطا ولن يؤتي أكله سريعا، لا بد من العمل الدؤوب مهما تكن الآلام والمثبطات، أعتقد أن مثل هذه الرؤية منحت أفكاره عمقا وجعلتها أكثر شمولية، خاصة أن ما يقدمه للناس هو صوت "الحق وقد

صـــاغته كلمـــات تنـــير درب الناس، وقد لا يصل نورها إلى المتلقي اليوم، لكنها ستصل إليه في المستقبل، فتدلّه على الطريقة التي يستطيع بها خلع أوتاد الظلم.

لهـــذا لن نستغرب استخدامه لغة جديدة ترفض المألوف، وهي اللغة نفسها التي لمســناها في كتابه "أم القرى" ويمكن المرء أن يلاحظ وعي الكاتب بأنه يقدّم الحق، فيـــبدو متحمســـا لأفكـــاره، التي ستنير طريق الصواب لأمته، حتى إنه في المقدمة يصـــرّح بأنـــه **يخالف أولئك المؤلفين التقليديين، فلا يتمنى العفو عن الزلل، وإنما يقـــول: هذا جهدي، وللناقد الفاضل أن يأتي بخير منه، فما أنا إلا فاتح باب صغير من أسوار الاستبداد، عسى الزمان يوسّعه، والله ولي المهتدين."(1)**

إن نـــبرة الثقة بالنفس التي نلحظها لديه لا تبلغ حد الغرور، لذلك يعترف بأنه عـــبر كـــتابه هـــذا يفتح بابا **صغيرا** في أسوار الاستبداد، وبذلك يلج الكواكبي عالما جديـــدا ويقـــدم أفكارا أصيلة لحمتها الإخلاص في العمل والبحث وسداها المقارعة اليومـــية للمستبد العثماني التي تصل حد المخاطرة بالحياة وهجرة الأوطان والأهل، فهـــو يطبق ما جاء في الأثر **"من أعان ظالما على ظلمه سلّطه الله عليه"** فقد رأى أن إعانـــة الظـــالم قـــد تبتدئ من مجرد الإقامة في أرضه، لهذا ترك حلب موطنه القريـــب مـــن سـلطة العثمانيين، وهاجر إلى مصر، حيث كانت تعيش فسحة من الحرية في عهد الخديوي عباس، لكنه رغم ذلك لم يأمن على نفسه من المستبد لذلك أصـــدر كتابه باسم مستعار (الرحالة كاف) عام (1901) نظرا لما يحمله الكتاب من أفكـــار خطيرة تقارع المستبد بالحجة والمعرفة، وبعد نفاد طبعته هذه في العام التالي (1902) أعاد طباعته مرة أخرى بعد تنقيحه.

قـــدّم في هذا الكتاب دراسة دقيقة وعلمية للاستبداد، تعدّ الأولى من نوعها في اللغـــة العربـــية، وإن كان قد أشار في مقدمة كتابه إلى أن الكاتب الإيطالي فيتوريو ألفيـــيري (1749 _ 1803) قد سبقه في تأليف كتاب يتناول الاستبداد وعلاقته بالدين والعلم، ويبين كيفية الخلاص منه.

إن هـــذه الإشـــارة مـــن قبل الكواكبي لم تعفه من تهمة السرقة التي رمته بها الباحـــثة الـــيهودية (سيلفيا حاييم) كما رمته بتهمة سرقة كتاب "أم القرى" من كتاب "مســـتقبل الإســـلام" للباحث الإنكليزي (بلنت) فهي تراه قد سطا على محتوى كتاب "ديـــلا تيرانـــيدي" للباحـــث الإيطالي (فيتوريو ألفييري) مدعية الادعاء نفسه الذي رأيـــناه ســـابقا حين اتهمته بسرقة كتاب "أم القرى" بل نجد هذه التهمة تنسحب على جمـــيع ما ألّفه روّاد النهضة العربية، إذ ترى هؤلاء الكتاب عاجزين عن التأليف، لذلك يقومون بسرقة كتب الأوروبيين.

بالإضافة إلى هذه المقولة، التي تتسم بالتعميم وعدم الموضوعية، نجدها تدّعي أن الكواكبي اطلع على الكتاب من خلال صديق له يعرف الإيطالية (وهو أحد الذين يعملون في القنصلية الإيطالية) وبذلك تقرّ بأن الكواكبي لا يعرف لغة أوروبية، وأنه لا يتقن سوى العربية والتركية والفارسية.

وهي تقوم بمقارنة بين فصول الكتابين فتصل إلى تشابههما، وبما أن ألفييري هو السابق فلا بد أن يكون الكواكبي هو السارق.

يردّ عليها الباحث (جان دايه) بأن الاقتباس ليس عيبا، وأن التأثر والتأثير أمر طبيعي بين ثقافات الأمم، لكن المشكلة أن الباحثة لم تدرس الكواكبي مقتبسا وإنما سارقا، كي تؤكد مقولتها بأن كل روّاد النهضة العرب سارقون لكتب الغربيين، فيبيّن لها (دايه) أنه لو كان سارقا في كتابه "طبائع الاستبداد" لكتاب ألفييري لما ذكر اسمه في كتابه حين قال **"هذه قواعد رفع الاستبداد، وهي قواعد تبعد آمال الأسراء وتسر المستبدين، لأن ظاهرها يؤمنهم على استبدادهم، ولهذا أذكّرهم بما قد أنذرهم به (ألفييري) المشهور في مثل هذا المقام، حيث قال: لا يفرض المستبد بعظم قوته ومزيد احتياطه، فكم من جبار عنيد جندله مظلوم صغير، وإني أقول ما من جبّار قهّار إلا ويأخذه الله أخذ عزيز منتقم..."**

إن السارق عادة يخفي اسم من سرق منه، ولا يظهره للعيان، لذلك كان على الباحثة كما يقول (جان دايه) أن تبين أين اقتبس الكواكبي وأين أبدع، مع أن المرء يلاحظ أن معظم الأفكار التي وردت في "طبائع الاستبداد" كانت ثمرة موهبته ونضاله المستمر.

من المؤكد أن كتاب (ألفييري) قد ترجم إلى التركية (1898) واطلع عليه الكواكبي، واستفاد من بعض أفكاره في كتابه "طبائع الاستبداد" الذي نشره بعد ترجمة الكتاب بحوالي ثلاث سنوات (1901) لكن يلاحظ أن معظم أفكاره التي وردت في هذا الكتاب كان قد نشرها في جرائده الثلاث ("الشهباء" "الاعتدال" "العرب") والجريدتان الأولى والثانية قد ظهرتا قبل ظهور الكتاب بحوالي ثلاث وعشرين سنة، بل وجدنا الكواكبي نفسه يعترف في مقدمة الكتاب بأنه ثمرة جهد دام ثلاثين عاما، لذلك يكون الاطلاع والاقتباس أمرا طبيعيا، إنه يعني الهضم والتأثر الذي لابد منه للمثقف إذ لا يخلو كتاب منه، لذلك يعدّ التأثر شيئا آخر يختلف عن السرقة التي ترميه بها الباحثة (حاييم)

ويبيّن (دايه) أمرا آخر بناء على قول (سيلفيا حاييم) بأن كتاب "طبائع الاستبداد" قد صنف في المرتبة الخامسة عشرة بين الكتب الأكثر قراءة، وذلك في

استفتاء جرى في مصر بعد سنوات من صدوره، فهل يعقل أن ينال كتاب مثل هذه المرتبة وهو متهم بالسرقة!!

ومن بين التهم التي تسوقها هذه الباحثة أن الكواكبي لم يفهم الإسلام والسنة، أعتقد مع (جان دايه) أن هذه التهمة افتراء عليه، لأننا لاحظنا في كتابه هذا كما لاحظنا في كتابه السابق "أم القرى" تعمق الكواكبي في الدين الإسلامي، وقد ظهر ذلك في تفسيره لآيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، كما ظهر في اعتماده على آراء الفقهاء في الأخذ منها أحيانا ومناقشتها وردّها أحيانا أخرى، لكن فيما يبدو أن الصورة المشرقة للإسلام التي قدّمها الكواكبي أزعجت الباحثة فلم تجد بدا من تهمته بعدم فهمه للدين الإسلامي!!

كذلك يلاحظ (جان دايه) أن (سيلفيا حاييم) قدمت آراء متناقضة فهي تارة تقول بأنه تأثر بـ(ألفييري) وتارة بكتاب "العقد الاجتماعي" لـ(جان جاك روسو) وتارة أخرى بالمفكر الفرنسي (فورييه)(2).

إذاً الاستفادة من الغربيين أمر يختلف عن تقليدهم، لذلك لم نجد هذه الاستفادة سمة طاغية على الكتاب، فقد استطاع أن يمنح الكتاب بصمة خاصة به، إذ غاص في خصوصية مجتمعه، وحاول أن ينجز كتاب "طبائع الاستبداد" على هدي ثقافته ودينه وسلوك أبناء أمته، لذلك بدأ بتعريف الاستبداد مبينا علاقته بالدين والعلم والمجد والمال والأخلاق والتربية والترقي ثم بيّن كيف يمكن الخلاص منه.

تعريف الاستبداد:

قبل أن يعرّف لنا الكواكبي الاستبداد، يحدد لنا مظاهره على ألسنة باحثين مختلفين يلبسهم الكواكبي صفات متنوعة، فبعضهم (المادي، السياسي، الحقوقي) وبعضهم (الحكيم، الأبي، المفادي...) لذلك يمنحهم الأهلية لنقد الوضع القائم، فنجدهم يوضحون مكمن الداء وأعراضه (قوة الحاكم، استعباد البرية، الخضوع للسلاسل، تغلب السلطة على الشريعة، مشاركة الله في جبروته، وجود رؤساء بلا زمام، التعالي على الناس باطلا، حب الحياة) وبعد تشريح أسباب الداء نجد هؤلاء العلماء الحكماء يحدّدون الدواء (مقاومة الحاكم المستبد، الحرية، تغليب الشريعة على السلطة، توحيد الله حقا، ربط الحاكم بقيود، تذليل المتكبرين، حب الموت) .

ولاشك أن اعتماد الكواكبي صيغة الجماعة التي تدل على آراء مجموعة الباحثين والعلماء (الذين يحملون أنزه الصفات) أبعد عن طرحه النبرة الفردية، وجعل الخلاص يأتي على لسان جماعة المفكرين، مما يهب آراءه مصداقية وقوة

إقناع، إذ ينفي عنها السمة الفردية التي قد تؤدي إلى الزلل، ويجعلها رأيا جماعيا يتفق حول صحته علماء القوم الذين يجمعون أفضل الصفات الخلقية إلى جانب العلم.

يلاحظ المرء أن معظم مظاهر الاستبداد حصرها بالحاكم، لذلك حين يعرّف لنا الاستبداد يجعله "**صفة للحكومة المطلقة العنان فعلا أو حكما، التي تتصرف في شؤون الرعية، كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين، وتفسير ذلك كون الحكومة إما هي غير مكلفة بتطبيق نصوصها على شريعة أو على أمثلة تقليدية أو على إرادة الأمة، وهذه حالة الحكومات المطلقة، أو هي مقيدة...لكنها تملك بنفوذها إبطال قوة القيد بما تهوى، وهذه هي حالة أكثر الحكومات التي تسمي نفسها بالمقيدة أو بالجمهورية...وأشدّ مراتب الاستبداد التي يتعوّذ بها من الشيطان هي حكومة الفرد المطلق الوارث للعرش، القائد للجيش، الحائز على سلطة دينية...**"(3).

إذاً مع السلطة الاستبدادية، التي تتخذ صفات مطلقة، يلغى القانون أو العرف عندئذ ينتفي أي حساب وأي عقاب يمكن أن تخضع له هذه السلطة، لذلك تسير أمور الدولة على هواها، لا تهتم إلا بمصالحها الخاصة، وينتبه الكواكبي منذ وقت مبكر إلى أن مثل هذه الانحرافات ليست حكرا على النظام الملكي، بل من الممكن أن تصيب السلطة التي تسمي نفسها بالمقيدة (أي الجمهورية) فهي تلتقي مع النظام المطلق في كونها تحكم وفق مصالحها الخاصة، بعيدا عن أي حساب، لهذا تدوس على مصلحة الرعية، دون أي رادع، وهو يبين أن أفظع أشكال الاستبداد حين يتجسد الحكم بفرد يملك جميع السلطات السياسية والعسكرية والدينية، ومن ثم يستطيع أن يورّثها.

ولهذا ليس غريبا أن تجتمع في الاستبداد مصائب الدنيا، فهو بلاء، كما يوضح الكواكبي، "**لأنه وباء دائم الفتن، وجدب مستمر بتعطيل الأعمال، وحريق مستمر بالسلب والغضب، وسيل جارف للعمران، وخوف يقطع القلوب، وظلام يعمي الأبصار...**".

مع وباء الاستبداد ليس غريبا أن ينتشر التخلف، فهو سبب ضعفنا الاقتصادي، يقضي على أي أمل في التطور، ينزع الطمأنينة من القلوب، ويسدل أستار الجهل على حياتنا، فالاستبداد لا يكتفي بتدمير الإنسان وإنما يدمر الأمة بأكملها تدميرا يشمل أوجه الحياة، لذلك جعله وباء يصيب الإنسان وجدبا يصيب الأرض، كما جعله مرادفا لصنوف الدمار كالحريق والسيل والظلام فيبدو لنا ناشرا للخوف

والموت أينما حل.

إذاً يعدّ الاستبداد في نظر الكواكبي قرين الدمار بأشكاله المعنوية (الخوف، الجهل، الفتن...) والمادية (الاقتصاد، العمران...) بعد هذا التحديد الدقيق لمعنى الاستبداد نجده ينطلق ليحدد معالم القائمين عليه والراضخين له فيتساءل:

من هو المستبد؟ ومن هم أعوانه؟ ومن هم رعيته؟

استطاع الكواكبي أن يقدم وصفا دقيقا وحيويا للمستبد، فرصد مشاعره وكيف ينظر إلى ذاته وإلى الآخرين (أعوانه ورعيته) إنه يسمعنا صوت أعماق المستبد، كما يطلعنا على أعماق أعوانه ورعيته، فيقدم لنا تحليلا نفسيا للمستبد وأعوانه في زمن لم يكن معروفا فيه مثل هذا التحليل، إنه يستخدم مقدرته التخييلية ليرصد لنا إحساس المستبد لحظة جلوسه على العرش حين يضع التاج على رأسه، إذ ينتابه إحساس بتحوله من إنسان إلى إله، لكنه في الوقت نفسه، يحس أنه لم ينل تلك المكانة إلا بفضل أعوانه الذين نسمع صوت أعماقهم (لسان حالهم) يبيّن حقيقته، فيخاطبونه متخيلين أنه أمامهم **"ما العرش وما التاج وما الصولجان؟ ما هذه إلا أوهام في أوهام، هل يجعلك هذا الريش في رأسك طاووسا وأنت غراب، أم تظن الأحجار البراقة في تاجك نجوما ورأسك سماء، أم تتوهم أن زينة صدرك ومنكبيك أخرجتك من كونك قطعة طين من هذه الأرض؟ والله ما مكّنك في هذا المقام أو سلّطك على رقاب الأنام إلا شعوذتنا وسحرنا وامتهاننا لديننا ووجداننا وخيانتنا لوطننا وإخواننا! فانظر أيها الصغير المكبّر الحقير الموقّر كيف تعيش معنا!"(4).**

جسّد لنا الكواكبي صوت أعماق أعوان المستبد عبر مستويين من الوعي: الأول وعي لحقيقة الآخر (المستبد) الذي يستطيع إبراز حقيقته البشعة، وبذلك يفضح زيفه والأوهام التي يخدع نفسه بها والآخرين، فيبدو لهم أشبه بـ(طاووس، يصل رأسه إلى السماء، فيظنه مرصعا بالنجوم...) مع أنه في الحقيقة غراب، لا يساوي أكثر من قطعة طين صغيرة، وحقيرة!! يلفت نظرنا استخدام الكواكبي الصفات المتناقضة التي تبرز حقيقة المستبد وتدل على الافتعال والمبالغة الجوفاء (الصغير المكبّر، الحقير الموقّر) .

أما المستوى الثاني: فهو وعي الذات (المساندة للمستبد) التي هي ذات مزيفة تقوم على السحر والشعوذة والقيم الفاسدة، ورغم ذلك لا يمكن للمستبد أن يستغني عنهم، وربما من أجل شعوذتهم وقيمهم الفاسدة كانوا أعوانا للمستبد، فأمنوا عرشه وحافظوا عليه بما يملكون من صفات دنيئة!

من الملاحظ أن الكواكبي قد استخدم اللغة الساخرة التي تعتمد التناقض مما أضفى الحيوية والعمق عليها، الأمر الذي يدهش له المتلقي إذ يطلع على تفاصيل عالم غامض بكل بشاعته، التي تنغص حياتنا، دون أن ندرك معالمها، فأتى الكواكبي لا ليعرفنا بها فقط، وإنما لينقل لنا ما يجول في أعماقها من أفكار بشعة مدمرة!! وقد أدى كل هذا إلى جعل الأفكار أكثر فاعلية وتأثيرا باعتقادنا.

لم يكتف الكواكبي بأن ينقل لنا ما يجول في أعماق أعوان المستبد، بل قدّم لنا أعماق المستبد حين ينظر إلى رعيته فتراوده أفكار ومشاعر يحاول الكواكبي أن يتغلغل في أشواكها الخفية، ليرصدها بطريقة مدهشة، فها هو ذا مثلا يبيّن لنا كيف تتجلى الرعية في عين المستبد على أنواع **"يرى منهم الطائشين المهللين المسبّحين بحمده، ومنهم المسحورين المبهوتين كأنهم أموات، ولكن يتجلى في فكره أن خلال الساكتين بعض أفراد عقلاء أمجاد يخاطبونه بالعيون بأن لنا معاشر الأمة شؤونا عمومية وكلّناك في قضائها على ما نريد ونبغي، لا على ما تريد فتبغي، فإن وفيّت حق الوكالة حق لك الاحترام، وإن مكرت مكرنا، وحاقت بك العاقبة...**

عندئذ يرجع المستبد إلى نفسه قائلا: الأعوان الأعوان، الحملة السدنة أسلمهم القياد وأردفهم بجيش من الأوغاد وأحارب بهم العبيد العقلاء، وبغير هذا الحزم لا يدوم لي ملك كيفما أكون، بل أبقى أسيرا للعدل معرضا للمناقشة منغّصا في نعيم الملك، ومن العار أن يرضى بذلك من يمكنه أن يكون سلطانا جبارا متفردا قهارا"(5).

يقدم لنا الكواكبي العالم الداخلي للمستبد الذي يرى رعيته على أنواع، منهم رعية طائشة خانعة لذلك لا تثير لديه أي اهتمام، ومنهم رعية عاقلة هي التي تهمه، إذ تملك القدرة على محاسبته لامتلاكها الوعي والمعرفة، فيحاول أن يستجلي دخيلتها ليعرف ما تخفي من أسرار، ومن أجل ذلك يلجأ إلى قراءة لغة العيون التي هي لغة الأعماق بكل ما فيها من صدق وصراحة وجرأة، فيعرف الحقيقة عندئذ يخاف المستبد ويحسّ بالضيق، إذ ينتابه شعور بأنه مهدد من قبل هؤلاء العقلاء، مما يدفعه إلى الاستنجاد بأعوانه، وقد تمّ تجسيد ذلك عبر أسلوب درامي، نسمع علو نبرته، إذ يصرخ المستبد مستنجدا (الأعوان الأعوان) فنكتشف عبر هذا الحوار الداخلي كيف يقاوم هؤلاء العقلاء بجيش من الأوغاد (الأعوان) كي لا ينغصوا عليه حكمه المطلق ويهددوا ملكه بالزوال!

تتجلى روعة الكواكبي في قدرته على تشخيص المستبد، ليس فقط في

تصرفاته الخارجية، وإنما في تقديم مكنوناته الداخلية، فاستطعنا أن نسمع صوت أعماقه عبر هذا الحوار الداخلي! كما تجلت قدرته أيضا في تصوير الجانب الآخر نقيض المستبد، أي الشعب المقاوم للاستبداد، فتنشأ لدينا ما يصح أن نسميه دراما الاستبداد، إذ تتضح لنا معالم شخصية المستبد ورؤاه، عبر المواجهة، كما تتضح لنا معالم شخصية الإنسان المقاوم للاستبداد!

بالإضافة إلى الأسلوب الدرامي نجده يلجأ إلى الأسلوب التصويري في تجسيد تصرفات المستبد وتعريفه، فهو يتحكم في شؤون الناس فارضا إرادته "**ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدي، فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدّها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته**"(6).

إننا أمام صورة لاذعة مستفزّة، تجسد بدقة بشاعة المستبد واحتقاره لرعيته، وهي تفضح في الوقت ذاته مدى القهر والذل الذي تتعرض له الرعية (كعب المستبد الذي يدوس الأرض به يسد أفواه الملايين) فيوجه للرعية لطمة عار تغلق فمهم، وتمنعهم من المطالبة بحقهم، فأي ذل تعانيه الملايين حين يوجه إليها كعب مستبد واحد!

إن من الملاحظ أن هذه اللغة التصويرية لم تسهم في تمييع الفكرة أو ضبابيتها، بل زادتها غنى ووضوحا واستفزازا، فاستطاعت أن تعمق بشاعة الاستبداد وقهره للوجدان والعقل.

كما يمكننا أن نلاحظ أن هذه اللغة التصويرية كانت سمة أساسية في خطابه الفكري، يستخدمها ليزداد المعنى تألقا، مما يهب كتابه نبرة خاصة به، تستعصي على الاتهام بالتقليد، الذي حاولت (سيلفيا حاييم) أن تتهمه به.

وقد وجدناه يلجأ إلى استخدام التشبيه الذي يبرز انعكاس الاستبداد على الرعية وخطورته وذلك في تحويلها عن طبيعتها الإنسانية "**المستبد يود أن تكون رعيته كالغنم درّا وطاعة، وكالكلاب تذللا وتملقا**".

هنا نلاحظ أن الكواكبي قد اختار حيوانات وضيعة تجسد معادلا فنيا للحالة البائسة والذليلة التي كانت عليها الرعية، أما حين أراد أن يجسد الحالة التي يأمل أن تكون عليها الرعية (حالة المقاومة) فنجده يختار حيوانات عرفت بنبلها، ومازالت تحتل مكانة سامية في المخيال الشعبي كالخيل والصقور (**على الرعية أن تكون كالخيل إن خدمت خدمت، وإن ضُربت شرست، وعليها أن تكون كالصقور لا تلاعب ولا يستأثر عليها بالصيد كله، خلافا للكلاب التي لا فرق عندها أطعمت أم حرمت حتى من العظام**).

وقـد بيّن لنا كيفية الخلاص من الاستبداد، موضحا كيف يكون سلوك الرعية فـاعلا، وقـد كان معنيا بتقديم فكرته هذه عبر صورة مدهشة "**فالرعية العاقلة تقيد وحـش الاسـتبداد بزمام تستميت دون بقائه في يدها لتأمن من بطشه، فإن شمخ هزّت الزمام وإن صال ربطته**".

إنـنا أمام صورة بصرية مدهشة شكلتِ لنا مشهدا للعلاقة الحساسة بين الحاكم والمحكـوم، إذ ينطلق المستبد كالوحش يؤذي رعيته، عندئذ يتوجب على الرعية أن تستميت لترد وحشيته عنها، فإذا لم تقم بهذه المهمة، اتسع أذى المستبد ودماره، ولن تستطيع التخلص من شروره.

يلفـت نظرنا تجسيد جدلية العلاقة بين المستبد والرعية في هذه الصورة، التي تتـبع أدق تحـركات المسـتبد وصفاته (شمخ، صال) ورد فعل الرعية، فهي تلوح مهـددة بالـزمام كلمـا تجاوز المستبد الحدود، فإذا تمادى أمسكت به وأعادته إلى صوابه، لذلك استخدم أفعالا تدل على القوة والفاعلية التي يجب على الرعية التمسك بهـا (تقـيد، تسـتميت، هزت، ربطت) وقد اجتمع في صيغ هذه الأفعال الماضي والحاضـر، مما يوحي لنا أن مقاومة المستبد يجب ألا تتوقف، بل يتوجب أن تكون جهـدا مسـتمرا مـن الماضي إلى الحاضر، وهو يؤكد بصورة غير مباشرة قدرة الرعية على مواجهة المستبد وردعه عن غيّه، بما تملكه من أدوات التهديد والفعل.

يـأخذ الكواكبـي بيد الرعية ويرشدها على سبل مقاومة المستبد، فيبيّن لها أن القـانون خـير زمـام تمتلكه إذ بفضله تضبط تصرفات الحاكم، فإن انحرف عنه عاقبته، إنه يكشف، عبر هذه الصورة، للرعية مدى ما تمتلكه من قوة، خاصة حين تسـتطيع مواجهة المستبد بسلطة القانون، فيصبح في قبضتها، تستطيع محاسبته، أما حين تفتقد القانون فإنها تصبح أسيرة في قبضة المستبد.

ونجـده لا يكتفي بالتصوير ليعبر عن أفكاره، بل نجده يمزج الحوار الدرامي المنطقـي بالتخيـيل، كي يستطيع أن يبرز لنا جانبا آخر من علاقة المستبد برعيته "**فـإذا سـأل سائل: لماذا يبتلي الله عباده بالمستبدين؟ فأبلغ جواب مسكت هو: إن الله عـادل مطلـق لا يظلـم أحدا، فلا يولي المستبد إلا على المستبدين! ولو نظر سائل نظرة الحكيم المدقق لوجد كل فرد من أسراء الاستبداد مستبدا في نفسه، لو قـدر لجعـل زوجته وعائلته وعشيرته وقومه والبشر كلهم حتى ربه الذي خلقه تابعيـن لرأيه وأمره، فالمستبدون يتولاهم مستبد، والأحرار يتولاهم الأحرار وهذا صريح في الأثر: كما تكونوا (تكونون) يولّى عليكم**"(7).

تشـيع، هـنا، لغـة المنطق رغم تخيل الحوار*(الذي لا تتضح فيه شخصيات

المتحاورين، وإنما يستخدم الكواكبي صيغة توحي بالعمومية: سائل، جواب مسكت) وقد أكّد عبر هذا الحوار ما كان قد ذكره في كتابه "أم القرى" لكننا نلاحظ أنه، في "طبائع الاستبداد" قد اتسع في ربط مظاهر الاستبداد لدى الحاكم بصفات استبدادية نلمسها لدى الرعية، فيسقط استبداد الحاكم على الرعية التي تصبح صورة عنه في تعاملها مع بعضها بعضا! إذ تفتقد حس العدل فيما بينها، كما افتقدته بينها وبين السلطة المستبدة، وبذلك تشمل ظلمة الاستبداد الحياة العامة والحياة الشخصية!

الاستبداد والمجد:

يلجأ الكواكبي من أجل توصيل فكرته إلى الاشتقاق اللغوي، فيبتدع مصطلحا نقيضا للمجد وهو "**التمجد**" ليتضح مدى الزيف والافتعال الذي أصاب هذه القيمة العليا في الحياة على يد الاستبداد، كما يستخدم لفظة المتمجد باعتبارها نقيضا للماجد، وبذلك يلجأ الكواكبي إلى صيغة صرفية توحي بمدى الافتعال والتشويه الذي أصاب الصيغة الأصلية أي توحي بمفارقتها المعنى الأصلي!!

إن المجد قيمة محببة للنفوس، لهذا نجدها تسعى إليها، وهذه القيمة ميسرة في عهد العدل لكل إنسان حسب استعداده وهمته، وينحصر تحصيل المجد في زمن الاستبداد بمقاومة الظلم، لأن القضاء على الاستبداد يفتح باب الحرية التي هي أساس الإبداع في العمل والتطور في العلم، والسلوك الأخلاقي القويم.

أما التمجد فيوحي اشتقاقه بالتظاهر والافتعال، لهذا يجعله صفة خاصة بالإدارة المستبدة، حيث يحيط بها أعوان يلقبون بألقاب فخمة، ويحيطون أنفسهم بمظاهر الزيف وأفعال لا طائل منها ولا هدف سوى النفاق وتبجيل أولي الأمر المستبدين.

يقبس المتمجد جذوة نار من كبرياء المستبد ليحرق بجحيمها شرف المساواة الإنسانية، فيستشري وباء الاستبداد، فاتكا بكل القيم، فيحصد إنسانية الإنسان!!

إن المتمجدين مزيفو القيم، هم سماسرة المستبد وأذياله، يستخدمهم لتغرير الأمة باسم خدمة الدين، أو حب الوطن أو توسيع المملكة أو تحصيل منافع عامة أو الاستقلال، ويوضح الكواكبي أن هذه كلها أوهام تستخدم من أجل تهييج الأمة، لأنه **ما الفرق على أمة مأسورة لزيد أن يأسرها عمرو؟ مثلها مثل الدابة التي لا يرحمها الراكب سواء أكان غاصبا أم مالكا(8).**

وهكذا يصبح الاستبداد عدوا لكل القيم النبيلة في الحياة، يدمر الإنسان ويزيف

إنســانيته بل ينهيها بتعبير أدق! وبهذا لا يبدو لنا الاستبداد متجسدا في شخص واحد هـو الحـاكم، وإنما يبدو لنا أن هناك مجموعة من الأعوان تحصنه وتحميه بكل ما تملـك مـن قـوة، مما يجعلها على شاكلة المستبد في أخلاقه وفي تصرفاته! لذلك أحاطهـا بدلالات سلبية، تنـزع معالمه الإنسانية، وتجسده عبر صور منفرة، لذلك كـان الإنسـان المتمجد أو من يقبل ذل الاستبداد (جذوة نار من جهنم، دابة، اختار العيش في رق الأسر...) .

الاستبداد والأخلاق:

لعـل أبرز نقطة يظهر فيها دمار الإنسان، بفعل الاستبداد، دمار أخلاقه وتشوّه إنسـانيته، إذ يـترك الملـذات الروحية، التي تشكل إنسانية الإنسان وأساس وجوده الحضـاري، ويكتفي بالملذات الجسدية، لذلك صوّر لنا حال الناس في ظل الاستبداد تصـويرا مزريا مقززا، إذ جعلوا بطونهم مقابر للحيوانات إن تيسرت وإلا فمزابل للنـبات، إلى درجة أصبحت أجسادهم أنابيب بين المطبخ والكنيف (دورة المياه) أو جعلها معامل أعدت لتجهيز الأخبثين...

يـبدو لنا واضحا من هذه اللهجة القاسية ضيق الكواكبي وقرفه من الحياة غير الإنسـانية التـي يعيشها الناس في ظل الاستبداد الأمر الذي دفعه إلى هذا التصوير المـزري، فقـد تحول الإنسان، في ظل الاستبداد، إلى مقبرة أو مزبلة أو أحط من ذلـك، إذ تخـتزل حياته إلى أنبوب يوصل الفضلات البشرية إلى مستقرها، وحين يرتقي وضعه يتحول إلى معمل لإنتاج هذه الفضلات !!

لعله عبر هذا التصوير الذي يجسد تحول الإنسان إلى أحط ما فيه، يستفز أبناء أمته لاسترجاع إنسانيتهم المهدورة، فيقضون على المستبد الذي شوّه روحهم فشوّه بالتالي حياتهم وضيّع ملامح إنسانيتهم! ولم يبقِ سوى حاجاتهم الجسدية!!

بـدا لـنا الكواكبـي معنيا بتسليط الضوء على الأخلاق أو بالأحرى الصفات الرديئة، التي نجدها ملازمة أسير الاستبداد، إنه لا ضمير لـه لا يعرف النظام في حـياته ولا الثـبات في أخلاقه، فهو تارة شجاع (إن أصبح غنيا) وتارة خسيس (إن أمسى فقيرا) يألف الرياء والنفاق، يعين الأشرار ويتستّر عليهم.

يـتغلغل الكواكبـي إلى أعماق أنصار الاستبداد الذين يبذلون جهدهم في تلمس حسـنات لـه، فنجده يحاورهم بلغة المنطق كي يقضي على الأوهام التي تسربلهم ويـبرز الحقـائق التـي يـأبون النظر إليها "**يقولون مثلا: الاستبداد يليّن الطباع ويلطّفهـا، والحـق أن ذلـك يحصـل فيه عن فقد الشهامة لا عن فقد الشراسة،**

ويقولـون الاسـتبداد يعلّـم الصغير الجاهل حسن الطاعة والانقياد للكبير الخبير، والحـق أن هذا فيه عن خوف وجبانة لا عن اختيار وإذعان، ويقولون هو يربي الـنفوس على الاعتدال والوقوف عند الحدود، والحق أنه ليس هناك غير انكماش وتقهقـر، ويقولـون الاستبداد يقلل الفسق والفجور والحق أنه عن فقر وعجز لا عـن عفـة ودين، ويقولون هو يقلل التعديات والجرائم، والحق أنه يمنع ظهورها ويخفيها فيقلّ تعديدها لا عددها"(9).

اتـبع الكواكبـي أسـلوب الحـوار الهـادئ، مع أولئك الذين يقلبون الحقائق والأخـلاق، وهـم يحـرّفون الكلـم عن مواضعه، وبذلك قدّم آراءهم في حسنات الاسـتبداد، وحـاول أن يفندها، ليفضح الأوهام التي يدّعيها أنصار الاستبداد، وكي تـبدو آراؤه أكثر إقناعا نجده يستخدم لغة المنطق من أجل إظهار الحقيقة التي تخفى علـى الكثيريـن، وفضـح الزيف الذي قد يخلب ببريقه أبصار الجاهلين، لكنه لن يستطيع الصمود أمام التحليل المنطقي، وردّ الحجة الباهتة بحجة مقنعة.

وبذلك تتسع آفاق الكواكبي فيفسح المجال لسماع الرأي المخالف لوجهة نظره، أي أولـئك الذين يقفون في صف الاستبداد، يحاورهم ويبيّن أوهام مزاعمهم، وهكذا يصـبح الحوار، لديه، لغة منطقية وأداة تنويرية، نسمع بفضله وجهتي نظر، ولكن شـتان بين رؤية متسرعة تجامل الحاكم وتدافع عنه، فتخفي نور الحق، وبين رؤية مـتعمّقة يجسّدها الكواكبي الذي يفضح الزيف والكذب بأسلوب علمي يقدم المعرفة التـي تسـعى إلى رؤية الحقيقة، كل ذلك من أجل أن يمنح الإنسان قوة في مقارعة المسـتبد وأعوانـه الذين قد نجدهم أخطر على الناس من المستبد، إذ يدافعون عنه، ويروّجون أفكاره الزائفة.

الاستبداد والمال:

لـم يكتفِ الكواكبي بدراسة أثر الاستبداد على أخلاق الناس، بل نجده يوضح كيف ينعكس الفساد الأخلاقي، الذي لحظناه آنفا، على البنية الاقتصادية للدولة، وهو لـن ينطلق من العموميات التي قد يتيه بها المرء، وإنما نجده يبدأ من الخاص ليصل إلـى العام، أي من نظرة أسير الاستبداد للمال وطريقة تعامله معه، إذ يشتد حرصه علـيه، ويسـهل تحصـيل الـثروة بطرق غير مشروعة، كالسرقة من بيت المال وبالـتعدي على الحقوق العامة واغتصاب أموال الضعفاء، وقد بيّن لنا الكواكبي أن ذلك كله يحصل حين يترك الإنسان دينه ووجدانه وحياءه، وينحطّ في أخلاقه، سعيا مـنه ليـتماثل مـع المستبد الأعظم أو أحد أعوانه وعماله، ويكفيه وسيلة أن يتصل

بـــباب أحدهـــم ويـــتقرب من أعتابه...وهذا التقرب أعظم أبواب الثروة في الشرق والغرب ويليه الاتّجار بالدين، ثم الملاهي، ثم الربا الفاحش...

إذاً فـــي زمـــن الاســـتبداد يطغـــى الفساد الأخلاقي وتفتح أبواب الكسب غير المشـــروع بتشجيع من سلطة الاستبداد، ويبرز دور قيادة الاستبداد في سلب أموال الرعـــية، أو جعلهـــا لقمـــة سائغة أمام اللصوص والمحتالين الذين يساندون المستبد فينعمون برعايته .

يـــبرز الكواكبـــي الفســـاد المالي في دولة الاستبداد التي تقهر الضعيف فتزيده فقـــرا، وتقـــف إلى جانب الثري، الذي يكون غالبا متحالفا معها، فتكافئه بأن تزيده ثراء، لهذا يعلن الكواكبي انتماءه إلى هؤلاء الفقراء، فيقف إلى جانبهم، يساندهم بكل مـــا يملـــك مـــن وعـــي ومعرفة وإرادة في مقاومة الاستبداد، إلى درجة يكتب لهم شـــكواهم ضد الظالمين من الولاة، ليرفعوها إلى السلطة العليا، فنال بذلك لقب أبي الضعفاء.

الاستبداد والتربية:

يؤكـــد الكواكبـــي أن الاستبداد يقضي على العملية التربوية، لذلك يعدّ التربية والاســـتبداد عامليـــن متعاكســـين في النتائج، فكل ما تبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته.

وقـــد لاحظـــنا، ســـابقا، كـــيف يدمر الاستبداد أخلاق الإنسان فيستبيح الكذب والخداع والنفاق والتذلل، وبذلك تنحرف التربية عن دورها في غرس الخلق القويم، وبناء إنسان فاعل في الحياة، ليتحول، في ظلّ الاستبداد، إلى عبد لا يملك نفسه ولا أولاده، فهو يربي أنعاما للمستبدين يأتمرون بأمرهم.

إذاً التربـــية الصـــحيحة لن تكون في ظلّ الاستبداد، إذ يشيع الخوف من القوة القاهـــرة، مما يستلزم "**انخلاع القلوب لا تزكية النفوس**" وهذا يناقض أسس التربية الحديـــثة التي أجمع عليها علماء الاجتماع والتربية، ،أول أسس هذه التربية: **الابتعاد عـــن الترهيـــب واعتماد الإقناع، وأن التعليم مع الحرية بين المعلم والمتعلم أفضل مـــن التعلـــيم مـــع الوقار، وأن يكون التعلم رغبة في الكمال لا طمعا بالمكافأة أو منافسة الأقران...**

لابد أن يدهش المرء لهذه النظرة التربوية الثاقبة التي تلتقي مع أهم الإنجازات الحديـــثة لعلـــم التربية، التي تجعل الحرية والمنطق أساس تلقي المعرفة، وترفض

الأسلوب التقليدي في التعليم الذي يعتمد الضرب والترهيب.

إن الكواكبي يريد إعادة بناء الإنسان، الذي شوّهه الاستبداد، على أسس قويمة لهذا يدلّه على الطريق الصحيح الذي يحقق له إنسانيته المفقودة، فيشجعه على طلب العلم من أجل رفعته، لا من أجل المال أو إحساس التفوق على الآخرين، بمعنى أن يتحول العلم غاية، يستطيع بفضله الارتقاء بإنسانيته، لا وسيلة لجمع المال، أو الغرور والإحساس بالتفوق على الأصدقاء.

يلفت نظرنا هذا الوعي لأهمية نبذ الأساليب التربوية التي نشأ عليها، حتى إن المرء يكاد يحس أن الكواكبي قد اطلع على نظريات التربية التي نراها منتشرة اليوم والتي تعتمد اللعب بوصفه أفضل طريقة لتعليم الأطفال.

إنه في الممارسة التربوية يبدأ من الطفل الذي هو رجل المستقبل، والذي يعوّل عليه أي نهوض حقيقي، لذلك نجده يطالب بتربية العقل على التمييز والتفهم والإقناع، ثم ضرورة أن يقدّم له القدوة الصالحة ليتمثّلها في حياته، وأن الطفل بحاجة إلى التعزيز المعنوي، وذلك يكون بتقوية همته وعزيمته، وينتبه إلى ناحية هامة في العملية التربوية وهي التدريب على الإتقان، وأن يربى الإنسان على التوسط والاعتدال بعيدا عن التعصب أو الانفلات.

وقد أكد أن تربية العقل يجب أن تكون مصحوبة بتربية الجسم والنفس، أما كيف تربى النفس لدى الكواكبي، فتكون الخطوة الأولى في مجال العناية بروحه، وذلك بغرس الإيمان في نفسه، لمعرفة الخالق والإحساس بمراقبته والخوف منه(10) عندئذ يتمكن المربون من تنمية الضمير الديني داخل الإنسان، فتغتني روحه، وتصلح حياته، مما ينعكس إيجابيا على مجتمعه.

إذاً من الطبيعي ألا تتم أية نهضة تربوية، كما يرى الكواكبي، إلا بإزالة الاستبداد الذي يضغط على العقول والأرواح، ويمنعها من التفكير والإحساس، كما يمنع الشخصية من النضج والتفتح، فتفتقد الأجيال الشابة القدوة التي تسعى لمحاكاتها والسير على طريقها، خاصة في مرحلة التكوّن، وقبل أن تصل هذه الأجيال مرحلة النضج.

الاستبداد والدين:

يشوّه الاستبداد الدين، كما يشوّه الأخلاق والتربية، فتصبح العبادات الدينية مجرد عادات وطقوس لا تفيد في تطهير النفوس، لهذا لن نستغرب، على حد قول

الكواكبي، من أسير الاستبداد الرياء مع ربه ومع أمه وأبيه ومع قومه وجنسه وحتى مع نفسه، فنحس أنه يعاني خلخلة في القيم الدينية والأخلاقية، إذ يضيّع صراطه المستقيم، ويعيش الانحراف في مناحي حياته!

ويوضّح الكواكبي أن المستبد حين يتخذ لنفسه صفة القدسية فإنه يشارك بها الله عزّ وجل، فيلتبس على العوام الفرق بين الإله المعبود بحق وبين المستبد المطاع بالقهر، فيختلط الأمر في مضايق أذهان هؤلاء العوام لتشابههما في استحقاق مزيد من التعظيم، والرفعة عن السؤال وعدم المؤاخذة على الأفعال، لذلك لا يحق لهم مراقبة المستبد لانتفاء النسبة بين عظمته ودناءتهم...فيعظّمون الجبابرة تعظيمهم لله، بل أكثر لأن الله حليم كريم عذابه بعيد غائب، لهذا يستنتج الكواكبي أن هؤلاء العوام يؤمنون بالمحسوس المشاهد، حتى يمكن أن يقال فيهم لولا رجاؤهم بالله وخوفهم منه فيما يتعلق بحياتهم الدنيا لما صلّوا ولا صاموا، ولولا أملهم العاجل لما رجحوا قراءة الدلائل والأوراد على قراءة القرآن واستيعاب حكمته.

ينهار الإيمان بالله ويتشوّه في ظل الاستبداد إلى درجة تختلط في أذهان العامة قدسية الإله وقدسية المستبد، فتنتفي الصفة البشرية عنه، وبما أن عذاب المستبد قريب وعذاب الله بعيد نجد العوام يؤرّقهم الخوف من المستبد فينسون الله تعالى، عندئذ تنهار قيم الإيمان الحقيقي الذي يعتمد على الغيب، ويصبح الإيمان بالمحسوس مسيطرا على عقول العوام، مما يجعلهم يرجحون اليمين بالأولياء المقربين على اليمين بالله(10) كما يرجحون قراءة الأوراد على كتاب الله المنزل!

إن تعظيم المستبد من قبل العامة، ونسيان أن العظمة لله وحده إحدى الأفكار الأساسية التي أرّقت الكواكبي، لذلك وجدناه يؤلف كتابا في هذا المجال يدعى "العظمة لله" ستصل إليه يد المستبد، بعد أن وصلت إلى صاحبه وقتلته!!

يرى الكواكبي أن العلة الأساسية في تشوّه الدين تكمن في هجر المسلمون أصوله (القرآن وسنة رسول الله ص) واتبعوا سلطة المستبدين الذين شجّعوا البدع التي تشوّه حقيقة الدين والإيمان، وتؤسس للرضوخ والاستعباد، فيصبح الدين آلة لأهوائهم السياسية ودعامة لسلطانهم.

وقد أبرز الكواكبي دور المستبدين في تشويه الدين وجعله وسيلة لتفريق كلمة الأمة حين اتخذوا بطانة من خدمة الدين يعينونهم على ظلم الناس باسم الدين، كما يعينونهم على تمزيق الأمة إلى مذاهب وشيع متفاوتة تقاوم بعضها بعضا، فيصفو الجو للمستبد.

أفلح الاستبداد ورجاله (الذين يدعون أنفسهم برجال الدين) في تضييع مزايا الدين، فحيّروا أهله بالتفريع والتوسيع والتشديد والتشويش، مما جعله دينا حرجا يتوهم الناس فيه أن كل ما دوّنه المتفننون (الفقهاء) بين دفتي كتاب ينسب إلى الإسلام، وبهذا التشدّد بات العوام يلومون أنفسهم على تقصيرهم المطلق، فأهملوا مراقبة أنفسهم ومراقبة حكامهم، وأن هذا الإهمال للمراقبة هو إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو أحد أسس الإيمان في الإسلام، وبهذا ظهر حكم الحديث "لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب" .

ويبدو لنا أن الناس بتركهم هذا الأمر الإلهي سمحوا للمستبد أن يستعبدهم، ومن الملاحظ أن هذا الأمر قد تلازم في القرآن الكريم بأحد أعمدة الدين الإسلامي وأهم أركانه: الصلاة التي تعني أن يأمر المسلم بالمعروف وينهى عن المنكر بالإضافة إلى معنى الصلة بين المؤمن وربه، لهذا جاءت الدعوة إليها في القرآن الكريم مصحوبة بالدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كذلك يبيّن الكواكبي أن التشدد في الدين يؤدي إلى اختلال حياة الفرد وحياة الأمة، ويفسح المجال لتسلط المستبد على رقاب الناس الذين أرهقتهم أوامر المستبد، لا يجدون وسيلة للاستمرار في العيش إلا بالتخفف من أوامر الدين ونواهيه، التي أرهقهم بها الفقهاء بعيدا عن روح الإسلام السمحة، وبذلك يقضي المستبد وأعوانه على كل ما يجسده الدين من قيم روحية وأخلاقية تصلح حياة الناس.

وقد لفت الكواكبي الأنظار إلى مسؤولية الفقهاء المنافقين عن تشوّه الدين حين قدّموا فهما ضيقا للإسلام، تجلى ذلك حين عبثوا بدلالات اللغة، فشوّهوا الحديث الشريف. وقدموا فهما ضيقا له، وهذا أبلغ تشويه قاله مشرّع سياسي من الأولين والآخرين "**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**" فحرّفوا المعنى عن ظاهره وعموميته، وجعلوا المسلم راعيا مسؤولا عن عائلته فقط، مع أنه في عهد الراشدين أسست أفضل حكومة على هذه القاعدة الشرعية التي تحمّل المسلم مسؤولية المجتمع والأسرة معا أي مسؤولية عامة وخاصة، وكذلك حرّف الفقهاء الآية "**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض**"(سورة التوبة، آية رقم71) فحوّلوا الولاية إلى أمور حياتية خاصة دون تسليط الضوء على الولاية العامة ومسؤولية جميع الأفراد عن الحكم.

وهكذا "غيروا اللغة وبدّلوا الدين، وطمسوا على العقول حتى جعلوا الناس ينسون لذة الاستقلال وعزّة الحرية، بل جعلوهم لا يعقلون كيف تحكم أمة نفسها بنفسها دون سلطان قاهر."(12)

باتت وظيفة هؤلاء العلماء العبث بالمقدس (اللغة والدين ونصوصه المقدسة) مع أنهم يدّعون حمايته، لهذا استطاعوا تشويه العقول والنفوس، فألغيت معاني الكرامة والحرية من حياة الناس، وصار الحاكم المستبد، بسبب إلغاء العقل، جزءا من وجودهم يألفونه مستكينين له، دون أن يراودهم أي إحساس بقهره!! فبذلك تحول العلماء من وظيفة التنوير التي يأمرهم بها دينهم إلى وظيفة التجهيل التي يأمرهم بها سلطانهم ونفوسهم الضعيفة !!

لذلك أطلق الكواكبي على علماء الدين (علماء الاستبداد) فهم يحرفون الكلم عن مواضعه، وليس أي كلم، إنه كلام الله، إرضاء للمستبد وحماية له، فهم مثلا يحرفون الآية الكريمة "**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**"(سورة النساء، آية رقم 59) فيغفلون قيد **منكم** أي من المؤمنين، ليؤسسوا لطاعة المستبد، ويوحوا بإيمانه، كي لا يتطرق إلى أذهان المسلمين بأن الحكام الظالمين (الذين لا يحكمون بأمر الله) لا يتوجب على المؤمنين إطاعتهم، لأنهم يخالفون الدين الإسلامي السمح، فهم غرباء عنه لظلمهم واستبدادهم، لذلك لا نستطيع أن نعدّ أمثال هؤلاء الفقهاء حماة للدين وإنما حماة للمستبد، يعززون عظمته، وينسون أن العظمة لله وحده.

نظرا لأهمية هذه الآية واستغلال رجال الاستبداد لها نلاحظ أن الكواكبي (في كتابه "طبائع الاستبداد") كرر الوقوف عندها كما توقف عندها في كتابه "أم القرى" فقد رآها الحاكم المستبد درعا يحمي تصرفاته، بل يمكن أن يقنع العامة بها، إذ تطلب منهم طاعة أولي الأمر! وإن كنا قد لاحظنا أن الكواكبي في هذا الكتاب قد أضاف إلى تفسيراتها أبعادا جديدة، في حين وجدناه في كتاب "أم القرى" يتوقف عند صيغة الجمع التي وردت فيها مفردة **أولي الأمر** أي أن الطاعة تكون واجبة لمجموعة من الأشخاص لا لشخص مستبد واحد، وبذلك يزيد مفهوم الشورى في الإسلام وضوحا، معتمدا أساسا لا جدال فيه: هو القرآن الكريم، ولأهمية هذه الآية وكثرة ترددها على ألسنة الناس والحكام سنجده في مقالاته الصحفية يتوقف عندها أيضا ويورد تفاسير الفقهاء المسلمين لها، ليبين زيف تفاسير فقهاء السلطان، وبذلك نجده يعود إلى ما يعزّز الاستبداد في تراثنا الديني ليبيّن براءته منه، ويبيّن انحراف السلطة المستبدة ورجالها في تفسيراتهم تلك.

الدين وحقوق الإنسان:

أكدّ الكواكبي أن القهر والاستبداد لا يرضى بهما الإسلام، وأن الحرية هي روح الدين، لهذا رفض الإسلام العبودية لغير الله تعالى، وهو يتوقف عند العهد

الراشدي، حيث كان "**راعي الخرفان حرا لا يعرف شنآنا يخاطب أمير المؤمنين بـيا عمر ويا عثمان، فصرنا ربما نقتل الطفل في حجر أمه ونلزمها السكوت فتسكت...**"(13).

يحيي الكواكبي في أذهان الناس قيما إسلامية غيّبها الاستبداد، ويبيّن في العصر الراشدي (أي في ذلك الذي تمّ فيه تطبيق روح الإسلام) كيف يتعامل الإنسان البسيط مع الحاكم بعيدا عن لغة التفخيم والتقديس، إذ يتسم تعامله بالحرية والإحساس بالمساواة، فينتزع تلك الهالة التي يحيط الحاكم نفسه بها، أما اليوم وقد بعدت الهوة بين الحاكم والمحكوم، فإن هذا المحكوم يتعرض لأشد أنواع القهر ويبقى صامتا، فقد نُزعت إنسانيته منه التي تعني إحساسه بالحرية والمساواة والكرامة، وأصبح عبدا لا يستطيع أن يقول (لا) ولهذا كله بات يعيش غريبا عن روح الإسلام.

ومن أجل إحياء كرامة الإنسان يذكرنا الكواكبي بمبدأ المساواة أحد أسس الإسلام الأساسية التي وردت في القرآن دستور المسلمين "**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**"(سورة الحجرات آية رقم 13) ولكن مع الأسف بات الحكام والرعية يتجاهلونها، وينسون قول نبيه "**الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى**" في حين طبقت هذه الدعوة في عهد المسلمين الأوائل، فشاع بينهم العدل والإخاء والحض على **الإحسان والتحابب**، فنشأت خلافة **أصول حكومتها الشورى الأرستقراطية أي شورى الحل والعقد في الأمة بعقولهم لا بسيوفهم.**"

بالإضافة إلى هذه المقولات التي تعتمد أسس التشريع الإسلامي (القرآن الكريم والحديث الشريف) يورد الكواكبي مقولات شعبية ذات دلالات دينية تشيع عادة على ألسنة البسطاء الذين يعانون أسر الاستبداد، فيسلون أنفسهم بالسعادة الأخروية بما تحتويه من نعيم مقيم، وينسون أن الدنيا عنوان الآخرة، فنسمعهم يقولون ("**الدنيا سجن المؤمن**" "**المؤمن مصاب**" "**إذا أحب الله عبدا ابتلاه**" "**هذا شأن آخر الزمان**" "**حسب المرء لقيمات يقمن صلبه**") لذلك يحاول أن يقدّ المقولات التي تضيّع حقوقه الإنسانية وتعزز الاستبداد، كما تشوّه حياته، فيطرد روح التخاذل التي عششت في نفوس الناس لكثرة ترداددهم أمثال هذه المقولات التي ينسبونها للدين، فيذكّهم بأحاديث شريفة تناقض هذه المقولات الشعبية المأثورة التي ألبسوها دلالات دينية، كقول النبي عليه السلام "**إن الله يكره العبد البطال**" والحديث الذي يحمل معنى "**إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم غرسة فليغرسها**".

وهكـــذا يقـــارع الكواكبي حجة العوام (التي تشكلها الأقوال المأثورة ذات الدلالـــة السلبية) بحجج لا ترد لما تحمله من قوة التأثير، وبذلك يقدم لهم البديل الدينـــي (أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام ذات الدلالة الإيجابية) فهو يهديهم إلـــى مـــا هـــو خير لهم في حياتهم الدنيا والآخرة على لسان من لا يستطيعون رفـــض أقواله، كل ذلك من أجل ترسيخ أهمية العمل في الأذهان ونبذ التواكل! ومن أجل إيقاظ النفوس وتنبيه العقول على الروح الحقيقية للدين الذي يجمع بين الإيمان والعمل.

إن هـــذه المثبطات من الأقوال المأثورة التي تأسر حياة الإنسان تهون أمام "**ذلـــك السم القاتل الذي يحول الأذهان عن التماس معرفة سبب الشقاء فيرفع المسؤولية عن المستبدين ويلقيها على عاتق القضاء والقدر.**"(14)

ينـــبه الكواكبـــي المســـلمين إلى فهمهم المغلوط للقضاء والقدر، ويبين لهم مســـؤوليتهم عـــن حالـــة الضعف والذل التي يعيشونها، فقد أغفلوا البحث عن الأسباب وتعلقوا بكل ما يسلب إرادتهم ويقتل حيويتهم من أفكار تنسب إلى الدين وهـــو مـــنها براء، إذ هناك فرق بين أمور لها أسباب واضحة يستطيع الإنسان تغيـــيرها بإرادتـــه كحالة التخلف التي تعيشها الأمة، وبين أمور قدرية (الموت، المـــرض ...) لا يـــد للإنسان فيها ولا يستطيع تبديلها فيتوجب عليه أن يتركها للإيمـــان بالقضـــاء والقدر، وبذلك يزيل الغشاوة عن أكثر الأفكار تدميرا لروح المســـلم وفاعليـــته بأن يطرح بديلا يمت بصلة إلى الموروث الإسلامي ويؤكد عبره ضرورة نبذ التواكل والضعف.

إن الســـمة الأساســـية لفكر الكواكبي انطلاقه مما يشكّ وجدان الناس، يلجأ إلـــى الحوار الفكري مع كل فكر مشوّ أو مغلوط ليعود إلى الأصول التي تشكل مـــلاذا لـــنا من حالة الضعف التي ترتكز على الأوهام التي لا علاقة لها بالدين ومع ذلك تؤثر على أفكار عامة الناس وأفعالهم.

إذاً تضـــيع حقوق الإنسان حين تسيطر عليه أفكار التخاذل والضعف، التي ينســـبها عـــادة إلـــى القضاء والقدر، لذلك يحاول الكواكبي أن يقدّم فهما واعيا للديـــن، مســـتندا علـــى الأصول، فيستطيع أن يوّظفه في مقاومة الظالمين، لأن أصـــل الـــداء يكمن في الفهم المغلوط للدين، وقد ضيّع المفهوم الصحيح للدين الساسة والعلماء المنافقون، لهذا يرشد قومه إلى عمل باستطاعة كل فرد أن يقوم به "**لا حرج فيه علما ولا عملا**" (مادام يكمن في أعماقه وجدان يميز الخير من الشـــر والمعـــروف مـــن المـــنكر) وهذا العمل المقاوم: هو أن يتبع قول النبي

صـــلوات الله عليه وسلامه "**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، وإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**".

إنه لا يكتفي بإيراد القول المقدس الذي يشكل وجدانهم ويحرك ضمائرهم، وإنمـــا نجـــده يحاول أن يوضح لهم دلالات هذا الحديث ليؤثر في عقولهم "**أنتم تعلمـــون إجماع أئمة مذاهبكم كلها على أن أنكر المنكرات بعد الكفر، هو الظلم الـــذي فشا فيكم، ثم قتل النفس... وقد أوضح العلماء أن تغيير المنكر بالقلب هـــو بغض المتلبس به (الظالم) بغضا في الله، بناء عليه من يعامل الظالم أو الفاســـق غير مضطر، أو يجامله ولو بالسلام، يكون قد خسر أضعف الإيمان، وما بعد الأضعف إلا العدم أي فقد الإيمان والعياذ بالله.**

بـــناء على ذلك فالدين يكلّفكم إن كنتم مسلمين، والحكمة تلزمكم إن كنتم عاقليـــن أن تأمـــروا بالمعـــروف وتنهوا عن المنكر، لا أقل في هذا الباب من إبطـــانكم البغضـــاء للظالمين والفاسقين، وأظنكم إذا تأملتم هذا الدواء السهل المقـــدور لكل إنسان منكم يكفي لإنقاذكم مما تشكون، والقيام بهذا الواجب... ولـــو أن أجدادكـــم الأولين قاموا به لما وصلتم إلى ما أنتم عليه من الهوان، فهذا دينكم والدين ما يدين به الفرد لا ما يدين به الجمع، والدين يقين وعمل، لا علم وحفظ في الأذهان، أليس من قواعد دينكم فرض الكفاية، وهو أن يعمل المسلم ما عليه غير منتظر غيره؟"(15)

يعود الكواكبي بالدين إلى نقائه الأول، فيبرز كيف يكون فاعلا في حياتنا، يحفّـــز الإنســـان علـــى التغيـــير، ويدفعـــه إلى بغض ظالميه، وهو لا يكتفي بتحريضهم، بل نجده يحرض الناس ضد كل أولئك الذين يتجاوزن قاعدة الأمر بالمعـــروف والنهـــي عـــن المنكر، وهو بهذا يهاجم الضعفاء العاجزين الذين لا يطيقون حتى أضعف الإيمان في مقاومة المستبد.

إذاً كـــي يســـتطيع المرء أن يدافع عن حقوقه الإنسانية عليه أن يجعل من الدين الإسلامي منهاج حياة وعمل ينقذ المسلم من تخلفه، عبر تقديم تفسير فاعل يتسم بالحيوية للتشريع الإسلامي، حتى إن فرض الكفاية يجعله قريبا من فرض العيـــن! إذ مـــن واجب المسلم أن يكون فاعلا في الحياة، وألا ينتظر من غيره العمـــل ليســـقطه عـــن نفسه، فقد ضيّع الإسلام مثل هذا التواني والضعف، إلى درجـــة وصـــل فـــيها الأمـــر بالمسلمين أنهم يواجهون أعداءهم بكلمات يائسة مستســـلمة كقولهم أيام الأزمات "**حسبنا الله ونعم الوكيل**" مخالفين بذلك أمر الله تعالى **بأن يعدّوا ما استطاعوا من قوة، لا ما استطاعوا من صلاة وصوم**".

إننا أمام قول جريء يواجه به كل أولئك المتخاذلين والمتواكلين الذين يدّعون التديّن مكتفين بالصلاة والصيام، إذ يقدم الكواكبي تفسيرا لآية قرآنية يقاوم به الفكر التقليدي المستسلم الذي يرى في تأدية الفروض تمام الدين، فيبيّن أن الله أمرنا أن نواجه أعداءنا (سواء في الداخل من المستبدين أم في الخارج من المعتدين) بكل ما نملك من قوة، ولاشك أن تصريحه بهذه الفكرة يعدّ تجاوزا للفكر التخاذلي الذي يجعل الفروض الدينية فروضا شخصية ويتناسى علاقتها بالمجتمع بل يتناسى مسؤولية الإنسان المسلم في مواجهة العدو الذي هو أمر إلهي "**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**"(سورة الأنفال آية 60) هذه الدعوة تجلو حقيقة إلهية يعروها التزوير من قبل المتواكلين،.وتبين أن الأمر الإلهي في مواجهة الأعداء يكون بإعداد السلاح لا بإعداد الصلاة والصوم!

إن الكواكبي، هنا، يتجاوز الخطاب الديني التقليدي، إلى خطاب ديني مقاوم، يسلط الضوء على (الجهاد) الفريضة المغيّبة من قبل رجال الدين الذين هم آلة في يد المستبد! ومثل هذا الخطاب الجريء لا يمكن أن يصدر إلا عن إنسان غيور على وضع المسلمين مهموم بنهضتهم ومواجهة أعدائهم، الذين يعرقلون نهضتهم، لذلك يلجأ إلى توضيح ما أمرنا الله به من إعداد السلاح لمقاتلة الأعداء، ولم يأمرنا بقتالهم عن طريق الواجبات الدينية التي تصلح الشان الداخلي للإنسان لكنها لا يمكن أن تكون سلاحا فاتكا بالأعداء، ومثل هذه الواجبات قد لا تحتاج إلى تأكيد من قبل علماء المسلمين قدر احتياج التأكيد على ضرورة إعداد العدة لمواجهة العدو، باعتقادنا، وهو أمر نسيه غالبية علماء المسلمين مكتفين بالدعوة إلى الصلاة والصوم.

نلمح لدى الكواكبي رغبة في إحياء الهمة لدى المسلمين، وذلك لن يكون إلا عن طريق إحياء الدين أحد ركائز حياتهم الذي يؤسس وجدانهم، ويوجه سلوكهم، لذلك يستعين به ويوّظفه ليصبح عامل نهوض في حياتهم، ويساعدهم على الثورة ضد ظالميهم، وعلى هذا الأساس يرفض كل ما يسيء إلى الدين كمقولة "**الدين أفيون الشعوب**"وأن "**الدن والعقل ضدان**" إذ يصح ذلك في الأديان الخرافية "**أما الأديان المبنية على العقل المحض كالإسلام...ولا أعني بالإسلام ما يدين أكثر المسلمين الآن، إنما أريد بالإسلام دين القرآن، أي الدين الذي يقوى على فهمه من القرآن كل إنسان غير مقيّد الفكر بتفصّح زيد أو عمرو**".(16)

يجنّد الكواكبي نفسه للدفاع عن الوجه الآخر للدين، بعيدا عن الأوهام

والخـــرافة، هـــذا الوجه الذي نسيه أغلب الناس، أي دين العقل والحرية، الذي يخاطـــب الدنـــيا قبل الآخرة، لهذا يعرّفنا بأهمية هذا الوجه المشرق الذي **يحفظ الفكر من الوقوع في مصائد المحرّفين، ويضبط النفس من الوقوع في الشطط، ويعـــدّ الديـــن أقوى مؤثر في تهذيب الأخلاق، وأكبر معين على تحمل مشاق الحـــياة، وأعظـــم منشـــط علـــى الأعمال الخطيرة، وأجلّ مثبّت على المبادئ الشـــريفة، ويكفـــي دلـــيلا على رقي الشريعة الإسلامية أنها حضرت عبودية الإنسان في جهة شريفة واحدة هي (الله) فأعتقت عقل البشر عن توهم وجود قـــوة ما، في غير الله، لذلك لن يخاف المسلم من أي ملك أو ساحر أو شيطان أو سلطان.**

يـــنطلق الكواكبي بمفهوم الحرية إلى ذروته، حين يحرر العقل البشري من الخضوع لغير الله تعالى، لذلك يبدو المسلم الحقيقي جريئا لا يخاف أي سلطان، كما يريد أن يكون عقله حرا من قيود الوهم والسحر والخرافة!!

وعلى هذا الأساس يكون الدين خير مقياس لرقي الأمة أو انحطاطها، فإذا خـــرج الديـــن عـــن الفطرة والحكمة، ولم يعد دين نظام ونشاط، وترك الأخذ بالقرآن إلى البدع والتشدّد والتشويش، أصبح مرضا وليس دينا.

نجـــد فهمـــا واعيا لدى الكواكبي في تقديم حقوق الإنسان باعتبارها جزءا أساسيا من الدين الإسلامي، أي ذلك التفسير المتنوّر الذي يقوم على الجمع بين الدنـــيا والآخرة، فإذا كان معظم خطابه السابق قد اتجه إلى أمور الدنيا فلا يعني ذلك إهماله للآخرة، فقد بيّن أن الروح الإنسانية ترقى نحو الكمال حين تحس أن لهـــا وراء حـــياتها حـــياة أخرى، يُترقى إليها عبر سلم العدل والرحمة وعمل الخير، وبذلك تكون حياة الإنسان في الدنيا معبرا إلى الحياة الأخرى، فإن عمل عملا صالحا فيها ارتقى بدنياه وآخرته معا.

نلاحظ في حديثه عن القيم الإنسانية، التي تدعى اليوم بحقوق الإنسان، أنه لـــم يـــتوقف عـــند تعريفها بلغة وصفية جاهزة، وإنما حاول أن يحددها ضمن ســـياقاتها المعرفية والوجدانية، فيعزز وجودها، مبيّنا علاقتها الحميمة بمكوناته الدينـــية التـــي تشـــكل صلب وجوده، والمدهش أن الكواكبي كان يقدم لنا أسس الحفـــاظ عليها التي هي أسس يقوم عليها وجوده الروحي، وهكذا تكون الحرية والمساواة والعدل... الوجه الحقيقي لتعاليم الدين الإسلامي.

الاستبداد والعلم:

أبـــرز لـــنا الكواكبي، كما لاحظنا سابقا، كيف حض الإسلام على رفض العـــبودية لغـــير الله تعـــالى، فأكد بذلك على حق الإنسان في الحرية والعدالة والمساواة، ولاشك أن الإنسان لن يستطيع حماية حقوقه هذه إلا إذا كان متعلما، لذلـــك يـــرى الكواكبي أن الإسلام أول دين حض على العلم، وخير دليل على ذلـــك أن أول كلمة أنزلت على رسوله، مشكلة أول أمر إلهي في القرآن الكريم هي (اقرأ) (سورة العلق آية رقم 1و3)فشكلت بداية حياة جديدة، وقد جاء أمر الله تعالى بالقراءة مكررا...، دليلا على كونه **أمرا ملحا ذا أهمية قصوى، وقد أدى هـــذا الأمر لدى السلف الصالح إلى وجوب تعلم القراءة والكتابة، وبذلك صار العلم في الأمة مباحا للكل، غير مقتصر على رجال الدين أو الأشراف كما كان في الأمم السابقة، فانتشر العلم في سائر الأمم أخذا عن المسلمين(17).**

رفـــع الكواكبـــي العلـــم إلى أعلى مكانة يمكن أن يتخيلها إنسان، إذ جعله "**قبســـة من نور الله**" وهذا النور يكشف الخير ويفضح الشر، ويولّد في النفوس حـــرارة وفـــي الـــرؤوس شهامة، ولهذا يقال العلم نور والظلم ظلام، وقد تأمل الكواكبي حالة كل سلطة فلاحظ أنها تقوى وتضعف بنسبة علم مرؤوسيها، لأن بيـــن الاســـتبداد والعلم حربا دائمة، فهما ضدان متصارعان، فكل إرادة مستبدة تســـعى جهدها في إطفاء نور العلم في الأمة، لتحصر الرعية في حالك الجهل، لأنه ما انتشر نور العلم في أمة قط إلا وتكسرت فيها قيود الأسر، وساء مصير المستبدين سواء أكانوا سياسيين أم دينيين.

ما هي العلوم التي يخشاها المستبد؟

لا يخشـــى المســـتبد علوم اللغة ولا علوم الدين التي تتعلق بيوم الآخرة أو بالعـــبادات، ولكـــن تـــرتعد فرائصه "**من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية أو الفلســـفة العقلية، وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع والسياسة المدنية، والتاريخ المفصـــل، والخطابة الأدبية، ونحو ذلك من العلوم التي تكبّر النفوس وتوسّع العقـــول، وتعرّف الإنسان ما هي حقوقه، وكم هو مغبون فيها، وكيف الطلب، وكيف النوال، وكيف الحفظ.**"(18)

يشـــرح لنا الكواكبي كيف يكون العلم سلاحا يقاوم به الاستبداد، وينبّه إلى أمـــر كثيرا ما يغفل عنه المقاومون في زحمة حماستهم للنضال ضد الاستبداد،

فهم ينسون أنه **لا يكفي أن نتخلص من المستبد، بل علينا أن نمهد الأرض للبديل الذي يجب أن يحل محلّ المستبد**، أي يدعو إلى وضع خطة مبنية على فهم نظري للقضايا التي تؤسس لحياة لا استبداد فيها، من بينها معرفة الإنسان لحقوقه وواجباته من جهة، ومن جهة أخرى معرفة حق الحاكم وواجباته وامتلاك الوعي المعرفي لمحاسبته.

وهناك أمر آخر يعزز وجود المستبد، يتوجب على المرء أن يقاومه بالعلم وهو **الخوف** المستحكم من المستبد وأدواته، **فالإنسان يقترب من الكمال في نسبة ابتعاده عن الخوف**، وهذا لن يكون إلا بمعرفة حقيقة ما يخاف "**وهكذا كلما زاد علم أفراد الرعية بأن المستبد امرؤ عاجز مثلهم زال خوفهم منه وتقاضوه حقوقهم**".

ونظرا لأهمية العلم في مقاومة الاستبداد أولا ثم في مقاومة التخلف والضعف، نجد الكواكبي يؤكد ضرورة إشاعة التعليم الإجباري فيكثر الأكفاء أصحاب المواهب الذين يتولون شؤون الأمة، فينتشر الوعي الذي يقاوم به الاستبداد، كذلك تنتشر الرؤية الموضوعية بين الناس فيعرفون حقيقة المستبد الذي يستمد قوته من جهلهم.

دور العلماء في مقاومة الاستبداد:

يستخدم الكواكبي مصطلح "العلماء" أو "الحكماء" عوضا عن مصطلح "المثقف" الذي نستخدمه اليوم، ومن الملاحظ أن المصطلح الأول ذو دلالة دينية في تراثنا الإسلامي، أما المصطلح الثاني فذو دلالة دنيوية باعتقادنا.

يسعى العلماء، الذين ينبتون في مضايق صخور الاستبداد، جهدهم لتنوير عقول الناس بوسائل مباشرة عن طريق الخطابة في الجوامع والتدريس أو بوسائل غير مباشرة عن طريق الكتابة، لذلك نجدهم يستحقون تعريف القرآن الكريم لهم بالصالحين والمصلحين في نحو قوله تعالى "**إن الأرض يرثها عبادي الصالحون**"(سورة الأنبياء ، آية رقم 105).

إن هؤلاء العلماء لابد أن يمتلكوا صفات متميزة تؤهلهم لقيادة الأمة، عليهم أن يمتلكوا "**تسمة مروءة وشرارة حمية" بالإضافة إلى الثقافة العامة، والاختصاص في جانب** يكسبه احترام قومه، **والمحافظة على** آداب **وعادات قومه كي يشعروا بانتمائه إليهم، فيحترموا** آراءه، وهو يدعو العالم إلى سلوك يقرّبه من قلوب الناس، لذلك عليه أن يقلل الاختلاط بهم ولا يصاحب الممقوت

عـندهم، ويدعـوه إلـى أن يلتزم جانب الحذر، فيحرص على الإقلال في بيان آرائه، وأن يتباعد ما أمكنه عن مقاربة المستبد وأعوانه، كما يحذر الكواكبي من استخدام الشدّة في مقاومة المستبد، وأن يلجأ العالم إلى التدرج عن طريق التعليم والتحمـيس حـتى يتم اقتناع الناس بالفكر غير المألوف، وبذلك يدعو إلى تهيئة الأذهان لرفض الاستبداد وإيجاد بديل له قبل لجوء المصلح إلى المقاومة.

كما ينبّه الكواكبي إلى أن معرفة الغاية شرط العمل، وأن المعرفة الإجمالية لا تكفـي العـالم لابـد مـن تعيين الهدف والخطة تعيينا واضحا موافقا لرأي الأكثرية(19) .

لا يلجـأ الكواكبـي في مقاومة الاستبداد إلى الجانب التنظيري فقط، الذي يـبدو أكثر سهولة بالمقارنة مع التفكير في الجانب العملي والإجرائي لمواجهة الاستبداد.

وبذلـك يحمّل المثقف مسؤولية المواجهة، وتنوير عقول العامة، وقد كانت الخطوة العملية الأولى الاستماع إلى آراء الآخرين، إذ لا يحق للعالم، مهما بلغ مـن العلم، أن ينفرد برأيه، أي أن يمارس خطة أو يحقق هدفا بمعزل عن مبدأ الشورى، إذ إن تغيير الاستبداد لن يتم باتخاذ قرار فردي، حتى لو كان صاحب هذا القرار عالما، فإنه لا يستطيع، لدى الكواكبي، الاستغناء عن رأي الجماعة.

كمـا أنـه يطالـب الرائد العالم الذي يتصدى لعملية تنوير أمته بأن يكون متمـتعا بأخلاق رفيعة، تقرّبه من قلوب الناس وعقولهم، وهذا كله لن يتحقق له ما لم يعش بعيدا عن المستبد، فيصبح عندئذ أن يكون مثلا أعلى لهم، يؤثّر فيهم دون إملاء أو إكراه.

ولكن كيف ينوّر المثقف العوام؟

يوضـح الكواكبـي أن على رجل العلم أن يكون طبيبا في اعتنائه بالعوام، فيـبدأ اهتمامه بقوة جسم المريض، ثم يكون إرشاده متناسبا مع حجم الغفلة التي يعانـي منها، فالساهي ينبهه الصوت الخفيف، والنائم يحتاج إلى صوت أقوى، والغـافل يلزمه صياح وزجر والعوام "**من هذا النوع الأخير، يقتضي لإيقاظهم الآن بعـد أن نـاموا أجـيالا طويلة دون أن يسقيهم النطاسي البارع مرا من الزواجـر والقـوارص**"(20) من أجل يقظتهم وتنوّير عقولهم، ليستطيعوا رؤية الحقـيقة ويقـارعوا الاسـتبداد على أسس سليمة، نلاحظ هنا كيف تميزت لغة الكواكبـي بجمالـية الصـورة البصـرية والحركيّة التي تستطيع تجسيد الفكرة

بحـــيوية، فحال العوام في الغفلة والجهل ليست واحدة لهذا شبههم بتدرج حالات الإنســـان الـــنائم (الساهي، النائم، الغافل) لذلك تحتاج كل حالة إلى لغة تتناسب قوتهـــا الحركـــية وشدة الغفلة، فمن نام طويلا لا بد له من دواء يقدمه له العالم (الطبيب) وقد أمعن الكواكبي في وصف هذا الدواء الذي جعله لغة قاسية تعتمد المرارة والزجر والقارص من القول، كل ذلك من أجل إيقاظهم من غفوتهم.

لـــن تكون مهمة العلماء سهلة في حربهم ضد المستبد، وفي سعيهم لإنارة طـــريق العـــوام نحو الحياة الكريمة والحرة، إذ يجتهد المستبد في إعاقة مهمتهم هذه، لذلك يبدو الطرفان (العلماء والمستبد) يتجاذبان العوام كل إلى جانبه.

وقـــد بيّن الكواكبي أن هوية هؤلاء العوام هي الجهل، الذي يولّد الخوف، ومن ثم الاستسلام للمستبد، أما حين يتعلم العوام فإنهم يكتسبون الجرأة في القول ومن ثم الفعل، مما يخيف المستبد، لأن ذلك إنذار بزوال استبداده.

تـــبدو لـــنا الصورة الفنية جسرا أساسيا لإيصال أفكاره، لذلك نجده يوضح العلاقة بين المثقف والرعية من العوام عبر التشبيه المؤثر التالي "**العـــوام صبية أيتام نيام، لا يعلمون شيئا، والعلماء هم أخوتهم الراشدون، إن أيقظوهم هبوا وإن دعوهم لبّوا، وإلا فيتصل نومهم بالموت.**"

تدهشنا هذه الصورة ذات الدلالات الدينية والإنسانية (العوام: يتامى صغار هـــم بـــأمس الحاجة لرعاية أخوتهم الناضجين من العلماء) ومثل هذه الصورة ترسم أو بالأحرى تؤسس لعلاقة أخوية بين المثقف والعوام، فإن لم يمارس هذا المـــثقف دوره التـــنويري، فإن النتيجة ستكون وخيمة، سيستمر نوم العوام الذي هـــو أشبه بالموت، وبذلك تصبح حياة العوام في فاعليتهم الفكرية التي لن تكون إلا إذا مـــارس المـــثقف دوره فـــي يقظتهم أي في تعليمهم كي يستعيدوا وعيهم وكرامتهم، فينبذوا خوفهم.

ويوضح الكواكبي للمثقف بأن مهمته لن تكون سهلة، سيجعله المستبد يدفع ثمن هذا الدور التنويري غاليا، قد يتعرّض للمطاردة والتنكيل من قبله، فيضطر للهجرة من دياره، وهذا ما حصل لكل الأنبياء والعلماء العظام والأدباء النبلاء.

لـــن يكـــون هذا الاهتمام بالعلم والمعلم (المثقف) والعلاقة بينه وبين العامة حكـــرا علـــى الكواكبي، وإنما سمة أساسية لدى مفكري عصر النهضة، فسعادة الأمـــة ورقـــيها، كمـــا يرى جمال الدين الأفغاني، أن يكون فيها طائفة تختصّ بالتعلـــيم وتـــنوير العقـــول بالمعـــارف الأصيلة، إذ إن أهم الأركان في الديانة الإســـلامية تنصيب المعلم ليؤدي عمل التعليم، وإقامة المؤدّب الآمر بالمعروف

والناهي عن المنكر(21) وبذلك يجتمع لدى المسلمين في رجل واحد المعلم والمربّي ورجل الدين.

العلاقة مع الغرب:

لاحظ الكواكبي، مع نهاية القرن التاسع عشر، عداء الغربيين للمسلمين واحتلالهم أرضهم (مصر، شمال إفريقيا،...) وفي الوقت نفسه لاحظ محاولتهم استمالة العرب من غير المسلمين، وادّعاء حمايتهم من الاضطهاد العثماني، وفي رأي الكواكبي أن العلاقة بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب لم تشبها أية شائبة إلا حين تدخل الغربيون، لهذا يدعو العرب باختلاف أديانهم للتفاهم، ونجده يبحث عن نقاط مشتركة تجمع بينهم: أهمها اللغة الفصيحة التي وحّدتهم عبر الأجيال بالإضافة إلى الأخوة، يخاطبهم قائلا "**دعونا ندبّر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط، دعونا نجتمع على كلمات سواء ألا وهي: فلتحي الأمة، فليحي الوطن، فلنحي طلقاء أعزاء...أليس العربي أخفّ استحقارا لأخيه من الغربي؟**

هذا الغربي قد أصبح ماديا لا دين له غير الكسب، فما تظاهره مع بعضنا بالإخاء الديني إلا مخادعة وكذبا، هؤلاء الفرنسيس يطاردون أهل الدين، ويعملون على أنهم يتناسونه، بناء عليه لا تكون دعواهم الدين في الشرق، إلا كما يغرّد الصياد وراء الأشباك ! لو كان للدين تأثير في الغربي لما كانت البغضاء بين اللاتين والسكسون...

الغربي مهما مكث في الشرق لا يخرج عن أنه تاجر مستمتع، فيأخذ فسائل الشرق ليغرسها في بلده التي لا يفتأ يفخر برياضها ويحنّ إلى أرباضها.

قد مضى على الهولنديين في الهند وجزائرها، وعلى الروس في قازان، مثلما أقمنا في الأندلس، ولكن ما خدموا العلم والعمران بعشر ما خدمناهما"(22).

يتلمس المرء هنا وعي الكواكبي خصوصية بلاد الشام في كونها يعيش فيها أتباع ديانات مختلفة، وقد لاحظ استغلال الغربيين للمسيحيين فادّعوا حمايتهم من المسلمين، فنجده يبحث عن عوامل داخلية توحّد بين المسلمين والمسيحيين (اللغة العربية) وعن عوامل خارجية (احتقار الغربيين للعرب سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين)

ولـــو تأملنا لغة الخطاب الذي استخدمه في حواره مع المسيحيين للاحظنا أن الكواكبـــي قد استخدم لغة النص المقدس الذي يقوي أواصر المحبة (كلمات سواء) فيبعد الضغينة عن القلوب ويوقظ المحبة والتفاهم بلغة القرآن الكريم "**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم**"(سورة آل عمران، آية 64).

إنـــه يخاطبهم بلغة دينية تعدّ المؤثر الأكبر في حياة عامة المسلمين، وبذلك يؤسس للتقارب بينهم وبين المسيحيين على أسس دينية، عبر ما يظنه الغربيون مفـــرّقا بيـــنهما، هـــذا من جانب ومن جانب آخر يكون خطابه أكثر تأثيرا في الـــنفوس وإقناعا لعقول كلا الطرفين، فيبيّن للمسلمين أن القرآن يأمرهم بالعدل والتفاهم مع إخوانهم من أهل الكتاب، ثم يبيّن للمسيحيين الذين لا يعرفون تعاليم الإســـلام أن دســـتور المسلمين (أي القرآن الكريم) يأمرهم بالتفاهم القائم على المـــودة والعـــدل مـــع أهل الكتاب، كذلك نجده يتوجه صراحة إلى المسيحيين بخطابـــه، كي يبرز لهم نذالة الغربيين الذين يدّعون حماية المسيحيين، وهم في الحقـــيقة علمانـــيون لا دين لهم في بلادهم، ولو كان للدين تأثير في حياتهم لما تصـــارعوا وهم أبناء الدين الواحد بسبب اختلافهم العرقي (الصراع بين اللاتين والسكسون) .

إذاً الغـــرب يشوّه الدين و يجعل منه مصيدة يصيد بها أبناء الشرق ليزرع الفـــرقة بيـــنهم، مســـتفيدا من ضعفهم، وهو يؤكد أن نجاح سياسة الإنكليز في المســـتعمرات كان سببه انقسام الأهالي على أنفسهم بسبب اختلافهم في الأديان والمذاهـــب، فهو يؤكد بطريقة غير مباشرة ضرورة وحدة العرب بكافة أديانهم ومذاهبهم.

نجـــد الكواكبـــي منذ وقت مبكر يفضح حقيقة الغربيين وأن ما يسيّرهم في علاقـــاتهم مـــع العرب وغير العرب، هو مصالحهم التجارية والاقتصادية، فهم ينهـــبون خـــيرات الآخريـــن ليتمتعوا بها في بلادهم، ولا ينسى أن يذكّر بمآثر العـــرب في الأندلس، فيظهر الفرق بين إنجازات العرب المسلمين في الأندلس والغربيـــن في مستعمراتهم، فقد نشر المسلمون الحضارة، في حين نشر هؤلاء الغربـــيون الدمار والضعف في مستعمراتهم!! وقد كانت المقارنة بين الشرقيين والغربيـــن أحـــد هموم الكواكبي في كتابه "طبائع الاستبداد..." ليبين للعرب أن الغربـــي شـــريك للمســـتبد كاشـــفا القناع عن زيف دعواه في تمدين الشعوب المـــتخلفة، لذلك فإن استمرار الاستبداد في البلاد العربية يعني استمرار مصالح الغربيين.

المقارنة بين الغرب والشرق:

أحس الكواكبي بالهوة الكبيرة بين الغربيين والشرقيين لذلك يبدو لنا مشغولا بأسباب تخلفنا وتقدم الغربيين، وذلك عبر تلمس الفوارق الأساسية، فرأى أن هناك فارقا أساسيا بين الغربيين والشرقيين في مجال الاستبداد، فالمستبدون الغربيون "**يعينون الأمة على الكسب ليشاركوها، والشرقيون لا يفتكرون في غير سلب الوجود**" وقد لاحظ الكواكبي أن الاستبداد الغربي أحكم وأرسخ وأشد وطأة، ولكن مع اللين، كما لاحظ فارقا مهما له أهمية في مستقبل الاستبداد، إذ إن الغربيين حين يثورون ضد الاستبداد نجدهم يستبدلونه بحكومة عادلة، أما الشرقيون فلا يفكرون بالمستقبل، ينصرفون إلى الآخرة، وحين يقاومون الظالم نجدهم لا يفكرون بمن يخلفه، فيقعون في الظلم ثانية، على نقيض الغربيين الذين يقضون على المستبد قضاء مبرما لاعتمادهم النظرة المستقبلية، في حين نجد الشرقيين أسلموا دنياهم إلى آخرتهم فسهل عليهم الاستسلام للاستبداد.

لذلك يصف الكواكبي الشرقي بأنه ابن الماضي والخيال، أما الغربي فهو ابن المستقبل والجدّ، وهو مادي، قويّ النفس، حريص على الاستئثار والتملك، يرى الفضيلة في القوة، وكل القوة في المال، في حين يغلب على أهل الشرق ضعف القلب وسلطان الحب والإصغاء للوجدان، ويرون العزّ في المروءة، والغنى في القناعة والفضيلة والراحة في الأنس والسكينة.

وقد وجدناه يضع يده على علة الضعف فينا، إنها إلغاء العقل واعتماد الحس والعاطفة، فبيّن أن الشرقي سريع التصديق يحكم بإحساسه، والغربي لا ينفي ولا يثبت حتى يرى ويلمس فيحكم بعلمه وعقله، كما يبيّن المفهوم الضيق للشرف لدى الشرقي، فهو أكثر ما يغار على الفروج كأن شرفه كله مستودع فيها، في حين يبيّن أن الغربي أكثر ما يغار على حريته واستقلاله، والشرقي حريص على الدين والرياء فيه، في حين نجد الغربي حريص على القوة والعزّ والمزيد فيهما.

وهكذا استبدل الغربيون بوقار الدين عروس الحرية، واستبدلوا برابطة الاشتراك في الطاعة للمستبدين رابطة الاشتراك في الشؤون العمومية، مما يولّد حب الوطن، وبذلك جعلوا قوة حركة الأفكار تيارا سلطوه على الرؤساء السياسيين والدينيين.

ثم وجدناه يوضح أمرا مهما، يعدّ أبرز فارق بين الغربيين والشرقيين، هو أن الغربييـــن يضعون قانونا لأميرهم يسري عليه، على نقيض الشرقيين الذين يســـيرون على قانون مشيئة أمرائهم! لذلك كان قضاؤهم وقدرهم ما يصدر من شفتي المستعبّدين، أما الغربيون فقضاؤهم وقدرهم من الله.(32)

إن أزمـــة الشـــرقيين تكمـــن في إلغاء عقولهم، وتقديس الفرد المستبد إلى درجـــة يعدّون كل ما يتفوّه به مقدسا كأنه قضاء وقدر لا يرد، في حين لم ينسَ الغربيون أن مصدر القضاء والقدر الله تعالى لا علاقة لمخلوق فيه، وهنا يعود ثانية إلى تشوّه مفهوم القضاء والقدر لدى المسلمين الذي هو تشوّه في فهم الدين إذ تقدّس أقوال الحاكم لديهم، فيحولون أنفسهم عبيدا له مع أن العبودية لله وحده في الإسلام.

إن مثل هذه المقارنة بين أمة قوية متحضرة وأمة متأخرة ضعيفة قد تحبط المســـلمين، فيسري اليأس في نفوسهم، خاصة حين ينظرون إلى الماضي حيث كـــانوا أهل علم وحضارة وهذا ما لا يريده الكواكبي، وإنما يريد أن يحرضهم بطـــريقة غير مباشرة فيوّضح لهم كيف تجاوز الغربيون ضعفهم مع أنهم كانوا متأخريـــن مثلهم، لكنهم نهضوا في وقت ظننا دوام الحال فنمنا، في حين اجتّهد هـــؤلاء الغربـــيون فلحقونا، ولبثنا مصرين على النوم فاجتازوا وسبقونا، فعدنا إلـــى كهـــف النوم مستسلمين للقضاء والقدر، ناسين الأخذ بالأسباب، مما رسّخ اليأس في النفوس، فزادنا ضعفا على ضعف، وهذا ما يرفضه الكواكبي، ويريد مـــن أمته أن تتجاوزه كما تجاوزه الغربيون، لذلك يتوجه في خطابه إلى الشباب الذين هم القوة الحقيقية للتغيير والنهضة، وهم دعائم أية مواجهة مع الآخر الذي يهدف القضاء على كياننا وهويتنا.

ولكن كيف يواجه اليوم الشباب المسلم الغرب؟

وكـــي لا يشـــيع الـــيأس فـــي النفوس، يدعو الكواكبي الشباب المسلم إلى مواجهـــة الغرب، الذي بدأ يعتدي على البلاد الإسلامية، ويبيّن أن هذه المواجهة ميســـورة خاصـــة حين يعيش هؤلاء الشباب الحرية، ويكسرون قيود الاستبداد أولا، وهـــم لـــن يستطيعوا ذلك ما لم يجعلوا شعارهم جملة من المبادئ والقيم الراقية التي تتجلى في أخلاقهم وممارستهم.

وقـــد جعـــل **الصدق والصراحة وعدم الرياء في الدين** أولى المبادئ التي على الإنسان أن يجسدها "**ديني ما أظهر ولا أخفي**" ثم الوقوف إلى جانب الحق

مهما كانت العاقبة "**أكون حيث يكون الحق ولا أبالي**" وقيمة الإنسان وشرفه في العلم "**الشرف في العلم فقط**".

يسعى الكاتب إلى تكوين شخصية مستقلة للشباب المسلم تعتمد على ذاتها "**أنا مستقل لا أتكل على غير نفسي وعقلي**" عندئذ تحقق ذاتها بالجد والعمل وتؤمن بالمستقبل دون أن تتكل على الماضي "**أنا إنسان الجد والمستقبل لا إنسان الماضي والحكايات**" ولن تستطيع هذه الشخصية تحقيق استقلالها إلا إذا كانت لا تخاف أحدا من البشر "**أخاف الله لا سواه**" فتتحرر من الخوف الذي هو أقوى الرذائل وتواجه المستبد.

ويخبرنا، عبر استخدامه صيغة حميمة هي المتكلم، عن حقائق نسيناها في حين نهضت الحضارة الغربية على أسسها، فقد نسينا أن الإنسان أهم من الأشياء، لذلك يجب تسخير السلطة والقانون من أجله "**نفسي ومنفعتي قبل كل شيء**" وأن حقيقة الحياة تقوم على العمل الذي يورث السعادة "**الحياة كلها تعب لذيذ**" كذلك نجد الإنسان العربي مازال ينسى حقيقة من حقائق الحياة وهي الزمن، فيضيعه دون أي اهتمام على نقيض الغربي، فنجد الكواكبي يذكره **بأن "الوقت غال وثمين"** لأنه حقيقة الحياة.

إذاً يريد الكواكبي بناء شخصية جديدة للإنسان، تستطيع أن تنهض بأعباء حياتها المتخلفة. وتصنع التطور الحضاري الذي سبقنا إليه الغرب، لذلك يذكره بمبادئ وقيم نسيها بسبب المعايشة الطويلة للتخلف، ويبين للإنسان العربي أنه يملك إمكانات التطور فيما لو آمن بهذه القيم والأفكار وعمل بها.

نلاحظ أن الكواكبي قد استخدم صيغة المتكلم أثناء حديثه عن طريق الخلاص الذي على الشباب المسلم اتباعه، ومثل هذه الصيغة التي هي أقرب الصيغ إلى نفس المتلقي، والتي توحي بتوحد الكواكبي معه، فهو يريد أن يهذب نفسه ويرتقي بها، وبذلك يوحي للشباب أن ما ينقصه ينقصهم، لذلك سيبدأ بترميم ذاته، فيكون بذلك أقوى تأثيرا في نفس المتلقي، ويبتعد عن اللهجة التعليمية. ذات السمات الفوقية التي يلجأ إليها الوعاظ عادة في مخاطبة الشباب!

إذاً إن البداية الحقيقة لأي تغيير تكون بتغيير الذات أولاً، وهو بذلك يتبع المنهج القرآني في الإصلاح "**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**"(سورة الرعد آية رقم 11).

ولهذا يمكننا القول بأن الكواكبي تميّز عن غيره من المصلحين بقدرته على توظيف ثقافته الدينية وموهبته الأدبية من أجل ابتكار خطاب مناسب للعامة

ينهض بعقولهم وبوجدانهم معا!

بعد هذا كله نتساءل: "هل صحيح أن رواد النهضة بما فيهم الكواكبي كما يرى الأستاذ عدنان عويّد "**لم يتبنّوا الموقف الفلسفي العقلاني في الفكر التنويري الغربي الذي شكّل في الغرب لحمة المعتقد السياسي والفكري الليبرالي الغربي، لذلك ظل اللاهوت الديني يشكل حجر الزاوية في تفكيرهم، فجاءت الأفكار العقلانية في كتاباتهم، هنا، بناء على هذا الموقف الفكري، ذات طابع وصفي شكلاني، تفتقد إلى الروح الموضوعية"(24).**

لا نستطيع أن نقبل هذا القول، فقد اتسم فكر الكواكبي بالعقلانية، رغم اعتماده على الموروث الديني، فقد لاحظنا كيف وظّف الفكر الديني لصالح الحرية والتطور، كما لا نستطيع أن نقول: إن مواقفه الفكرية تتسم بالوصفية والشكلانية وغير الموضوعية، فقد رأيناه يسعى إلى بناء أمة جديرة بالنهضة، فيبدأ ببناء إنسان جديد، يقاوم الاستبداد، عن طريق غرس مبادئ النهضة في أعماقه، وهي قيم الحرية والعمل والعلم والجرأة في قول الحق ونزع فتيل الخوف من النفوس، كيف نستطيع أن نتهمه بعدم الموضوعية وقد خاطب الناس بلغة يفهمونها ويقدسونها، لغة الدين الإسلامي، محاولا إحياءهم بما يمتلكون من إمكانات داخلية تهجع في ذواتهم دون أن ينتبهوا إليها، بل يراها البعض، أمثال الأستاذ عويد، من أسباب تخلفنا وضعفنا.

بالإضافة إلى ذلك كله لجأ إلى فضح أهم عوامل القهر والتخلف (المستبد، أعوانه، وسائله المدمرة...) فحاول أن يشخص الداء ويقترح الدواء.

أعتقد أن المشكلة ليست في الفكر الذي طرحه رواد النهضة، وإنما في عدم استمراره لدى المفكرين المعاصرين، إذ غلب عليهم التقليد لفكر الآخر الذي يرى في الفكر الديني نقيضا للتطور والعقلانية!! وكذلك في عدم وجود قوى سياسية واقتصادية تتبنى هذا الفكر وتحاول تجسيده على أرض الواقع، وبذلك لم يحظ فكر النهضة بالرعاية والتنمية، لذلك من الملاحظ أننا ما زلنا عالة على هذا الفكر ولم نطوّره، بل في كثير من الأحيان نكصنا مرتّدين عنه!!

تتجلى لنا قوة تأثير الكواكبي في كتابه "طبائع الاستبداد" ليس في البلاد العربية وإنما في البلاد الإسلامية أيضا، ففي كتاب الشيخ محمد حسين النائيني "تنبيه الأمة وتنزيه الملة"(1909) استطاع أن يصوغ أفكار الكواكبي في الاستبداد وضرورة الإصلاح، مستندا إلى المرجعية الإسلامية نفسها في مكافحة الاستبداد (القرآن. الحديث...) والذي يؤكد "تأثر الشيخ النائيني بفكر السيد

الكواكبـــي هـــو استخدامه لنفس مصطلحات كتاب طبائع الاستبداد، مع ترحمه علـــى من قسّم الاستبداد إلى استبداد سياسي وآخر ديني"(25) (أي ترحّمه على الكواكبي) .

تأملات في جماليات الخطاب الأدبي لدى الكواكبي:

لاحظـــنا، ســـابقا، كيف خاطب الكه اكبي المتلقي بكل ما يملك من أدوات فكـــرية وفنـــية تؤثر في عقله وقلبه موّظفا مقدرته الأدبية في خدمة أفكاره، من أجـــل أن يؤثر بالمتلقي من ناحيتي الفكر والوجدان، فيكون تأثيره عندئذ أعمق وأنفذ.

لجـــأ الكواكبـــي إلـــى الخطاب الأدبي ليستعين بأمضى الوسائل في حياة الإنسان العربي وأعرقها في وجدانه، إذ بفضلها يستطيع إيقاظ قومه واستخراج كـــنوز وعـــيهم وهـــزّ مشـــاعرهم ونزع الألفة عن حياة ذليلة، فلجأ إلى "**اللوم الإرشـــادي**" على حد قوله، كي يبيّن لهم أنهم خلقوا لغير ما هم عليه من الصبر علـــى الـــذل والسفالة، فيذكرهم ويحرك قلوبهم بلغة العقل التي يقدمها بطريقة تصويرية تمنح فكرته الحيوية والتأثير تارة، وساخرة تشيع المرارة في النفوس وتستفزّ الضمائر تارة أخرى، وذلك حين يقوم بتضخيم الحالة البشعة التي عليها الإنسان المتخلف.

لـــو تأملنا التصوير لديه للاحظنا كيف تتألق الفكرة بفضله، فتشعّ وضوحا وحـــيوية وغـــنى في الدلالة، فها هو ذا يصف الإنسان العاجز الذي لا يقوم بما يصـــلح له، ويرضى أن يعيش حقيرا مهانا بـــ"**الدرن في الجسم أو كالزائد من الظفر يستحقان الإخراج والقطع**".

إن مـــثل هذه الصورة للإنسان العاجز لا تزيد المعنى وضوحا فقط، وإنما تستفزّ المتلقي إذ تجسّد له بشاعة حالته المستكينة (تنتزع إنسانيته وتحوله إلى ما يشـــبه بالدرن أو الظفر) وبذلك تحرضه على النفور من حالته وتجاوزها! (عن طـــريق الإخراج والقطع) لأن الحفاظ على الجمود وعدم التطور يعني استحقاقا للمـــوت، فقد بات هذا الإنسان الجامد مسيئا إلى أمته يعيش عالة عليها، بل هو أحد أسباب مواتها.

وقد وجدناه يحدد وظيفة المثقف التنويرية، إذ من واجبه أن يسعى في رفع قـــيود الضـــغط عن العقول لتنطلق في النمو "**فتمزق غيوم الأوهام التي تمطر المخـــاوف**" لذلك يشبه المثقف بالطبيب الذي من واجبه الاعتناء بجسم المريض

ثــم بعقله، ليتم القضاء على مسببات الموت (الأوهام، المخاوف) وإعادة الحياة (الغــيوم، المطــر) إلــى الإنسان، ولعل استعانة الكواكبي بعناصر الطبيعة في تكوين الصورة منحها جمالا خاصا ذا دلالات إيجابية.

بالإضــافة إلــى عناصر الطبيعة يلجأ في التصوير إلى عناصر يستمدها من الموروث الديني (سورة الكهف) مما يمنح خطابه التحريضي فعالية أكبر، لهذا بدت لــنا تتشــبيهاته قاسية تستفزّ المتلقي وتحرضه على تغيير أوضاعه الذليلة، فقد طال نــوم قومه، لهذا يخاطبهم قائلا **"هل أنتم كأهل الكهف ناموا ألف عام ثم قاموا وإذا بالدنيا غير الدنيا والناس غير الناس، فأخذتهم الدهشة والتزموا السكون"** .

ونجــده يحاول أن يستفزّ قومه عبر أسلوب المقارنة **"فما بال الرجل منكم يضــع نفســه مقام الطفل الذي لا ينال من الكبير مراده إلا بالتذلل والبكاء، أو موضع الشيخ الفاني الذي لا ينال حاجته إلا بالتملّق والدعاء؟!...**

يــا قــوم جعلكم الله من المهتدين، كان أجدادكم لا ينحنون إلا ركوعا لله، وأنــتم تســجدون لتقبــيل أرجــل المنعّمين ولو بلقمة مغموسة بدم الأخوان، وأجدادكم ينامون في قبورهم مستوين أعزاء وأنتم-أحياء معوجة رقابكم أذلاء! الــبهائم تــود لــو تنتصب قاماتها وأنتم من كثرة الخضوع كادت تصير أيدكم قوائم..."(26)

نلاحظ أن الكواكبي يختار عناصر تشبيهاته ذات الدلالات السلبية (الطفل، الشــيخ، البهائم...) مما ينــزع الرجولة والكبرياء عن قومه، فيفرغ قومه من الــدلالات الإيجابــية! لذلك لم يجد صورة تجسد ضعف قومه وبؤس حالتهم إلا صورة الطفل العاجز الذي ينال حاجته بوسائل وضيعة تتناسب مع حالة عجزه! وكذلــك صــورة الشــيخ الذي لا يجد سوى التملّق وغيره من الوسائل التافهة لمتابعة عيشه الذليل.

ولكن من أجل أن يبيّن أن هذه الحالة ليست حالة أزلية تلازمهم، ومن أجل أن يــبلغ اســتفزازه مــداه نجده يقارن بين حالة أجدادهم الذين صنعوا حضارة وأمجــادا (لا يعظمــون أحدا سوى الله، كرامتهم أهم من حياتهم) وبين حالتهم الراهنة (الذل أمام الأغنياء والمستبدين، غير مهتمين بقيم العزّة والكبرياء)

وقــد اخــتار ألفاظــا تنتمــي للمــوروث الديني وتجسيد عبادة تعدّ عمود دينهم (الصــلاة) فاســتخدم أركانهــا (الركوع، السجود) في تجسيد حالة العبودية لغير الله تعــالى! إذ إن صــلاة المسلمين، الأذلاء أفرغت من مدلولها الديني وباتت دنيوية، فلم تعد توجه لله، وإنما صارت توجه للأغنياء المستبدين، وهذا منتهى الكفر في الإسلام.

وهو لا يكتفِ بتشبيه قومه بإنسان انتزعت منه الرجولة، بل نجده يجسّد حالتهم بتشبيه أكثر استخفافا واستفزازا، فيشبههم بالبهائم، تعبيرا عن ضيقه من بؤس حالتهم التي وصلت إلى هذا الحد البهيمي، بل نجده يرى أن البهائم أكثر طموحا من قومه، إذ قد تأتي ببعض الأفعال محاولة رفض حياتها الذليلة، في حين يستمرئ هؤلاء حياة الذل، لذلك لا يرى أنهم يستحقون أعضاء بشرية تليق بالإنسان العزيز، فجعل أعضاءهم تحاكي أعضاء الحيوانات حتى بدت أيديهم قوائم، حين فقدوا كرامة البشر، وأصبحوا عالة على الوجود الإنساني، إنهم بذلك قد بلغوا أسوأ حال، فأتلفوا ما ورثوهْ عن السلف، لذلك يفضل الكواكبي عليهم العجماوات التي استطاعت أن **"تنقل رقيّها إلى نسلها بأمانة"**.

يبدو لنا أن تكرار تشبيه قومه بـ(البهائم والعجماوات...) من أجل تحفيزهم وتذكيرهم بالحالة المتردية التي وصلوا إليها، فقد أصبحوا عالة على الإنسانية، حتى إن الحيوانات تعيش حياة أفضل من حياتهم، إذ تحاول تطوير حياتها!!

وبعد أن يستفزّ قومه بتشبيهاته القاسية، التي تجسد مأساوية وضعهم وبشاعة تخلفهم، نجده يعمد إلى الحوار الهادئ معهم مستخدما التشبيه البسيط، فنجده يشبه حالة قومه المستسلمين للمستبد بإنسان يوكل أموره إلى وكيل يعيث فسادا فيما وُكّل به مِن أمور مادية ومعنوية **"هل ترون أثرا للرشد أن يوكل الإنسان عنه وكيلا ويطلق له التصرف في ماله وأهله، والتحكم في حياته والتأثير على دينه وفكره، مع تسليف هذا الوكيل العفو عن كل عبث وخيانة وإسراف وإتلاف؟... هل خلق الله لكم عقلا لتفهموا به كل شيء، أم لتهملوه وكأنه لا شيء "إن الله لا يظلم الناس شيئا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون"..."(27)**

عبر هذا التشبيه البسيط، الذي هو أقرب إلى لغة التعامل اليومي، حيث يسلم الإنسان وكيله كل ما يملك، على الصعيدين المادي والروحي، دون أية محاسبة، لذلك يعدّ مسؤولا عن انحرافات هذا الوكيل، وهو عبر هذا المثل يجسّد حال أمته مع المستبد، فيلقي بمسؤولية الانحطاط على أمته، ولا يلقيها على الآخرين، إذ وكلت أمورها للمستبد، وأطلقت يده العابثة دون أي حساب، ومما زاد حجته قوة استخدامه التناص الديني وذلك باقتباس آية من القرآن تحمّل المسلمين المسؤولية في ترديهم، كما زاد حجته قوة وتأثيرا استخدامه التشبيه والحوار، وبذلك يجند كل وسائل الإقناع، فيلجأ إلى الدينية (القرآن الذي هو أعلى حجة لدى المسلمين) والأدبية (التشبيه) والمنطقية (الحوار...) لعله

يجد جسر تواصل بينه وبين قومه.

لو تأملنا اللغة المستفزّة لدى الكواكبي لوجدناها تعتمد بالإضافة إلى التشبيه الاستفزازي (حيث يشبه الناس بالحيوانات والأطفال...الخ) لغة التضاد التي تجسد دلالاتها أبرز حالتين متناقضتين يمكن أن تصادف الإنسان (الحياة والموت) ليصل في النهاية إلى إعلان موت قومه "**يا قوم! ينازعني والله الشعور هل موقفي هذا في جمع حي فأحييه بالسلام أم أنا أخاطب أهل القبور فأحييهم بالرحمة؟ يا قوم لستم بأحياء عاملين. ولا أموات مستريحين! بل أنتم بين بين!! في برزخ يسمى التنبّت، ويصح تشبيهه بالنوم! يا رباه! إني أرى أشباح أناس يشبهون ذوي الحياة وهم في الحقيقة موتى لا يشعرون، بل هم موتى لأنهم لا يشعرون**" .

وإن كنا قد لاحظنا سيطرة لغة الموت الحقيقي (القبور) والوهمي المجازي (النوم) على نصه هذا، مما يوحي بحالة أمته، لهذا بدا لنا تساؤله تساؤلا استنكاريا! الغاية منه تحريض المتلقي للبحث عن وسائل تحيي وجوده، وتمنحه شهادة الحياة، عوضا عن شهادة الموت، إنه يريد أن يحرّضه ليرقى بنفسه من حياة أشبه بحياة الحيوان! أي من حياة هي نوم لا يقظة فيه، هي رديف حقيقي للموت!!

ولو تأملنا لغته المستفزّة للاحظنا اعتمادها لغة السخرية، فقد وصل الأمر بقومه إلى الخوف من ظلّهم بل يخافون قوتهم التي يملكونها، فيجيّشون الجيوش من أنفسهم ليقتلوا بعضهم بعضا، ويترامون على الموت خشية الموت، ويحبسون، طول عمرهم، فكرهم في الدماغ، ونطقهم في اللسان وإحساسهم في الوجدان، لذلك يخاطبهم قائلا: "**فما بالكم يا أحلاس النساء مع الذل تخافون أن تصيروا جلّاس الرجال في السجون**(28).

تجسد هذه العبارة غاية السخرية من قومه الذين يفضلون ملازمة نسائهم في بيوتهم أذلاء على مجالسة الرجال موفوري الكرامة، يسخر من خوفهم من السجن ومن مواجهة عقاب المستبد!!

لا شك أن قومه يستحقون السخرية حين لا يستجيبون لخطابه الذي يرشدهم إلى طريق التطور "**يا قوم: جعلكم الله خيرة اليوم وعدة الغد، هذا خطابي إليكم. فيما هو الترقي، وما هو الانحطاط، فإن وعيتم ولو شذرات فيا بشراي والسلام عليكم وإلا فيا ضياع الأنفاس وعلى الرفاة السلام.**"(29)

إن خطابه لن يوحي لأمته باليأس وانما سيضعها على مفترق طريق تختار

فيه بين السير في طريق الحياة أو طريق الموت، وقد عبّر عن مرحلة الاختيار هــذه بمصطلح رأيناه في فقرة سابقة يدعوه بــ(**التبنت**) وهو يشير إلى إمكانية بــزوغ الحياة من الموات، لذلك نجده يمنحهم الأمل في النهضة، ويضعهم أمام فرصـــة الاختـــيار الأخـــير بيـــن الحياة والموت، وبذلك يمنحهم القوة الداخلية والإرادة، فيرشـــدهم إلى كيفية البزوغ في طريق الحياة من جديد، فلا يسمحون لأقـــدام المستبدين أن تدوسهم، لذلك من سيختار طريق الحياة والنهوض يستحق منه السلام، أما أولئك الذين لن يفهموا هذا الخطاب فهذا دليل على أنهم مازالوا أمواتا فالسلام يوجه إلى بقايا جثثهم في القبور .

لعــل الصورة المدهشة التي لا يمكن أن تبرح الذهن: هي تجسيد الاستبداد فـــي صورة رجل يحتسب وينتسب ويتكلم مفتخرا **"أنا الشرّ وأبي الظلم، وأمي الإســـاءة، وأخـــي الغدر، وأختي المسكنة، وعمي الضرّ، وخالي الذلّ، وابني الفقـــر، وابنتي البطالة، وعشيرتي الجهالة، ووطني الخراب، أما ديني وشرفي وحياتي فالمال المال المال".**

وبذلـــك تجـــتمع فـــي نســـب الاستبداد كل الرذائل ولا يخلف سوى الفقر والبطالة، مع الاستبداد تلغى كل القيم التي ترقى بالحياة الإنسانية، فيختزل الدين والشـــرف إلـــى شيء واحد (المال) هو هاجس المستبد، وبذلك يمنح الاستبداد صـــورة رجـــل لا يعـــرف نسبا سوى مساوئ الأخلاق، ولا يقوم بعمل سوى الدمار ولا يقتدي بقيم سوى الجهل والذل، ولا يؤمن بدين أو شرف سوى المال!

أعـــتقد أن التعبـــير الأدبي لدى الكواكبي كان ملتحما بوعيه الفكري، مما يعني أننا أمام موهبة أدبية أصيلة ازدهرت عبر التحامها بالمعاناة الفكرية، كما تألقـــت الفكرة حين نسجت بلغة أدبية، مما يجعلها أكثر تعبيرا وأكثر تأثيرا في الوقت نفسه، فعلى سبيل المثال يريد أن يحدثنا عن الحكومة المستبدة و علاقتها بتخلف الشعب فلا يجد وسيلة لتقديم أفكاره سوى هذه الصورة **"الأقوام كالآجام، إن تركت مهملة تزاحمت أشجارها وأفلاذها، وسقم أكثرها، وتغلب قويها على ضـــعيفها فأهلكـــه، وهـــذا مثل القبائل المتوحشة، وإن صادفت بستانيا يهمه بقاءهـــا وزهوها فدبّرها حسبما تطلبه طباعها، قويت وأينعت وحسنت ثمارها، وهـــذا مثل الحكومة العادلة، وإذا بليت ببستاني جدير أن يسمى حطّابا لا يعنيه إلا عاجل الاكتساب، أفسدها وخرّبها، وهذا مثل الحكومة المستبدة"(30)**

للوهلـــة الأولـــى يتساءل المرء ما علاقة الناس بالغابات؟ فيكتشف أهمية الإنســـان الـــذي يهمـــه الارتقاء بالأشجار، فيعمل على تقليمها وإزالة الأعشاب

الضـــارة مـــن حولها، لكن خيال الكواكبي لا يبقى محصورا في تفاصيل تشبيه يـــتعلق بالنـــبات، بل ينطلق إلى تفاصيل مشهدية أكثر غنى وإدهاشا، فقد جعل للنـــبات طـــبائع الإنســـان "**فدبّرها حسب ما تقتضيه طباعها**" ليبين أن البستاني الـــناجح كالحاكم العادل الذي يسوس أمته دون إكراه أو استبداد حسب احتياجات تقتضـــيها طباع رعيته، ويمعن الكواكبي في تفصيلات الصورة فيستشرف آفاقا جديـــدة لهـــا، لذلـــك يقدّم لنا مشهدا بصريا يجسد لنا كيف يتحول البستاني إلى حطّـــاب حين لا يهمه سوى قطع الأشجار وكسب المال، فيحلّ الدمار، وهذا ما تفعلـــه الحكومة المستبدة التي يهمها النهب والتدمير لا العمل والرعاية، وهذا ما يحـــيل الحـــياة المدنـــية إلى ما يشبه الحياة البدائية المتوحشة حيث القوي يأكل الضعيف!

وهكـــذا جنّد الكواكبي موهبته الأدبية لخدمة أفكاره التنويرية، علّه يستطيع أن يؤثـــر فـــي المتلقي ويحرز تفاعلا بينه وبين الأفكار التي يطرحها في كتابه "طـــبائع الاســـتبداد" كما جنّد من أجل هذا التفاعل ثقافته الواسعة والمتميزة في مجـــال التراث الديني (قرآن، حديث، سيرة، أقوال آل البيت والصحابة...) بل لاحظنا استفادته من الثقافة الغربية المعاصرة له والقديمة أيضا.

أخيرا يحسن بنا أن نشير إلى القفزة الرائعة التي حققتها اللغة العربية على يديه، فقد تخلّت عن قوالبها الجامدة وزخرفها،ونبذت صنعتها التي تزيف القول، فـــبدت لغـــته نابضـــة بالحرارة والحيوية في زمن طغت الزخرفة اللفظية على الأدبـــاء والمؤرخيـــن، ولاشـــك أن لمعاناته التي تكاد تكون يومية في مقارعة الاســـتبداد في الحياة العامة، وفي الصحافة أكسب لغته هذه الحيوية والحرارة، فبدت لغة الفكر متعانقة مع لغة الجمال الفني بكل ما تعنيه من تخييل وتصوير، مما يجعل الكلمة لديه تخاطب العقول والقلوب معا، فيزداد تأثيرها في الإنسان، خاصة أنها تخاطبه بما يؤسس وجدانه من موروث ديني وشعبي.

حـــتى الســـجع الذي كنا نلحظه، أحيانا، في لغته فإنه كثيرا ما يأتي عفو الخاطر، مما يضفي على أسلوبه جمالا في الإيقاع ينسجم مع عمق الفكرة لديه، دون أن يشكل عائقا تعبيريا لديه.

* * * *

الحواشي :

1. "الأعمال الكاملة للكواكبي "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" إعداد وتحقيق محمد جمال الطحان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1995، ص 432.
2. جان دايه "صحافة الكواكبي" مؤسسة فكر للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 1984، ص 99_115 بتصرف.
3. المصدر السابق، ص 438.
4. المصدر السابق نفسه، ص 469.
5. نفسه، ص 469_470.
6. نفسه، ص 440.
7. نفسه، ص 441.
8. نفسه، ص 465_466 بتصرف.
9. نفسه، ص 485.
10. نفسه، ص 503_504 بتصرف.
11. نفسه، ص 444 بتصرف.
12. نفسه، ص 450.
13. الأعمال الكاملة "أم القرى" ص 291.
14. الأعمال الكاملة "طبائع الاستبداد ..." ص 498.
15. المصدر السابق، ص 514.
16. المصدر السابق نفسه/ ص 507_508.
17. نفسه، ص 461 بتصرف.
18. نفسه، ص 458.
19. نفسه، ص529 بتصرف.
20. نفسه، ص 509.
21. محمود أبو رية جمال الدين الأفغاني ، سلسلة نوابغ الفكر العربي (29) دار المعارف بمصر، دون تاريخ، ص 109.
22. الأعمال الكاملة "طبائع الاستبداد ..." ص 515_516.
23. المصدر السابق، ص 491 بتصرف.
24. عدنان عويد "إشكالية النهضة في الوطن العربي من التوابل إلى النفط" دار المدى، دمشق، ط1، 1997، ص96.

25. ماجد الغرباوي "الشيخ محمد حسين النائيني" سلسلة رواد الإصلاح (4) قم، ط1، 1999 ، ص 106.
26. الأعمال الكاملة "طبائع الاستبداد ..." ص 511_512.
27. المصدر السابق، ص 510_ 511.
28. المصدر السابق نفسه، ص 510.
29. نفسه، ص 519.
30. نفسه، ص486 .

■ ■

إلى الباحث جان دايه

أهدي هذا البحث تحية لجهوده، إذ لولاها لما كان



الكواكبي الصحفي الأديب

بـدا مـيل الكواكبي للصحافة منذ شبابه المبكر قبل أن يبلغ العشرين من عمره، فقد رأى فيها خير منبر يواجه عبره الفساد، وينشر الوعي للنهوض من بـؤس التخلف، بدأ عمله أو بالأحرى كفاحه في "الفرات" جريدة حلب الرسمية، التـي كانـت تصدر باللغتين العربية والتركية، حرّر فيها حوالي أربع سنوات (1872_ 1876) ثـم هجرها ليصدر صحيفة "الشهباء" (1877) التي تعدّ أول صـحيفة عربـية تصدر في حلب، وقد كانت أسبوعية تصدر كل يوم خميس، أوقفـتها السلطة العثمانية بعد صدور العدد السادس عشر بشكل نهائي، بعد أن أوقفـتها قبل ذلك مرتين، لكنه لم ييأس، فسارع إلى إصدار صحيفة "الاعتدال" باسم صديقه (شريف زادة سعيد) في عام (1879) وقد صدرت باللغتين العربية والتركـية بـناء علـى أوامر السلطة العثمانية، رغم ذلك أوقفتها الحكومة بعد صدور عشرة أعداد، وقد كان يحرّر وحده كل الجريدة كغيره من رواد النهضة ("أديب إسحاق" و"فرح أنطون"...).

رغـم هذه المعاناة لم يستطع التوقف عن الكتابة للصحافة، فعاد ليسهم في كـتابة المقـالات في الصحف والمجلات"القاهرة" و"نور الإسلام" بالإضافة إلى "المؤيد"(1899) و"المقطم" و"المنار" (1900) .

يمكن المرء أن يلاحظ أن الكواكبي كتب في الصحيفتين الأخيرتين مقالات ودراسـات أعدّها سلفا لتكون فصولا من كتابه "طبائع الاستبداد" أما أن تصبح هذه المقالات فصولا لكتاب "أم القرى" كما يرى الباحث "جان دايه"(1) فهذا ما لا يمكن أن نقبله، إذ من المعروف أن كتاب "أم القرى" ظهر عام (1898) قبل أن يكتب في صحيفتي "المؤيد" و"المنار" بل يقال أنه كتبه في حلب، وهرّبه معه إلى مصر ليطبعه فيها، إذ اطّلع عليه هناك صديقه المؤرخ (كامل الغزي).

ولـم يكـتف بالمشـاركة في الكتابة لهذه الصحف والمجلات، بل نجده قد أصـدر فـي القاهرة صحيفة العرب (1900) التي أوقفها الخديوي عباس، بعد

صـــدور ثلاثة أعداد، دون أن ندري المبرر السياسي لإيقاف هذه الصحيفة من قبله، مع أن القاهرة كانت عمليا خارج سلطة عبد الحميد، يضاف إلى ذلك كان الخديوي على علاقة جيدة مع الكواكبي(2).

قـد يكون للعلاقة التي بدأت بالتحسن بين الخديوي وبين السلطنة العثمانية أثـر في إغلاق هذه الصحيفة، كذلك يمكننا القول بأن الأفكار الجريئة والأصيلة التي يطرحها الكواكبي عبر مقالاته من شأنها أن تقلق أي حاكم!

لِمَ لجأ الكواكبي للكتابة الصحفية:

نلاحظ إصرار الكواكبي على الكتابة الصحفية، سواء في صحف الآخرين أم فـي صـحف يملكهـا ويديـرها ويحرّرها بنفسه، لكن ما يثير الدهشة ذلك الإصـرار على إصدار صحيفة خاصة به، رغم الخسائر المادية والمعنوية التي لحقـت به، هل السبب يكمن في الإصرار على الحرية في التعبير والاستقلالية فـي الرأي؟ خاصة أن الكتابة بدت للكواكبي رسالة تنويرية، بل كانت على ما يـبدو فعل وجود ووعي وتحرر، ليس فقط على صعيد الذات وإنما على صعيد الجماعـة أيضـا، إذ عـن طريق الكتابة تتم ممارسة النقد التنويري الذي كان الشـغل الشـاغل له، فهـذا النقد كما يعرّفه علي حرب، "**ليس مجرد مواجهة للسـلطة بقـول الحقيقة بقدر ما هو يقظة من السبات أو مغادرة لحال العجز والهامشـية، علـى الـنحو الـذي يتيح للمرء أن يتغير عما هو عليه، فكرا ومؤسسـة، معـرفة وسـلطة، خطابا وممارسة، النقد بهذا المعنى هو امتلاك إمكانـيات جديدة للحياة والوجود، سواء على مستوى القول والتفكير، أو على مسـتوى الفعل والتدبير**"(3) وعبر هذا النقد يستطيع المثقف أن يحسّ بفاعليته، ويمارس التأثير في وعي الناس، ولا شك أن الصحافة كانت إحدى أهم الوسائل التـي بدأت تظهر فعاليتها، فكان رواد النهضة أول من اندفع للكتابة فيها، فهي أهم صلة بين المثقف وبين الناس.

وقد وجدناه في افتتاحية العدد الأول من الشهباء (1877) يحدد الدافع الذي يكمـن وراء إصـدار الصـحيفة "**بادرنا متكلين على عنايته تعالى لإيجاد هذه الجـريدة العربـية والجـريدة الأدبـية الموضـوعة لنشر الحوادث السياسية والوقـائع المحلية، مع تحليتها أحيانا ببعض جمل سياسية ونبذ علمية وأدبية وغـير ذلـك من الأبحاث والمقالات المفيدة لاتساع دائرة المعارف العمومية، واكتسـاب الآداب المدنـية، وكشـف أسـرار الأمور، وتنبيه أفكار الجمهور،**

ومســاعدة الدولـــة على انتظام حركات السياسة المحلية وصيانة الحقوق من الشطط..."(4).

لعــل من الدوافع الخفية لتقديم هذه الصحف التأكيد على الهوية العربية في زمــن كانــت اللغة التركية هي اللغة الرسمية، لذلك يبيّن لنا الكواكبي أن هوية هذه الجريدة هي هوية عربية ذات ملامح سياسية وأدبية.

إذاً يقــف الدافع الإصلاحي إلى جانب الدافع الداخلي الذي يكمن في أعماق الكواكبــي، والــذي يحدّثــنا عنه صراحة في افتتاحية العدد الأول، إنه **"الحمية العربــية والغــيرة الوطنية على إيجاد أثر حميد في وطننا السعيد الذي طالما رأيــناه محــتاجا للســان يترجم عنه وإليه، ويخلص له النصح فيما له وفيما عليه".**

نلحــظ هــنا أن الانــتماء للعــروبة وإعــلاء كلمتها نوع من الإحساس بالخصوصــية، كمــا هــو دليل على الرغبة في نهضة الأمة التي طال عهدها بالضــعف، كــل ذلك نستطيع أن نعدّه دافعا حقيقيا وراء إصدار الصحيفة، فقد لمــس حاجــة أمته إلى لسان حال يترجم همومها ويفضح ظالميها، فيخلص لها النصــح، ويوجــه لهــا النقد البناء، خاصة بعد أن لاحظ العوام، في كثير من الأحــيان، يرفضــون الأفكــار الإصلاحية، كما لاحظ جهل بعض المسؤولين بالقوانيــن الإصــلاحية والنظم الجديدة، فأراد توضيحها لهم ليرسّخ وجودها في الأذهــان، وبذلــك يوسّع أفق العوام ومعارفهم، ويسهم في إصلاح المسؤولين، وهــو يصــرّح بأن هذا العمل لن يستطيع فرد القيام به وحده، لذلك يحتاج إلى غيرة الواعين من أبناء الوطن وحميتهم على إخوانهم ووطنهم، فيدعوهم إلى مدّ يــد المســاعدة لهــم ليســتطيعوا الإسهام بعملية تطوير الوطن، وبذلك يؤسس للصــحافة الملتزمة التي تعتمد على جهد جماعي، وعلى وعي غيور ناقد ونية مخلصة تعمل على نهضة الأمة.

بناء على ذلك نجد محتويات صحفه ثقافية سياسية، فهي تهجس بالهم العام إلــى جانب تقديم المعرفة العلمية والأدبية، فإذا كنا لا نستطيع القول بأن الغاية الأدبــية هي الدافع الأساسي لإصدار هذه الجريدة فإن بإمكاننا أن نلمس الغاية التثقيفية لعامة الناس عن طريق المعرفة التي تقوم على العلم والأدب معا، وهو بذلــك يــبدو واعيا لدور الصحافة في تقديم الأسرار للجمهور التي تكون عادة بعــيدة عــن متناوله، عندئذ تستطيع الصحافة ممارسة دورها في إيقاظ الأفكار وتوجــيه عامــة الناس للدفاع عن حقوقها، وفي الوقت نفسه تساعد الدولة على

تفهم الحركات السياسية المحلية بتقديم وجهة نظرها، كما تساعدها على ممارسة العـدل بين رعاياها، وذلك بصيانة حقوق العامة فتبتعد عن الظلم، وبذلك نجده يبغـي مـن إصـدار صـحيفته إصلاح عامة الناس عن طريق بث المعرفة، وإصـلاح السلطة الحاكمة خاصة حين تحسّ بأن هناك سلطة تراقبها هي سلطة الصحافة التي هي الضمير الحي للأمة.

الخطاب الصحفي ولغة الأدب:

لا يستطيع الكواكبي أن يعبّر عما يجول بذهنه بعيدا عن حرارة قلبه، لهذا نفتقد لديه اللغة الصحفية المبتذلة التي تعنى باليومي وتهمل جمال التعبير، حتى فـي تلـك المقالات التي من المتوقع أن يعلو فيها صوت العقل نظرا لحساسية الموضـوع، فمـثلا بعد توقيف جريدة "الشهباء" إثر صدور العدد الثاني منها، نجـده يبيّـن لـنا في افتتاحية العدد الثالث (24 تشرين الثاني_6 كانون الأول 1877) كـيف اسـتقبلها الأهالي بالسـرور والابتهاج، **غير أنه لا بد أن يوجد بعـض أصـحاب غايـات من تابع ومتبوع، لا يلائمهم انتشار المعارف، فمثل هـؤلاء (والمعنى الأقلون) ربما كانوا وجلين غير ممنونين من هذا المشروع ...عثروا فيه على ما تأوّلوه بذلة!**

يلفـت نظرنا هذا الانسجام بين الفكرة وطريقة التعبير عنها، فهو يصف لنا أولئك الذين حاربوا جريدته، أساؤوا إليها حين قدموا بعض التفسيرات التي تدلّ علـى ضـعة نفوسهم، فهم لا يتمتعون بالحرية التي تجعل الإنسان يحسن الظن بالآخرين ويتسّع صدره لهم، لذلك قدموا تفسيرات لا تصدر إلا عن عبيد أذلاء، وقـد كـان لاقتران التأويل الذي يقومون به لأفكار الكواكبي **بصفة الذلة التي تقـترن بالـنفوس عـادة لا بالكلمات**، مصدر جمال تعبيري وتصويري معا، خاصة أنه قد أشار إلى أن هؤلاء عبيد تابعون لغيرهم.

إذاً هناك فساد في أخلاق الرجال، مما يساعد في طغيان الاستبداد، هذا ما يشير إليه في افتتاحية العدد السادس (15_ 27 كانون الأول 1877) فكثيرا "**ما نتصـفح ألوفـا من القوم فلا نجد ثقة كاملة في أنفسنا لأحد منهم، لأننا نرى العفـيف وليس فيه حمية، وذو الحمية لا يعرف النظام، والعارف به لا نشاط فـيه، وهكذا لا نجد إلا من هو فحل من جهة أو جهتين... فنلتزم إلى اختيار الأخف ضررا على أن السياسة لا تقبل المسامحة مطلقا ومتى اختل فيها ركن فقدت الانتظام**"

إنــه يخــتار عبارة أدبية (نتصفح ألوفا...) عوضا عن أن يستخدم عبارة عاديــة (نــنظر إلى أخلاق القوم) ومثل هذا الفعل (نتصفح) يوحي لنا بالرؤية الشــاملة السريعة، التي تجعله يصل إلى نتيجة توحي بفساد الأخلاق ليس لدى عامة الناس فقط وإنما لدى النخبة التي تتولى الأمور لدى السلطان، مما ينعكس ســلبا على الحياة السياسية، فيؤدي إلى الانهيار والتخلف، وبذلك تصبح السياسة رجلا تكوّنه عدة عوامل أصيلة، لا يصحّ فيها أي تنازل أخلاقي أو تسامح!

وفي هذه الافتتاحية ذاتها يتحدث الكواكبي عن أحد الأمراض التي تنغل في جســد الأمة، وهو مرض التعصب الديني والمذهبي، فيقارن بين المسلمين في ظــل الدولة العثمانية والمسلمين الفاتحين في العهد الأول للإسلام الذين "**دخلوا هــذه الــبلاد وفتحوا أكثرها بسيف جاذبية العدالة ومكارم الشيم، ولما فسدت أخلاق أخلافهم من حيث تشويش وجه حقيقة التصلب في الدين بعاهة تشديد التعصــب له، صادفت بلادنا شرور الحروب الصليبية التي لا زلنا نشاهد آثار أضــرارها سياســيا وأدبيا، وربما يظن أننا ننسب عاهة التعصب لإسلام ذلك العصــر دون مســيحييه، فــنقول:كــلا، بــل كانت النصارى أشد تعصبا من الإسلام...**

يلفــت نظرنا صورة الفتح الإسلامي الذي لم يتم بسيف عادي، وإنما بسيف العدالة والقيم النبيلة، التي من أهمها الانفتاح على الآخر ونبذ التعصب، ويحاول الكواكبي أن يبيّن كيف كان المسلمون غير أمناء على روح دينهم، فقد تمّ تشويه الوجــه الحقيقي له، فلم يجد لفظة تجسّد هذا التشويه سوى "**العاهة**" التي أساءت لجوهــر الديــن كما أساءت لعلاقة المسلمين مع غيرهم، وهو ينبه إلى أن هذه العاهــة لــم تصب المسلمين فقط وإنما أصابت المسيحيين أيضا، وقد نوّع في أسلوبه فلم يكتف بسرد الوقائع وإنما نجده يلجأ إلى العرض، وقد أضفى الحوار جوا من الحيوية والواقعية على مقالته.

لا ننســى الــدور الكبير الذي أداه الكواكبي وغيره من رواد النهضة الذين كتــبوا في الصحافة، فقد استطاعت اللغة العربية أن تتخلى عن جمودها بفضل جهــوده التأليفية والصحفية، لو تأملنا لغة افتتاحية العدد الأول (28 نيسان_10 أيــار 1877) للاحظنا كيف نهضت اللغة العربية على يديه من حالتها السكونية القاموســية، فأصــبحت لغة الحياة، سنتأمل فقط جماليات الافتتاحية التي كانت تكتســي عــادة، في زمنه، ألفاظا تقليدية أقرب إلى الجمود، مما يودع اللغة في قالــب مكرر تكاد لا تبارحه، يقول الكواكبي "**حمــدا لمن أحاط علما بكل ماض**

وآت، وقــصّ لعــباده أنــباء الأمم بالآيات البينات، ليتدبروا حكمته في تغيير الأحوال وتدبير الكائنات، والصلاة والسلام على جميع أنبيائه الباذلين نفوسهم فــي سبيل إرشاد المخلوقات، وبعد فكلما نظرنا إلى ما حرّرته يد العناية على جهــة هــذا الزمن ومكنت أهله من اقتطاف المعارف في كل وطن، تسرنا هذه الترقــيات التــي بلّغــت أبــناء العصر ذروة النجاح، وسلكت بهم سبل الهدى والفلاح..."

للوهلة الأولى نجد الكواكبي أنه لم يبرح الأسلوب الشائع في عصره، لكن حيــن نتأمل تراكيب جمله نلاحظ أنها تحتوي على تراكيب إرشادية، تتخذ من الحكمة الإلهية وسيرة الأنبياء مثلا أعلى في نشر رسالة الإيمان والصلاح، التي هي في حقيقتها رسالة تطوير وتغيير وعدم الركون إلى ما هو سائد.

وقد بدا لنا الكواكبي هنا أمينا للتراكيب التقليدية، لكنه كان مهتما بأن يلبس هــذه التراكيب روحا جديدة هي روح التغيير واستخدام العقل، لهذا جعل سيرة الأنبــياء الذين هم قدوة لنا، إذ يجسدون لنا سيرة المصلحين الذين يلجؤون إلى التدبــير والــتفكر، لذلــك يجعــل سيرتهم تلك أول ما يفتتح به العدد الأول من جريدته.

إن علاقة الأدب بالصحافة بدت ضرورة للكاتب، ليس فقط من أجل تعبير أكــثر حــيوية وجاذبــية، وإنما من أجل تجاوز ضغط الرقابة أيضا، لما يتيحه اســتخدام أســلوب الهزل والتلميح والرمز من إمكانات تعبيرية حرة، إذ يبتعد الكاتــب بفضــلها عــن التصريح ويكتفي بالتلميح، وبذلك يتجاوز قيود الرقابة الصــارمة، وقــد بــدا لنا الكواكبي واعيا لهذه الأهمية، فها هو ذا يصرح في افتتاحــية العــدد الثالــث من "الشهباء" **"أكثر ما يقع مَن مشتقات الاجتهاد أمام ســهام الاضــطهاد، وكان أكثر ما يقع ذلك في أوائل انتشارها في المملكة أو الــبلدة، فكــان من قدر على الثبات وتحمّل العناء، ومنهم من أجبرته ظروفه للخــوض فــي الرقراق، وتجنب المخاطرة في الأعماق، ومنهم من تباعد عن مصارع الانتقام باستعمال الحكمة في إفادة المرام، وذلك بنحو تخريج الحقائق علــى قوالــب الهزل...فصاروا يطلعون القارئ على ما يرومون بنحو التلميح والكناية والرمز والإشارة..."**

إذاً الصحافة مهنة المتاعب للمخلصين غير المتملقين، فأي اجتهاد وإعمال للعقــل فــيها، لابد أن يوجّه المستبد إليه سهام الاضطهاد، لذلك كان الصحفيون أنواعــا، فمــنهم من يواجه بثبات، ويدفع ثمن قول الحقيقة، متلقيا العقاب بعناد،

ونجد منهم من يخاف المواجهة تكبّله ظروفه القاسية، لذلك يشبّه الكواكبي هذين النوعيـــن مـــن الكتاب بنوعين من السبّاحين الأول يخاف عواقب الغوص فيبقى علـــى الســـطح الرقيق للماء،.والثاني جريء يغوص في الأعماق دون خوف، وهكـــذا بـــدا التعبـــير الأدبي، هنا، خير معين للكواكبي على تقديم أفكاره، فبدا الانسجام واضحا بين الرؤية الفكرية والرؤية الجمالية.

تأملات في أسلوب المقالة الصحفية لدى الكواكبي:

1_ الأسلوب القصصي:

لاحظـــنا الكواكبي كيف لجأ إلى أسلوب القصة في كتابه "أم القرى" ويبدو لـــنا أن هذا الأسلوب مكون أساسي من مكونات موهبته الأدبية، لذلك برز أيضا فـــي مقالاته الصحفية، باعتباره أحد الطرق الحيوية التي تسهم في تقديم أفكاره، وإضـــفاء مصداقية الواقع عليها، وهي تفسح أمامه المجال لتجسيد أفكار متنوعة ووجهـــات نظـــر قد تصل حد التناقض حين تقدم معاناة الإنسان من الاستبداد، وبعـــد ذلـــك تقـــدم وجهة نظر المنافقين أنصار الاستبداد، ففي (جريدة العرب) يـــنطلق الكواكبي متحدثا بحرية عن المظالم التي أحدثها الحكم العثماني، وذلك علـــى لسان جماعة من الحجيج **"أدوا الفريضة هذه السنة، وسمعوا رجلا هذه الســنة فـــي بيت الله وهو أكثر الناس علما وتنسّكا يردد دعوة إلى الله بتمام التضـــرع ولوعـــة القلب، فبهتوا وكانت دعوته هكذا لا تتعدى هذا المعنى: يا أرحم الراحمين ويا أحكم الحاكمين أنقذ هذه البلاد المقدسة والمقامات المباركة من يد الترك وسلّمها إلى دولة...وديعة.**

[فـــيقول المنافقون] **معاذ الله فهذه دعوة لم يسمع بمثلها لا في ذلك المقام بـــل في أي مكان من عهد السعادة إلى عهد حكومتكم، ولم يخطر ببال إنسان حتى في خياله أنه يسمع بمثلها، والرجال الذين يحكون هذه الحكاية لا احتمال في أنهم يكذبون فيما يحكون لغرض من الأغراض"(5).**

يـــنقل لنا هذا المقال مشهدين، الأول مشهد مؤثر لإنسان متبتّل في بيت الله الحـــرام أثـــناء أدائـــه فريضة الحج يدعو الله بحرقة أن يخلصه من ظلم الدولة العثمانـــية، وأن يبدلّها بدولة أخرى عادلة، أما المشهد الثاني فيعرض لنا جماعة المنافقيـــن وقـــد اجـــتمعوا لـــدى الحاكم المستبد، يكذّبون قصة الرجل المتبتّل، ويمدحـــون عهد السلطة العثمانية، وتأكيدا على قولهم هذا نجدهم يصفون عهدها

بالعهد السعيد ، وأن كل من نقل هذه الحادثة لابد أن يكون كاذبا، يختلق حكايات تسيء للسلطة من أجل أن ينفذ مآرب شخصية.

قدّم الكواكبي في مقالته (عبرٌ هذين المشهدين) صورتين متناقضتين: الأولى لإنسان متديّن يدعو الله أن يخلّصه من حكم الدولة المستبدة فيختار لذلك أقدس مكان (الكعبة)، والثانية لإنسان منافق يعايش السلطان مادحا، ويتهم كل من يهاجمه بالكذب! فيختار هنا (بلاط السلطان).

وفي المقال نفسه نجده يمعن في تصوير شخصية المنافق، الذي لا يردعه أي وازع ديني أو أخلاقي، وقد أشار الكواكبي إلى مسؤولية هذا المنافق عن تشويّه الدين، لهذا نجده يعلن شروط الخلافة مستندا إلى ما جاء في الكتب الإسلامية المعتبرة، واستنبط من أحكام الشريعة المحمدية الطاهرة (التي تؤكد أن الخليفة عربي من قريش) حتى **لا يبقى لحاذق لا يخشى الله رب العالمين أن يهرف بما يشاء... ليرضى من يعبده، ويأخذ دنانيره من الظلمة الطغاة، ويموّه على البسطاء من الناس بما يهواه معبوده من الأكاذيب والأضاليل التي تنصرها البراطيل.**"

تمتلك شخصية المنافق، جليس السلطان، صفات سلبية تدمر الدين والحكم السليم، فهي تناصر الاستبداد، بعبوديتها له، وبرفض أحكام الشريعة وتزويرها، فتجسد لنا سمات الشخصية المرتزقة، تسعى وراء المال بأية وسيلة، دون أي رادع ديني أو أخلاقي، لذلك ليس مستغربا أن تحرّف الدين من أجل السلطان، وتكذّب على العوام بما يحقق لها مكاسب مادية تفوز بها من المستبد، الذي يصبح إلهها المعبود، تنشر عنه الأكاذيب وتقوم بكل الموبقات، كل ذلك من أجل أن تفوز بذهبه.

ونجد وصفا دقيقا لشخصية الوالي الفاسد وأثر بيئة حلب على فساده في مقال آخر (في "النحلة" انيسان 1879) وهو هنا لا ينقل لنا الصفات بشكل محايد، بل يحاول أن ينقل معها الرأي العام السائد بين الناس حين يأتيهم مأمور جديد، وقد رأوا منه تعففا فنجدهم يقولون: **إنه الآن على فطرته لكن سيشرب ماء حلب، يعنون أن شربها يغيّر طبيعة الإنسان ... كثيرا من الولاة الذين اشتهروا بالعفة والشهامة جاؤوا إلى حلب وفسدوا بعد برهة وتكني العامة عن ذلك بأنه نزل الميدان أو سحب رجله لبطلان عزّته، ومن جملة أولئك الولاة والينا الآن ذي الدولة كامل باشا الذي كان متصرفا في بيروت تسع سنين والتزم طريق العفة والاستقامة فيها، كما هو مشهور غير أنه لما جاء**

إلــى حلــب وبعــد نحو نصف عام تمكن ماؤها من أضلاعه، ونزل الميدان، وسبق الأخوان، لأنه ذو معارف ودراية، يعرف كيف يستنــزف القطر ويستدرّ الضــرع، ولعــل من يعرفه في بيروت أو غيرها يستغرب ذلك عنه، فيقول لا غــرابة فــإن الرشوة من الدواعي الطبيعية في حلب، حتى لو جاهد المأمور تعففا لقام عليه جمهور رفقائه وعزلوه، وبناء عليه لو جاءنا سليمان بن داود لما رأيناه بعد حين إلا وهو من المنقلبين"(6).

إن الشخصــية هــنا تبدو ذات ملامح عامة، لكن عناصر التخييل أضفت علــيها الحيوية والطرافة، إذ نجد تناغما بينها وبين الطبيعة، فإذا كانت الطبيعة فـــي حلب قد عراها الفساد حتى استشرى فيها بين الناس، لذلك لن يكون غريبا ســريان هذا الفساد في دماء الولاة سريان الماء في الجسد، ولعل مقولة العامة "تــزل المــيدان" و"سحب رجله" دليل على شيوع الفساد حتى ملأ جميع الأمكنة ووصـــل الساحات العامة، فأي والٍ جديد لابد أن يمرّ عليها، ويسحب رجله إلى الفســاد، ولا يكتفي والي حلب بأن ينــزل الميدان كغيره، بل نجده يسبق إخوانه في الفساد، نلاحظ هنا أن هذه المقولات الشعبية ("تزل الميدان" و"سحب رجله") زادت مـــن تألق المقالة وحيويتها، كما وضّحت ملامح الشخصية بشكل أفضل، فاستطاعت أن تنقلها من التعميم (ولاة) إلى التشخيص (كامل باشا) مما يتيح لنا التعرف على ماضي الشخصية النظيف (تسع سنوات في بيروت) ثم انهياره في الوقت الحاضر بعد نصف عام من تغلغل مياه حلب في دمه، فسرى إليه ما في طبيعتها من فساد.

وقـــد ساعدت اللغة التصويرية على تجسيد ملامح الشخصية الفاسدة (تمكّن ماؤهـــا من أضلاعه، بات يستنـــزّف القطر، ويستدرّ الضرع) ومما ساعد على جمـــال التصـــوير اســـتخدام الأفعال المشددة التي توحي لنا دلالتها بشدة النهب والأذى الذي تعرض له الناس بسبب هذا الوالي!

يلفت نظرنا الربط بين الشخصية والمكان، حتى إنه جعل الفساد جزءا من مكونـــات المكان تسري صفاته في دماء ساكنيه، فإن حاول أحد الولاة الغرباء الـــتعفف، أي الشـــذوذ عن غيره، قام الأهالي من الأغنياء بمحاربته، لذلك عمّ الفساد، ولم يستطع أحد الامتناع عن النـــزول إلى ساحته.

وكـــي تتضـــح معـــالم الصورة التي يريد رسمها للفساد الذي هو مرادف للاســـتبداد فـــي رأي الكواكبي، يتوقف عند الأهالي الذين تمكّن الفساد فيهم كما تمكّـــن في طبيعة بلدهم، فيصف خلودهم للخمول وتعوّدهم **أن لا يطالبوا بحق،**

ومما يتمثلون به في تهوين ذلك على نفوسهم وتسفيه آراء الأنفة والشهامة قولهم "أتلاكم البيضة حجرا" وقولهم "إنما السلام في مسالمة الحكام" وقولهم "إذا أردت الأمر أن يمشي ارشِ ثم ارشِ ثم ارشِ" ومنهم من يعتذر عن المأمورين في الرشوة بقولهم: "منَ له فم لابد أن يأكل" ومنهم يرون أن "ليس من المروءة أن لا يعطى المأمور تعبه" ومن قبيل ذلك قولهم "لا توكل العشرة حتى تطعم التسعة" وبناء عليه فإذا كان الأهالي قد ألفوا الذل والرشوة إلى هذه الدرجة فلا يبقى حاجة لبيان مقدار استبداد المأمورين"(7).

لعل ما يشكل لقاء بين أسلوب القصة وأسلوب الصحافة هو استخدام لغة الحياة اليومية، خاصة تلك التي تقدم لنا نبض الحياة وصورة الإنسان، وهو يواجه الواقع أو يزيّفه أو يستسلم له، وقد لاحظنا، قبل قليل، كيف اجتمعت الملامح الخاصة بملامح عامة لشخصية الوالي اللاهث وراء الفساد، حين جسّده لنا عبر أفعال تخصه دون غيره، خاصة تلك الشدة والمبالغة في استنزاف الناس ونهبهم، لكننا نجد الكواكبي، في هذا المقال، يقدم لنا الشخصية العامة للأهالي متجسدة عبر لغة الجماعة التي تصب الناس في قالب واحد، يقف في مقابل الوالي المستبد، لا لينازعه ويواجه استبداده، كما يتبادر للذهن، بل ليشجعه على تصرفاته! ويبرر سلوكه المنحرف! لذلك بدت شخصية العامة ذات صفات سلبية: الكسل والرضوخ... إنهم يعيشون أوهاما تتحول إلى ما يشبه المقولات الشعبية المغلوطة التي تقلب حقائق الحياة، وتبرر الضعف الذي يرونه قدرا لهم، فهم ضعفاء لا يستطيعون مواجهة الحاكم القوي، كما لا تقوى البيضة الضعيفة على مواجهة الحجر! كما تشيع بينهم مقولات تدعو إلى مسالمة المستبد، كي يأمنوا حياتهم، لأن أية مواجهة للمستبد تعني موتا مؤكدا!

لا يقدم لنا الكواكبي وجهة النظر الجماعية التي تدافع عن ذلّ العامة وضعفها فقط، وإنما يتخيل حالة أخرى، تفاجئ المتلقي وتثير عجبه، إذ يقدّم دفاع العامة عن فساد الوالي عبر منطق فاسد يقول: لتسيير الأمور لابد من الرشوة! فهي مفتاح أي عمل في ظل الانهيار الأخلاقي، لذلك تتحول رشوة الوالي إلى حق له تؤديه العامة نظير جهده!

وهو يهدف من تجسيد هذا المنطق المنحرف إلى إبراز أن هذا الخلل الأخلاقي الذي تعاني منه العامة قد أدى إلى خلل الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لذلك ليس غريبا أن نفتقد المروءة والشهامة لدى الشخصية

(بالمعنى العام والخاص) كما نفتقد النزاهة والعدل لدى الوالي، إذ ثمة تلازم بين فساد الحاكم والمحكوم!

قد يظن البعض أن الكواكبي عبر تجسيده فساد البيئة وأثرها على عامة الناس، ثم التوقف عند وجهة نظرها في الفساد ودفاعها عنه، أنه يريد بذلك أن يشيع اليأس والإحباط لدى المتلقي، لكن هذا الظن يدحضه إصرار الكواكبي على الإصلاح، وبث روح الرفض والنهضة عبر تشخيص الحالة وإبراز تدهورها، من أجل أن يستفزّ الهمم لتغيير هذا البؤس!! وقد كانت الكتابة الصحفية أحد جوانب الإصلاح لديه، لذلك استعان بأساليب تعتمد تجسيد الصورة القبيحة للحاكم والمحكوم، ليس فقط من أجل التشويق وإنما من أجل تقديم صورة منفرّة لحالة الذلّ والاستكانة التي تنتاب العامة، تؤدي بها إلى فساد التصورات والمنطق!! فتدمر أي أمل في تغيير الأحوال، وبذلك يسعى إلى تحريض العامة على رفض واقعهم، والعمل على تغيير حياتهم البائسة.

والكواكبي في مقالاته الصحفية، كما في كتبه، لا ييأس من إصلاح العامة التي تعاني من "**الوهم وفساد التصورات**" لذلك يدعو المصلح في كتاباته إلى تفهّم العامة و"**مجاراتهم أول الأمر على أفكارهم، فيبثّ فيهم نصائحه بصورة مترددة، حتى إذا أدركوها لنجذبوا إليها...إن إقناع العامة بما يخالف مشاربهم المألوفة لهم أمر لا يخلو من صعوبة لكن لا بد للعاقل إذا كان في قافلة لا غنى له عن مرافقتها، ورآها تاهت عن الطريق من أن يرشدهم إلى الطريق المؤدية لنجاته ونجاتهم جميعا، ولو تكلف في اقتناعهم هضيمة نبذ آرائه وهزئهم بها في أول الأمر...**"(8)

يلفت نظرنا هذا التشبيه الدقيق والحيوي لحال المصلح مع قومه، الذي يربط حياتهم بحياته، فهو ملزم بإنقاذهم كي ينقذ حياته، إنه يسير معهم في قافلة واحدة (هي الحياة) لا يمكن له الاستغناء عن رفقتهم، لذلك عليه أن يحاول أن يرشدهم إلى الطريق الصحيح، أي يحاول إنقاذهم من أوهامهم وفساد أفكارهم التي تنعكس على أخلاقهم وتصرفاتهم، ومثل هذه المهمة لن تكون سهلة، سيواجه بالنبذ والسخرية في البداية لكن إصراره على إنقاذ قومه، عبر مسايرتهم أحيانا وتوجيههم أحيانا أخرى لابد أن يؤثر فيهم.

هذه الصورة السلبية لشخصية العامة لن تكون سمة عامة في مقالات الكواكبي، فقد قدّم معاناة الفلاحين وكفاحهم الذين كانوا يستلمون الأرض البور ويقومون بإحيائها عملا بالحديث الشريف "**من أحيا مواتا فهو له**" **فكانت تلك**

الأراضـــي تحتاج إلى بذل أتعاب ونفقات جسيمة، لم يتوصلوا إلى القيام بها إلا بصـــرف جمـــيع مـــا تملك أيديهم وأكثر إلى أن ابتدؤوا الآن باستغلال بعض محصـــولات تلـــك الأراضي التي عجنت بدموعهم وسقيت دماء قلوبهم." لذلك يبدو استيلاء الولاة على الأرض بعد إحيائها، وعلى ثمرة تعب الفلاحين يعدّ من أشـــنع الأفعـــال! خاصة أن هؤلاء الولاة يخالفون بذلك ما أمرهم به رسول الله صـــلوات الله عليه وسلامه في الحديث الشريف الذي ذكره الكواكبي (من أحيا مواتـــا فهـــو له) وبذلك يلجأ في مقالاته إلى توظيف ثقافته الإسلامية إلى جانب موهبته الأدبية، لذلك يبدو لنا الخطاب الصحفي لديه خطابا مؤثرا.

ويمكن أن يلاحظ المتتبع ملامح أخرى للقصة في مقالاته مثل مقدرته على تقديم أعماق النفس البشرية، فيظهر ذلك بالتغلغل إلى كوامن الشخصية ومعرفة طبيعتها، فنجده يقول في جريدة الشهباء العدد الخامس (1877) **"إذا تتبعنا تقلب الهيئة الاجتماعية بحلب منذ سقوط الدولة السلجوقية إلى الآن، يظهر لنا أنها لـــم تصادف سياسة حسنة إلا في عهد قريب، فنستنتج أساسا لما نشاهده ـ بكل أســـف ـ مـــن استيلاء الفساد على الفكر العام فيها فيما يتعلق بأمر السياسة، ذلـــك مـــن حيـــث أن مرور هذه القرون الأربعة، وهم في ضيم تلك السياسة المطلقة العنان جعلهم يألفون أمورا كثيرة مضرة وبالتمادي صارت طباعا لهم يركـــنون إلـــيها، ويحـــافظون عليها...ولا يخفى أن إصلاح الفكر العام دونه صـــعوبات كثيرة، لأن العامة تأبى من يخالف ما تقرر عندها، فلا يصغي التائه إلى نصيحة المرشد إلا بتكلف."**

يلفـــت نظـــرنا هـــذه الحساسية التي ترافق المعرفة بما يجول في أعماق العامة، زمن الفساد، إنهم لا يعلنون رفضهم له بسبب إلفتهم له، فالإنسان يركن مـــع الزمـــن للشـــاذ والفاسد بحكم الإلفة، لذلك لم يعد التمادي بالاستبداد يقابل بالـــنفور، إذ أصـــبح الضعف والركود جزءا من التكوين النفسي للعامة، وعادة يومـــية تســـري في دماء العامة، وهنا نجد الكواكبي يبحث عن صفة تليق بكل إنســـان يألف طبعه الاستبداد فلا يجد سوى هذه الصفة الموحية (**التائه**) ولا شك أن معظـــم العوام يستحقون هذا الوصف، إذ ليس سهلا إقناعهم بتغيير أفكارهم وسلوكهم أي تجاوز ضياعهم! وردّهم إلى جادة الصواب!

يلفت نظرنا هنا قوله: "لم نصادف سياسة حسنة إلا في عهد قريب" لا شك أن هـــذه الجملة تعدّ نوعا من اللغة التصالحية مع السلطة المستبدة، التي اضطر

إليها الكواكبي كي تسمح له نشر لغته الثائرة والمحرضة، فتسهم أفكاره في مقاومة الاستبداد وإيقاظ العامة من سباتهم ونزع فتيل إلفتهم للاستبداد.

2_ الكواكبي مؤرخا وأديبا في صحافته.

يحاول في مقالاته الصحفية أن يؤرخ لأحداث هامة، أسهمت في بناء الدولة العثمانية، ومما يلاحظ أن الكواكبي لا يقدم الحدث التاريخي بمعزل عن النظرة الناقدة، ولعل ما يؤكد أصالة موهبته الأدبية أننا لا نجد هذه النظرة بلغة جافة، تسيطر عادة على المؤرخ الناقد! وإنما نجد المقالة التاريخية تقدم بلغة أدبية تعتمد التشبيه الفني الذي يغني الفكرة، ويمنحها حرية التعبير، فمثلا في مقالته الافتتاحية في العدد الرابع من جريدة "الشهباء" وجدناه يتحدث عن أخطاء الدولة العثمانية التاريخية وذلك حين اتجهت إلى الدول الغربية في فتوحاتها، ونسيت الدول الشرقية، فيقول: **"إن الأقدار حكمت على الدولة العلية بأن تصرف ثلاثماية سنة استغرقت أيام صبوتها وشبابها في فتوحات لم تجدها نفعا قدر ما جلبته عليها من أتعاب المحافظة عليها في أيام الكهولة والشيخوخة...لو فرض معترض يقول: كيف الشهباء تصف الأمم بالصبوة والشباب والكهولة والشيخوخة؟ نقول: نعم إن لكل دولة فرصة وهي أيام صبوتها وصولة هي أيام شبابها، ورسوخا هي أيام كهولتها وانحطاطا وهي أيام شيخوختها، وما بعد ذلك إلا المهالك... (هناك) دولة استعملت أيام فرصتها في التأهل للانتفاع بقوتها...ثم أعملت صولتها في تشييد أركان عزتها، ثم تفرغت في أيام رسوخها لمعاناة حفظ صحتها على وجه الحكمة، طالت حياتها وعادت لها نشأتها الأولى، وربما تكرر ذلك مرتين، لكن لابد أن تكون غايته إلى الزوال، ويجب عليها حينئذ ما يجب على التاجر إذا شاخ."(9)**

يتأمل هنا الكواكبي في تاريخ الدولة العثمانية، وفي أخطائها التاريخية التي ارتكبتها، فلا يجد وسيلة تعبيرية تجسد هذه الأخطاء وتبيّن فداحتها سوى تشبيه حالة الدولة بحالة الإنسان الذي يمر بمحطات مصيرية في حياته تتلخص في (الشباب والكهولة والشيخوخة) فإذا اغتنم أوقات شبابه وكهولته استطاع أن يؤسس حياته على أسس متينة عزيزة، يضمن بها شيخوخته، وهو يبيّن أن الشباب (سواء أكان شباب الإنسان أم الأمة) يجب أن يعني مرحلة العمل الجاد الذي يؤسس فيها المرء لمراحل حياته التالية، ثم تأتي مرحلة الكهولة التي ترسخ ما سبقها من جهد وتضفي عليه الصحة والحكمة، فإذا ضاعت هاتان

المرحلـتان جلبت الضياع للمرحلة الأخيرة (الشيخوخة) وهذا ما حصل للدولة العثمانية التي أفسدت شبابها وكهولتها، حين أخطأت العمل واتجهت بالفتح نحو الـدول الغربـية، مهملـة شأن الدول الشرقية، فضيعت قوتها وشبابها في هدر قوتها، لذلك يدعوها الكواكبي، عن طريق التشبيه الذي يتيح له التلميح بما يريد، لذلك يدعوها أن تفعل ما يفعله التاجر إذا شاخ! أي أن تترك الحكم بعد أن بلغت مرحلة الشيخوخة العاجزة.

للوهلـة الأولى يبدو لنا هنا الكواكبي متأثرا بمقولة ابن خلدون في مقدمته بـأن "الدولـة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال، والجيل هو عمر شخص واحـد مـن العمر الوسط...الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد، فلا تزال سـورة العصـبية محفوظـة فيهم، فحدّهم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبـون، والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفّه من البداوة إلى الحضارة ...فتكسر سورة العصبية بعض الشيء وتؤنس منهم المهانة والخضوع، ويبقى لهـم الكثـير مـن ذلك بما أدركوا الجيل الأول وباشروا أحوالهم وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم إلى المجد ومراميهم المدافعة والحماية، فلا يسعهم ترك ذلك بالكلـية وإن ذهب منه ما ذهب، ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال التي كانـت للجيل الأول، أو على ظن من وجودها فيهم، وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن، ويفقدون حلاوة العز والعصبية...فهذه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلّفها"(10) .

قد يكون الكواكبي قد تأثر بفكرة تقسيم حياة الدولة، كما تقسم حياة الأجيال، لكـنه بـدا لنا في تشبيهه لحياة الدولة بحياة الإنسان لا حياة الأجيال، قد تجاوز مـرحلة التأثر الحرفي، الذي يعني قصورا في المخيلة والفكر، إلى تشبيه يحمل سـمات خاصة به، إذ لم نجده يستخدم فكرة العصبية وعلاقتها بمرحلة البداوة، وهي الفكرة الأساسية لدى ابن خلدون، بل نجده يقرن حياة الدولة بمراحل حياة الإنسـان، فتوقف عند مرحلة العمل والعطاء التي هي مرحلة الشباب ثم مرحلة الكهولـة أي رسوخ لكل ما فعله في المرحلة السابقة، في حين وجدنا مع بداية الجـيل الثانـي لـدى ابن خلدون تبدأ مرحلة الانهيار بفقدان العصبية، ثم تأتي مـرحلة الشيخوخة التي تعني انهيار العصبية بشكل نهائي لديه، في حين قد لا تعني هذا الانهيار لدى الكواكبي فيما لو أحسن الإنسان (الذي هو المعادل الفني للدولة) استغلال مرحلة الشباب والكهولة، فتطول حياته دون أن تهان كرامته.

إذاً يرى المؤرخ الكواكبي أن بقاء أية دولة لابد أن يقترن بمدى الجد والعمل اللذين تتميز بهما، شرط أن يكون هذا العمل في الاتجاه الصحيح، يعتمد المنطق والتفكر، في حين يرى ابن خلدون في العصبية الدافع الأول للحفاظ على الدولة.

3 _ المقالة وأسلوب الرسالة:

يبدو لنا تطور أسلوب المقالة الصحفية لدى الكواكبي واضحا مع مرور الزمن وتزايد الخبرة، فقد لجأ إلى كافة الوسائل التي تقرب مقالته من قلوب القراء، وتتيح له حرية التعبير، فيتخلص من كبت السلطان ومصادرته لفكره، وقد لاحظنا أن جرأة الكواكبي زادت في الصحيفة الأخيرة التي أصدرها في القاهرة (صحيفة العرب) نظرا لبعده عن مركز السلطة، وللحرية التي تتمتع بها الصحافة في مصر.

من تلك الوسائل كان أسلوب الرسالة، حيث وجدنا ثلاث مقالات تعتمد هذا الأسلوب في عدد واحد ("رسالة الخلافة" و"خطاب إلى السلطان" و"ردّ رنان على رسالة تركي") فمثلا بعد أن أعلن السلطان عبد الحميد نفسه خليفة على المسلمين، كتب الكواكبي مقالا بأسلوب الرسالة، وقد بدا متعمّدا لهذا الأسلوب حتى إنه جعل عنوانه "رسالة الخلافة" كي يشير إلى أهمية الدلالات التي تحتويها، إنها دلالات تمسّ أسس الحكم التي تبيّن بطلان تسمية السلطان عبد الحميد بالخليفة، لذلك حدد في الافتتاحية هوية المرسل والمرسل إليه "**أرسلها فاضل من العلماء الحكماء لحضرة السلطان عبد الحميد**".

يلفت نظرنا اللغة الصريحة التي تجرؤ على ذكر اسم السلطان عبد الحميد، دون أن تكني أو ترمّز، وإن كنا لاحظنا إغفال اسم المرسل والتركيز على ذكر صفاته فقط (عالم، فاضل، حكيم) للدلالة على أهمية ما يقوله، إذ لا ينطق عن هوى، بل ينطق نتيجة علم وحكمة وفضل، لذلك لا يمكن أن تهمل رسالته، التي هي تعريف بالخلافة وشروط الخليفة، وبالتالي بيان بطلان خلافة عبد الحميد، إذ لا يمكن للسلطان أن تنطبق عليه هذه الشروط التي أهمها إجماع العلماء على انتماء الخليفة لقريش، وهو يقولها بصراحة في رسالته "**لو سمعتم جلالتكم شروط الخلافة لاستعظمتم أمرها، واستثقلتم حملها، ولرأيتم أن العبور على صراطها الحاد من أصعب المصاعب، وأخطر الأخطار وأثقل الأعباء...**"(11).

لا يكتفي الكواكبي بتوجيه الرسالة في افتتاحية المقال إلى السلطان عبد

الحميد، بل يعمد إلى استخدام أدوات الخطاب المباشر مثل تكرار ضمير المخاطب خمس مرات في سطر واحد، ومخاطبته باستخدام الاسم الذي يخاطب به الملوك عادة: جلالتكم، لا بما يخاطب به الخليفة: أمير المؤمنين.

استغل الكواكبي في هذه الرسالة مقدرته اللغوية والفنية لإيصال وجهة نظره، ولإقناع السلطان بعظم ما يقترفه من إثم، فيما لو أعلن نفسه خليفة، لذلك وجدناه يستخدم هذه الصورة (لرأيتم أن العبور على صراطها الحاد من أصعب المصاعب) فقد جعل إعلان الخلافة شبيها بالسير على صراط حاد سيؤدي إلى سقوط السلطان في الهاوية والضلال، وقد استغل، هنا، دلالات لفظة (صراط) الدينية التي توحي بالصراط المستقيم الذي يؤدي إلى طريق من أنعم الله عليهم، وقد تحول عند الكواكبي إلى صراط حاد يؤدي إلى طريق الضالين الذين غضب الله عليهم!

لنلاحظ أيضا استخدامه للأفعال ذات الدلالات القوية المعبرة عن هذا الإثم (استعظمتم، استثقلتم...) والألفاظ التي تصفه (أصعب، أخطر، أثقل) إنها صفات تصف الحد الأقصى من دلالات الخطورة والمصاعب والأعباء (لهذا قدمها بصيغة أفعال التفضيل) .

وظّف الكواكبي كل ثقافته المعرفية والدينية ومقدرته الفنية، كي يستطيع إقناع السلطان بالتراجع عن قراره، إنه بذلك يستخدم في كتاباته الصحفية سلطة العالم وموهبة الأديب، كي يحقق غايته ليس فقط في مخاطبة السلطان وإنما في مخاطبة عامة الناس أيضا، ليقنعهم بخطورة الإثم الذي يرتكبه السلطان.

4 _ المقالة وأسلوب البحث العلمي :

لاحظنا كيف وظّف الكواكبي كل ما يتقنه من أدوات معرفية وثقافية وفنية لتقديم مقالة متميزة تجمع بين اللغة العلمية واللغة الجمالية، فإذا كنا قد تحدثنا سابقا عن بعض ملامح اللغة الجمالية، فإنه يحسن بنا ألا نغفل إنجازا مهما لديه فقد استطاع، بفضل إحساسه المرهف بمسؤولية الكلمة الصحفية، أن يحوّل بعض مقالاته إلى مقالات علمية، تستمد مادتها الأولية من أمهات الكتب التراثية، وعلى سبيل المثال نجده في مقال "الطاعة لأولي الأمر" في جريدة العرب يقدم بحثا علميا حول الآية الكريمة "**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**" (سورة النساء ، آية رقم 59)فقد لاحظ الكواكبي استغلال السلاطين وأمراء السوء، ومازالوا، هذه الآية، إذ تحولت

علـــى أيديهم إلى سلاح يقهر الناس على قبول استبدادهم، ويبيّن لهم أن الطاعة للحـــاكم أمـــر إلهـــي ورد في الكتاب، فيكسبون طاعة عمياء ، لذلك يكررون الاستشـــهاد بهـــذه الآيـــة، يرسّخون في الأذهان تفسيراتهم المغلوطة لها، غير مراعيـــن مـــا يجـــب عليهم من العدل والإحسان والطاعة للكتاب والسنة، وكي يضفي على كلامه مصداقية نجده يحوّل المقالة إلى بحث يورد فيه أقوال بعض المفسرين الثقاة في تفسير هذه الآية، كالزمخشري الذي نجد الكواكبي يعلق على شـــرحه، ويبرز أهم النتائج والتفسيرات قائلا: "**كـــيف تلزم طاعة أمراء الجور، وقـــد جـــنح الله الأمر بطاعة أولي الأمر** (شرطه) **بما لا يبقى معه شك، وهو أمـــرهم أولا بـــأداء الأمانـــات وبالعدل في الحكم وأمرهم أخيرا بالرجوع إلى الكـــتاب والسنة، فيما أشكل، وأمراء الجور لا يؤدون أمانة ولا يحكمون بعدل، ولا يـــردّون شيئا إلى الكتاب وإلى السنة، وإنما يتبعون شهواتهم حيث ذهبت بهـــم، فهم منسلخون عن صفات الذين هم أولو الأمر عند الله ورسوله وأحق أســـمائهم اللصوص المتغلبة** ثم نجده يبين وظيفة الواو في (وأولي الأمر منكم) إذ إن العطف بها يقتضي المناسبة بين المعطوف (أولي الأمر) والمعطوف عليه (الله تعالى والرسول) لذلك يستشهد بسيرة الخلفاء الراشدين، ويورد قولا لأحدهم "**أطيعوني ما عدلت فيكم، فإن خالفت فلا طاعة لي عليكم**".

وهو بصورة خفية يقارن بين انحراف السلطان العثماني الذي يستغل الآية كـــي يضمن ولاء العامة رغم ظلمه لهم وبين الخليفة الراشدي الذي يحثّ الناس علـــى طاعـــته مـــادام يلتزم بما أمره الله والرسول من عدل، فإذا أخلّ في هذا الالتزام فلا طاعة لهم عليه!

وبعـــد تفســـير الزمخشري لهذه الآية، يأتي بتفسير آخر للبغدادي، فيتوقف عند جانب دلالي آخر في هذه الآية، فيبين التنوع الكبير الذي تحمله دلالة "أولي الأمر" فقد قيل أمراء المسلمين وقيل المراد أمراء السرايا، وقيل أولو العلم، فإن العلمـــاء هم المستنبطون المستخرجون للأحكام، ثم يبيّن أن الطاعة لأولي الأمر مـــاداموا علـــى الحق، فإن خالفوا الشرع لا تجب طاعتهم لقوله صلى الله عليه وآله وسلم "**لا طاعة لبشر في معصية الله، وإنما الطاعة في المعروف**" .

بعد ذلك يأتي بشرح الخطيب الشربيني الذي يضيف ما روي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم "**الســـمع والطاعة على المرء فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**".

ثـــم يأتـــي بشرح القاضي البيضاوي ليؤكد **أن الله أمر الناس بطاعة أولي**

الأمـــر بعد أن أمر أولي الأمر بالعدل، تنبيها على أن وجوب طاعتهم ماداموا على الحق، وقيل المراد بهم على الشرع...

يلفت نظرنا تعليق الكواكبي الذي يتوقف عند هذه الآية قائلا: "**تقرأ وتفسر بكـل الاعتـناء في مملكتنا، كأنها وحدها عبارة عن القرآن كله، ولكنها تفسر تفسـيرا مخالفا بالكلية لأقوال المفسرين الكرام، وكثيرا ما يكتفي بذكر (أولي الأمـر) ويقـال علـى الدوام أن المراد بهم هو السلطان، مع أن كلمة (أولو) جـاءت جمعـا بمعنى الأصحاب، ولا يبين أبدا ما يجب عليهم من الطاعة لله ولرسوله.**

إذاً الغاية من التوقف عند أقوال جماعة المفسرين هي العودة إلى الأصول، وكشـف الانحـراف الـذي يمارسه ذوي السلطة حين يرددون هذه الآية، دون غـيرها، وهـم لا يكتفون بذلك بل يرددون تفسيرات بعيدة عن الصواب، وهم يـتعمّدون مـثل هـذه التفسيرات المحدودة كي تخدم مصالحهم، وبذلك يعطون لاستبدادهم شرعية دينية! والدين منها براء!

لذلـك نسـمعه يقـول فـي المقالة نفسها "**وهكذا يا أولي الآداب كثير من تـأويلات مـا أنزل بها من سلطان ولا روي عن النبي (ص) ولا عن خلفائه الراشـدين ولا عمن تبعهم بإحسان، ولا يطابق العقل والحكمة ولا الإنسانية والعـرفان، بـل يجعـل عـباد الله أسارى وأرقاء لمن يتبع هواه، ولا يكترث بسـواه، فـافهموا رعـاكم الله، كـيف تمكن الاستبداد منا، وصيرنا بحيث لا نسـتطيع الـتخلص مـن نـير الظلم، والاعتراف لا العمل بما يهواه من يذلنا ويقهـرنا، حسـبما يرضاه، تعالى الله عما يقول الظالمون.علوا كبيرا، نسأله تعـالى أن يبـيد بحوله وقوته من يفتري عليه الكذب، ويخدع عباده ويضلهم عن الصراط المستقيم(12).**

إن الغايـة من هذا المقال أن يبين مدى استغلال السلطة المستبدة لهذه الآية الكـريمة، ومدى الانحراف في التفسير الذي تنشره، وتؤسس رؤيتها الأيدلوجية علـيه، لـتخدع بها العامة، دون أن يهمّها الابتعاد عن أصول الشريعة (القرآن والسـنة) والابـتعاد عن إجماع المفسرين من علماء المسلمين، وهو بذلك يبيّن للمتلقـي أن آراءه فـي تفسـير هذه الآية تنسجم مع أراء هؤلاء المفسرين، أي تنسجم مع الفهم الحقيقي للدين الذي قدّمه علماء العصور الماضية.

وهكـذا نجـد الكواكبي، في مقالاته، يفضح أساليب المستبدين في استغلال العاطفة الدينية، وتقديم تفسيرات مشوهة لآيات قرآنية، ليبرروا بها ظلمهم، لذلك

يـتوجه في نهاية المقال بالدعاء لله تعالى أن يقضي على هؤلاء المستبدين الذين يحرّفون كلام الله عن مواضعه، فيضلون الناس ويظلمونهم باسم الدين!

نظرا لأهمية هذه الآية فقد لاحظنا اهتمام الكواكبي بها، فقد ذكرها شارحا ومبيـنا مـدى اسـتغلال المسـتبد لهـا في جميع مؤلفاته ("أم القرى" و"طبائع الاسـتبداد" ومقالاته الصحفية") معتمدا في تفسيرها على جهده الشخصي وعلى جهد الذين سبقوه من المفسرين الفقهاء المشهود لهم بالعلم والدين.

5_ المقالة وأسلوب المناظرة والمقارنة:

يبدو لنا أن موضوع الخلافة كان موضوعا ملحا (عام 1900) لهذا سنجده فـي مقـال آخـر بعـنوان "ردّ رنّـان على رسالة تركي" لجأ فيه إلى أسلوب المـناظرة، وقـد وجدناه واعيا لهذا الأسلوب، الذي يدعوه بـ"المناظرة القلمية" فهـو يتخـيل أنها وقعت بين تركي مغولي وعربي قرشي في موضوع الساعة (في ذلك الوقت) وهو أيهما أحق بالخلافة العرب أو الأتراك؟

يذكـر الكواكبـي **دفـاع الفاضـل التركـي عن بني قومه**، ووصفه لهم بـ**الشجاعة والإقدام**، ثم نجده يورد **هجومه على العرب، فهم ضعفاء**، والدليل أنهـم الـيوم لا يسـتطيعون الدفاع عن بيضة الدين، فهم ليسوا من أولي البأس والقوة، كما لا عتب ولا ملامة إذا سلبهم الأتراك حقوقهم في الإمامة، وهو يؤكد رأيـه هـذا بصـورة شرعية، حين يقول: **إن حديث "الأئمة من قريش"** حديث ضعيف الإسناد! رواه أبو بكر لفضّ الخلاف فقط.

يلاحـظ المـتأمل أنـه قدّم وجهة نظر المناظر التركي على وجهة نظره الخاصة، وهو لا يسفّه وجهة نظره تلك، لذلك يمنح التركي صفة "الفاضل" دلالة علـى احـترام الآخـر المخـالف له في الرأي، حتى إننا نجده يذكر الصفات الإيجابـية التي يراها التركي في الأتراك (الإقدام والشجاعة والدفاع عن الدين) والصفات السلبية التي وسم بها قوم الكواكبي!! وخاصة صفات الضعف والعجز عن حماية الدين!

ثم يبين بأن الدليل الديني _ الذي يستند إليه العرب (وهو الحديث الشريف الـذي ذكـره أبـو بكر) _ دليل ضعيف لا يؤكد أحقيتهم بالخلافة، مادام حديثا ضعيفا لا يملك سندا قويا.

بعد أن أفسح المجال للمناظر التركي أن يعرض رأيه ويمدح قومه ويهاجم

العــرب، نجده يفسح المجال للمناظر العربي دون أن يفصح عن اسمه، بل نلمح هويــته (عربي قرشي) لذلك نستنتج أنه يتكلم بلسان الكواكبي، الذي يمثل وجهة نظــر العرب، فنجده يبدأ بأقوى حجج التركي (الحديث الشريف) في عدم أحقية العــرب بالخلافة، فيبين أنه حديث قوي الإسناد، ويأتي بدليل على قوته أنه أفلح فــي فـضّ الخلاف بين المهاجرين والأنصار إثر وفاة الرسول (ص) كما أنه مذكور في أهم كتب الحديث **لفخر المحدّثين (البخاري).**

ثــم يبدأ بتفنيد الصفات السلبية التي ألحقها المناظر التركي بالعرب، فيقارن بيــن أســوأ الخلفاء العرب وأفضل خلفاء الدولة العثمانية؟ فيجري مقارنة بين **أشــأم العرب من الخلفاء يزيد بن معاوية وقتله للحسين وبين أعدل خلفاء آل عثمان سليمان القانوني الذي أعدم في عصره آلاف المسلمين في إسبانيا دون أن يحرك ساكنا فقد كان مشغولا بالتمتع بملذاته!**

فإذا كان أشأم خليفة عربي قد قتل حفيد رسول الله (ص) والفئة القليلة التي كانــت معــه، فــإن أعدل خليفة عثماني قتل في زمنه آلاف المسلمين دون أن يحرّك ساكنا! وقد وجدناه يمعن في الحديث عن انحراف سليمان القانوني، وهو أفضــل سلاطينهم، فنجده لا يهتم إلا بأن يذكره المسلمون في الخطب، معترفين بســلطته، حــتى لو كان هذا الاعتراف اسميا. **إذ حين تمّ إنقاذ خمسين ألفا من المســلمين الهاربين من إسبانيا، واحتموا بحكومة إسلامية في شمال إفريقيا، أرسل لهم سليمان القانوني يقول "سمعنا أنكم أسستم حكومة في شمال إفريقيا فاذكــرونا فــي الخطب" فإذا كان أعدل ملوك آل عثمان لا يهمه شيء من أمر المســلمين مهمــا وصلوا إليه من هوان إلا الاعتراف بسلطته، مع أن الدولة قويــة قــادرة على حماية الإسلام، ولم ينازل لحمايته، فهل ينتظر من الأتراك خير في هذا العصر وهم ضعفاء وحكومتهم فاسدة؟**

وبذلــك يــردّ على ادعاء المناظر التركي حين وصف الأتراك بالشجاعة وحمايــتهم للديــن الإســلامي، فهم حين كانوا أقوياء عجزوا عن قتال الإسبان والدفاع عن المسلمين في الأندلس، فكيف يستطيعون اليوم حمايتهم وهم ضعفاء! وهــو يعلن بطريقة غير مباشرة ضرورة استقلال العرب عن الأتراك، ماداموا عاجزين عن حماية الإسلام.

وكــي يؤكد أحقية العرب في الخلافة نجد الكواكبي يمعن في المناظرة فــيقارن بين خليفة عربي قديم، عُرف بتصرفاته المجنونة، كما عرف بأحكامه الجائــرة (الحــاكم بأمر الله) وبين سلطان معاصر للكواكبي (عبد الحميد خان)

فيبيّن أن المسلمين في عهد الأول لم يصبهم الضرر كما أصابهم في عهد الثاني، فقد قتل ملايين المسلمين في عهد عبد الحميد أثناء الحرب التركية الروسية، إذ خاض هذه الحرب مع أنه لم يكن مستعدا لها، بل لم يخضها بأسلحته كافة!! حيث لم يستخدم السلاح الذي كان متفوقا فيه على الروس (وهو سلاح البحرية).

بالإضافة إلى ذلك نجده يسلط الضوء على تصرفات السلطان التي تصل حد التناقض، إذ تارة ينفي أحد الولاة الجيدين ويتهمه بالخيانة وتارة يعيده للعمل في منصب رفيع (كما فعل مع الوالي مدحت باشا حين وظفه واليا على الأناضول) ثم أمر بمحاكمته ثانية؟

وقد شمل التناقض ليس الأشخاص فقط، وإنما التعامل مع مؤسسات الدولة، فهو تارة يقرّ القانون الأساسي ومجلس المبعوثان (البرلمان) وتارة يقضي عليه ويفرّق أعضاءه، وقد وجدناه يذكر الكثير من التصرفات غير المعقولة لعبد الحميد، ثم نجده يقول بسخرية **هذه أمور معقولة تبين ماهية الرجل، وما هو منطو عليه، ومقاصده نحو الإسلام وأهله!!(13)**

نلاحظ هنا استخدام لغة المنطق البعيدة عن الاستعانة بلغة الأدب، لعل حساسية الموضوع وراء هذا الاستخدام، فهو يريد أن يقنع عامة الناس بوجهة نظره بأقرب الطرق إلى العقل، فيلجأ إلى ذكر التصرفات التي لا تدل على أن هذا الحاكم يستحق الخلافة، فقد وصل به الأمر إلى تصرفات غير معقولة لا يمكن أن تقارن بتصرفات الحاكم بأمر الله المجنونة!! حيث تبدو تصرفاته عاقلة لم تؤذ المسلمين بقدر ما آذتهم تصرفات السلطان عبد الحميد!

إن أسلوب المناظرة أتاح للمتلقي تأمل وجهتي نظر مختلفتين، كما أتاح له تفهم مدى الغبن الذي عاناه العرب، في العهد العثماني، خاصة في أواخر أيامها، مما يجعله يتعاطف مع دعوة الكواكبي لضرورة استقلال العرب عن الدولة العثمانية، وهذا هو الهدف الأساسي من إصراره على إصدار جريدة خاصة به، مهما تكبد من خسائر! لنلاحظ دلالة الاسم الذي اختاره لجريدته الأخيرة (**العرب**).

أعتقد أن اعتماد أسلوب المناظرة في المقالة أمر لا يستطيع القيام به إلا كاتب متميز، يمتلك قدرات فكرية عالية يضاف إليها ثقافة واسعة ومرونة في الرؤية بكل ما تعنيه من سعة أفق وانفتاح، وقد امتلك الكواكبي هذه الصفات فاستطاع أن يقدم لنا مناظرات متميزة، وإن كنا قد لاحظنا أنه قد أفسح المجال

واســعا أمام وجهة النظر العربية، أكثر بكثير مما أفسحه لوجهة النظر التركية، وهــذا أمر لا نستطيع أن نلومه عليه خاصة في ذلك العصر حين كنا نفتقد مثل هذه المناظرات، ولا ننسى أن للقهر الذي عاناه الكواكبي هو وقومه العرب أثرا في الحماسة لوجهة النظر العربية.

وقد كان أحد أركان أسلوب المناظرة لديه اعتماده المقارنة، بل نستطيع أن نعدّها أحد أبرز مميزات الكواكبي في معظم مقالاته، فهو لا يكتفي بالمقارنة بين الحكام كما لمسنا قبل قليل، وإنما نجده يقارن بين الأتراك وغيرهم من المعتدين علــى الشعوب الأخرى، يقول في افتتاحية العدد الأول من جريدة العرب **"على أنــنا لو قسنا فظائع الأتراك في اليمن لفظائع الإسبانية في أميريكا لوجدنا أن الثانــية أقــل شــرا، وأهون مصابا من الأولى، فإن الإسبان لما استولوا على أمــيريكا، رأوا أن الأميركانييــن يغايــرونهم في الجنسية والديانة والمعتقد، فشــددوا عليهم وطأة الظلم قصد إجبارهم على تغيير معتقداتهم وتبديل أديانهم حتى يسهل إخضاع بلادهم بأسرها، أما الأتراك فإنهم استولوا على اليمن، أي علــى أمة العرب، التي كانت سبب سعادتهم بإخراجهم من ظلمات الضلال إلى نور الهداية الذي استناروا به حتى صارت لهم دولة وسطوة واقتدار..."(14)**

تــبدو لــنا المقارنة بين تصرفات الأتراك في اليمن وتصرفات الأوروبيين أثناء غزو أمريكا، ليست في صالح الأتراك، الذين ارتكبوا في اليمن مذابح ضد المســلمين ، بــل كــان لأهل اليمن دور في نشر الإسلام، بل هم سبب هداية الأتــراك إلــى الديــن الإســلامي وخلاصهم من الوثنية في الماضي، فكيف يجرؤون اليوم على ذبحهم وهم إخوانهم في الدين!! في حين كان سكان أمريكا مــن الهنود الحمر يخالفون الإسبان في الدين، لذلك أرادوا تنصيرهم كي يسهل إخضــاعهم، فشــتان بيــن أهالي اليمن الذين كان لهم الفضل في نشر الإسلام وانــتقال الأتــراك من ظلمة الوثنية إلى نور الإيمان، وبين أهالي أمريكا الذين كانوا على الوثنية!

قد لا نستطيع اليوم أن نقبل بمنطق هذه المقارنة، التي تعدّ ما فعله الإسبان أقــل ســوءا ممــا فعله العثمانيون في اليمن، لكن علينا أن نحاكم الأمور وفق مقايــيس عصر الكواكبي، آخذين بعين الاعتبار معاناته وقومه من وطأة الحكم العثماني، كما أنه يخاطب متلقيا يعطي الإسلام القيمة العليا في حياته، لذلك يريد أن يوصــل إليه استباحة الأتراك دم المسلمين، وهو يزيد من فظاعة تصرفات الأتراك، فيهزّ مشاعر المسلمين ويستفزّها، حين يوضح أنهم ذبحوا أولئك الذين

أسهموا في نشر الدين الإسلامي!

6_ أسلوب السخرية :

يحتاج أسلوب السخرية إلى مقدرة غير عادية، ليس فقط على صعيد الموهبة الأدبية، وإنما على صعيد الموهبة النفسية والقدرة على التقاط ما يثير الابتسامة والمرارة معا، ومثل هذا يحتاج إلى حساسية خاصة، تشمل الأعماق الداخلية للمبدع والعالم الخارجي، كما يحتاج إلى المعرفة والقدرة على التقاط ما يستحق تسليط الضوء عليه، لهذا يبدو لنا أسلوب السخرية أسلوبا نادرا في الأدب كما في الصحافة.

وقد لجأ الكواكبي إلى هذا الأسلوب أحيانا، ففي مقاله الذي توقفنا عليه قبل قليل (في جريدة "النحلة" 1 نيسان 1879) نجده يسخر من انتشار الفساد في مدينته (حلب) حتى جعله جزءا من طبيعتها، لذلك فإن أي وال نزيه يأتيها لابد أن يفقد نزاهته بعد فترة، أي بعد أن يسري ماؤها في دمه، فيغير أخلاقه، ويبدل طبيعته، ومثل هذه السخرية خير تعبير عن مدى الفساد المستشري ليس لدى الإنسان بل تجاوز ذلك إلى أحد أهم مظاهر الطبيعة ا(الماء) الذي لا يمكن للإنسان الاستغناء عنه! لهذا بات داء الفساد مستشريا كالوباء، وعبر هذه السخرية نتعرف على حقيقة مؤلمة، وهي أن جميع الولاة منحرفون، فهم يشربون الماء الذي يسري فسادا في دمائهم!

تتكرر السخرية من الولاة في مقال آخر نشره في جريدة الأهرام (12 حزيران 1879) فقد وجدناه يقول **"جاء مبعوثان لمأمورية الإصلاح (دولتلو مظهر باشا وعزتلو نوريان أفندي)، فاستقبلهما الأهلون بمزيد من الاحتفال والمسرة، وأهّلوهما بالأفكار المقام الأعلى بغية أنهما عنصر حياة إصلاحنا... وقد كان من باكورة أعمال هذين الموظفين أنهما رحلا إلى مرعش، بعد أن أنس بلدنا فيهما عدة أيام دون أن نسمع عن أعمالهما المهمة سوى القول (سيصير هذا الأمر وسيتمّ الأمر الآخر وما شاكل من ألفاظ التنفيس والتسويف) وبلّغنا من نثق به أن أحدهما قال علانية: إن بلدنا بعيد عن الإصلاح على أن حضرة الوزير لم يشأ مبارحة بلدنا دون أن يبقي من أعماله أثرا للذكرى ذلك أنه استدعى أحد الموظفين وطلب منه تعيين ابنه ليكون كاتبا بمعيتهما براتب قدره ألف غرش، مع أنه يجهل التركية وضعيف في العربية أيضا، ولم تسبق له خدمة تؤهله إلى ذلك، وقد رماه الناس بالتنديد ولكن:**

وإذا المليح أتى بذنب واحد   جاءت محاسنه بألف شفيع(15)

يفضــح هذا المقال مقدار البؤس الذي عاناه الناس في ظل السلطة العثمانية التــي تدّعي الإصلاح، فترسل مبعوثين (وزيرين) من أجل القضاء على الفساد فــيزيدان المدينة فسادا! لذلك لا يجد الكواكبي أسلوبا يعبر عن بؤس هذه الحال سوى لغة السخرية، فيجسد لنا في البداية كيف احتفل بقدومهما الأهالي للاعتقاد بأن الخير آت والفساد مول، فحل هذان المنقذان المكان الأرفع في أذهان الناس، لكن يفاجأ الناس بأن أول إنجاز لهما هو ترك حلب والسفر إلى مرعش للترويح عــن النفس! ويستمر في السخرية فيبيّن كيف استأنست حلب بحضورهما دون أن يفعلا شيئا سوى الكلام وبذل الوعود!

ويمكــن أن يلاحــظ المــرء هنا إلى جانب السخرية مقدرة الكواكبي على التعبير الدقيق الذي يعتمد على الحساسية اللغوية التي لمسناها لديه في كتبه وفي مقالاتــه، لذلــك لا يكتفــي بالإشــارة إلى أن هذين الوزيرين يستخدمان ألفاظ التســويف بل يضيف إليها ألفاظ التنفيس، ومثل هذه الألفاظ التي تدلّ على فهم عمــيق لنفســية العامــة التي ترتاح للوعود وتصدقها بعد أن طفح كيل الفساد! فــيخفّ إحساســها بالتوتر، إذ نفس الكلام عن ضيقها! كما يدلّ على فهم عميق لأعمــاق المسؤولين الذين يكثرون من الوعود ليمتصوا نقمة الناس! نلاحظ أن هذه المماطلة (التسويف) تحيل الأفعال إلى وعود لن تتحقق في المستقبل، وهي تكاد تقومُ بالدور نفسه والإيحاءات ذاتها للفظة (التنفيس) لذلك تعمّد أن يكونا في صــيغة صــرفية واحــدة! كــي يفــيد من جماليات التكرار التي تتخذ دلالات تحريضية! وتتعزز السخرية من هؤلاء المصلحين!

وهو يستمر في السخرية، فيبينّ أن أحد المبعوثين صرّح بأن البلد بعيد عن الإصــلاح لــيريح ضميره!! لكن السخرية المؤسية التي تقطر مرارة هي التي لحظــناها في الفقرة الأخيرة، حين ترك أحدهما أثرا يخلّد ذكراه وذلك حين أمر بتعييــن ابــنه موظفــا براتب ضخم دون أن يملك من المؤهلات سوى أنه ابن مسؤول كبير! أتى لإصلاح البلدة فزادها فسادا!

يمكنــنا أن نقــول: بلغت اللغة الساخرة ذروتها، حين أتى بتناص شعري، يصــف الوزير المفسد بــ**المليح**، ثم بيّن ساخرا أن محاسنه الكثيرة التي لمسنا بعضها قبل قليل تشفع له مثل هذا الخطأ! وزيادة في السخرية لا يجعلها شفاعة واحدة، بل ألف شفيع! كأنه يشير إلى الدلالة النقيضة للفظة **محاسن** أي المفاسد التي ارتكبها في البلدة التي لحظنا منها الإهمال واستغلال المنصب!

لاشـك أن أسلوب السخرية يحتاج إلى مقدرة لغوية وتخييلية متميزة، وقد تجلـت هذه المقدرة لدى الكواكبي منذ وقت مبكر في مقالاته، خاصة تلك التي تـتخذ طـابع الـنقد الاجتماعـي وتلمـح إلى النقد السياسي، يقول في صحيفة "الاعـتدال (العـدد الأول عام 1879) في مقال يحمل عنوانا ساخرا هو (آثار **جغرافـية فـي حلب)** إذ نظن للوهلة الأولى أننا أمام مقال تاريخي، يتحدث عن مواقع أثرية في مدينته، نفاجأ بأن هذه المواقع هي أقذار وأوساخ متراكمة عبر الزمن!

"إن فـي حلـب بعض آثار جغرافية مهمة، نرى لبيانها لزوما قويا لأجل تصحيح تاريخ جغرافية حلب، فمن ذلك صحراء سوق الجمعة...وفيها سلسلة جـبال تحاكـي جبال أورال في ارتفاعها، وهي متكوّنة من أوساخ المدينة... ولشهرة هذه الصحراء -لا حاجة إلى تحديدها.

ومـن تلك الآثار أيضا بحيرة الكلاسة، وهي مستنقعة تتكون من اجتماع مـياه القـاذورات ...فـي هذه الأيام نضب ماؤها، ولا نعلم هل هذا من شدة حرارة هذا الصيف وهو الغالب أم من ثمرة دائرة همة دائرة البلدية الثانية...

ومـن الآثـار مزابل الحمامين التي هي في جسامتها وارتفاعها وشكلها المـربع والمستدير تحاكي أهرامات مصر المشهورة، وهي تتكون من الروث الطري، ويتسلق على هذا الشكل لأجل التجفيف، ولها فائدتان للمدينة: الأولى بخارها، والثانية: دخانها الذي ينتشر في سماء المدينة، فيظللها ويلطف عنها الحرارة صيفا والبرد شتاءاً!! وهذا كله من بعض فضل دائرة البلدية."(16)

يسـتخدم هنا أسلوب السخرية اللاذع الذي يحفر ألما في الوجدان، إذ عادة تحـتفل المـدن بآثارها التي تجلب لها السمعة الحسنة، لكن آثار حلب من نوع آخـر (جبال من الأوساخ، بحيرة من مياه القاذورات، مزابل ترتفع كالهرم) مما يسيء إلى سمعتها!

لذلـك يصفها هذا الوصف الساخر: آثار مهمة، يرى الكواكبي لزاما عليه أن يشـير إليها، كي ينتبه المسؤولون إليها ويسعون إلى إصلاحها، كي يتمّ إنقاذ حلب من هذا التشويّه في المنظر وقبح الرائحة!

كذلك يلجأ إلى الصورة الساخرة إذ تحولت فضلات المدينة إلى معلم أثري هام يضاهي في عظمته الأهرامات المصرية!

وقـد تتخذ السخرية للوهلة الأولى طابع التعليل العقلي لكن حين نتأمل هذا التعليل نجده بعيدا عن المنطق، فقمامة الحمامين التي تتكون من الروث الطري لها فائدتان: البخار والدخان، وهذا كلام يتخذ طابع التحليل العلمي، وحين نمعن الـنظر فـي هاتين الفائدتين نجد أنهما يتجليان أولا في بخار ينشر روائح نتنة، وثانيا في دخان يلطف الحرارة صيفا والبرد شتاء!!! وهذا غير معقول!

إن السخرية التي يمارسها الكواكبي في مقالاته ليست أسلوبا جماليا، يضفي تـنوعا على أساليبه فقط، وإنما هو أسلوب يساعده على أداء رسالته التنويرية، إنـه يلجأ إلى كافة الوسائل التي تساعده، ولعل الوصف الساخر أحد أهم عوامل الإبـلاغ اللاذع لرسالته، كي يستطيع عبر هذه الرسالة أن يحفز المتلقي وينمّي مشـاعر المرارة في أعماقه، لتؤرّقه وتحرّضه على التغيير، ومن جهة أخرى يحـرّض المسـؤولين علـى أداء واجبهم في الإصلاح، خاصة حين يبيّن مدى إهمالهم حتى إن الطبيعة تقوم بما عجزوا عنه، فتجفف المستنقع القذر بحرارتها رأفـة بحـال الإنسان وسمعة المدينة! لذلك نجده يختم المقال بعبارة غير بريئة واخزة بسخريتها (هذا كله من بعض فضل دائرة البلدية) تجسد مسؤولية رجال الدولة، وتبيّن مدى إهمالهم في الإصلاح مما أدى إلى ظهور هذه المعالم المنفرة في المدينة!

هـنا لـم يكتف بالتخييل الساخر، بل نجده يستخدم لفظا ينضح سخرية هو "فضـل" التي توحي لنا بدلالات نقيضة (سوء تصرف، إهمال...) ومن طرف خفـي يوحي لنا أن أمثال هذا الإهمال نلمسه بكثرة لذا جعل لفظة فضل مسبوقة بـ(بعض) إذ إن هناك آثارا كثيرة لإهمالهم لم يحدثنا عنها!

المقالة والموروث الديني:

تحـتاج لغـة المقالة إلى لغة ترتبط بالحياة اليومية، أي ترتبط بلغة الناس وهمومهم، ولو تأملنا لغتنا اليوم، بعد حوالي مئة سنة من وفاة الكواكبي للاحظنا أن الكثـير مـن مفـرداتها ذات صـلة بالموروث الديني، فما بالكم في زمن الكواكبي!

تمـتاز لغـة الكواكبي بحيويتها ونزوعها نحو الجمال التعبيري، ولعل أحد مصادر هذه الحيوية وهذا الجمال اعتمادها على لغة مألوفة لدى المتلقي، تعيش في وجدانه، وتؤثر في سلوكه اليومي هي لغة الموروث الديني، وقد استطاع أن يضـفي عليها رؤية خاصة به، نابعة من رغبته في التغيير والثورة على الحكم

العثماني، لذلك نلاحظ أن لغة الحمدلة التقليدية، تتحول على يديه إلى لغة حيوية موّظفــة لخدمة آرائه التنويرية "**الحمد لله المنتقم الجبار والصلاة والسلام على النبــي العربي وآله وأصحابه، أما بعد فقد أصدرنا هذه الجريدة باسم "العرب" بعــد الاتكــال على الله الموفق لصالح الأعمال، عاهدنا النفس على أن تتوخى سبيل الصدق والحق والإنصاف...**"(17)

يــتحول الأسلوب التقليدي (الحمدلة) على يد الكواكبي من قالبه الجامد إلى لغــة حيوية تجسّد معاناة الكواكبي وقومه من استبداد الحاكم الغريب، لهذا نجده يــتوقف فــي افتتاحــية العدد الأول من جريدة "العرب" عند صفات الله تعالى الكثــيرة، التــي تصل إلى تسع وتسعين صفة، فيختار صفتين (المنتقم والجبار) اللتيــن توحــيان بانتقام الله من الظالمين ويذكرهم بأن الله أقوى من جبروتهم، وبذلــك يبثّ الأمل في قلوب العرب، موحيا لهم بإمكانية القضاء على جبروت الدولــة العثمانــية مــاداموا يؤمنون بالله ويتخذون من قوته تعالى وانتقامه من الظالمين مثلا أعلى لهم، وحين يأتي دور الصلاة على النبي نجده يؤكد عروبته للأتــراك، ومن طرف خفي يذكر المسلمين من قومه بهذه الحقيقة في زمن بات الســلطان العثمانــي يدعي ما لا يحق له فينادي بنفسه خليفة للنبي العربي، بعد ذلــك يبيّن لقومه مفهوم التوكّل على الله لابد أن يقترن بصالح الأعمال وأفضل الصفات الأخلاقية التي دعا الدين إليها.

وبذلــك تــزود الحمدلة المسلم بما يحتاجه في صراعه مع الحاكم من مثل أعلى يقتديه، وهو مستمد من أركان إيمانه بالله والرسول، كما يذكره بحقائق قد تغيب عن ذهنه، فيستغل الحاكم جهله بها، ثم ينقي ذهنه من شوائب الأفكار التي تســيء إلــى فعاليته، وتبقيه في حالة الجمود والتواكل، فيدعوه باسم الدين إلى العمل والتزام مكارم الأخلاق.

وهو يحرص في العدد نفسه على ذكر الغرض الوحيد الذي دفعه لإصدار هــذه الجريدة "**هو الدفاع عن حقوق العرب...التي اغتصبها قوم لا أخلاق لهم ولا ذمــة ولا شــرف، قــد عاثوا في الأرض مفسدين، ولم يعبؤوا بنصوص الشرع الإلهي ومحكماته، فتراهم لا يكترثون بحدود السنة النبوية وبيّناتها، بل يتــبعون أهواءهــم في جميع أعمالهم، فيضلّون عن سبيل الله، ويضلّون عباد الله، فبــئس مــا هــم يعملون، وتعسا لأناس إليهم يميلون وآثارهم يقتفون، وباتباعهم كثيرا من الذنوب والمخازي يقترفون...**"(18)

تـــبدو لـــنا لغـــة التـــناص الديني واضحة، فقد استخدم لغة القرآن ألفاظا وتراكيب فبدت جزءا حيويا من لغته [عاثوا في الأرض فسادا ("سورة المائدة"، آيـــة 33) يتـــبعون أهواءهم ("سورة القصص"، آية 50) يضلون عن سبيل الله ويضلون عباد الله (سورة "ص " آية 26) فبئس ما هم يعملون ("سورة المائدة"، آية 62) وتعسا لأناس إليهم يميلون (سورة "محمد" آية 8)...] فيستغل ما تحمله مـــن قوة تعبيرية ودلالة قدسية تزيد من وضوح الدلالة وتأثيرها بما تمتلكه من مخزون عاطفي، إذ يرددها المسلم في عباداته.

نلاحـــظ أنـــه أجـــرى علـــى هذه التراكيب بعض التحوير لتناسب مقصده وتســـاعده على التأثير في المسلمين من أجل مقاومة الطغيان التركي، ومثل هذا التناص يبدو سمة أساسية من سمات أسلوبه.

وقـــد نجـــده يستعين بالنص القرآني بشكل صريح، أي دون أي تغيير أو تحويـــر، ففـــي موضـــوع خطير كشروط الخلافة، يبيّن أن علماء المسلمين قد اســـتخرجوها مـــن قوله تعالى لنبيه داود عليه السلام "**يا داود إنا جعلناك خليفة فـــي الأرض فـــاحكم بيـــن الـــناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله**"(**سورة ص، آية 26**) .

إن مـــن يقـــبل بالسلطان العثماني خليفة لاشك أنه إنسان جاهل لا علم له بأحكـــام الشـــريعة، لذلك يضع النص القرآني بين يديهم، باعتباره الحكم الفصل والحجـــة الدامغة التي توضّح للمسلمين أن الصفة الأساسية للخليفة هي أن يحكم بيـــن الـــناس بالعدل، لذلك نجده بعد ذلك يفصّل في الشروط، فيرى وجوب أن يمتلك الخليفة صفات الرجال ذوي الكمال! أي صفات القوة والشجاعة التي تلزم لتنفيذ الأحكام وإقرار الحق.

وحيـــن يـــتعرض الكواكبي للاضطهاد على يد الوالي (دولتلو كامل باشا) الـــذي أغلـــق جريدته "الشهباء" ثلاث مرات، فلا يجد الكواكبي أمامه إلا الخيال الـــذي يســـتمد مكوناته من المرجعية الدينية، كي يوضح مدى الاضطهاد الذي تعـــرض له، فنجده يقول: "**إن حضرة الوالي...ماذا يجيب إذا سئل في محكمة الإنســـانية عـــن ســـبب مقاومته، وبذل جهده في صدّ هذا المشروع الخيري ومعارضـــة القائميـــن به وإضرارهم ماديا وأدبيا، هل له من جواب يدفع عنه الحكم الحق، بأن السبب ليس إلا ما في فطرته من عداء للحرية**".

إن محكمـــة الإنســـانية التـــي يتخيلها الكواكبي وفق المنظور الديني تشكّل عزاء له، فقد جعلها صورة عن يوم الحساب، حيث يقف كل إنسان بين يدي الله

تعـــالى للمحاكمـــة، لذلـــك يتخيل الوالي الذي آذاه في ماله وفي سمعته، فكبّده خســـائر مادية ومعنوية حين أمر بإغلاق صحيفته، وقد مثل في هذه المحكمة، ليـــتلقى عقابـــه في الآخرة، مادام لا يلقاه في الدنيا، وبفضل هذا التخييل الديني يفـــرّغ الكواكبـــي بعـــض غضبه، ويحس تعويضا عن خسائره، مما يدفعه إلى متابعة نضاله متجاوزا إحباطه.

كذلك رأيناه يستغل لغة الموروث الديني في مقالاته لتأكيد وحدة المسلمين، فمـــثلا نجده في صحيفة "الشهباء" (ع4، 1_13 كانون الأول عام 1877) يكتب مقـــالا يشـــيد بمســـاندة مســـلمي الهند للدولة العثمانية، أثناء الحرب بينها وبين روســـيا، وذلك بإرسال المال إليها، فيقول الكواكبي "**إن إعانتهم المتواصلة إلينا الآن علـــى ما يظهر منهم من اشتراكهم معنا في الحواس سرورا وكدرا أعظم دلـــيل لمـــا لهـــم مـــن الميل والاحترام لمركز الخلافة الإسلامية، كما تقتضيه الشـــعائر الدينـــية اتباعا لمضمون الحديث الشريف "مثل المؤمنين في توادّهم كمثل الجسد إذا شكا بعضه تداعى سائره بالسهر والحمى"**.

وبمـــا أن الكواكبـــي إنسان متدين لذلك نجده حريصاً على الدقة في تقديم الـــنص الديني، وحين لا تسعفه الذاكرة على ذلك، يسرع إلى التصريح، بأنه لم يذكـــر الحديث الشريف بحروفه الصحيحة، لهذا وجدناه يقول (اتباعا لمضمون الحديث الشريف) فهو يذكر معناه اعتمادا على ذاكرته دون نصه الحرفي، وفي هـــذا دليل على إدراكه لحساسية النص الديني من جهة، فيستطيع أن يحوز ثقة المتلقـــي مـــن جهة أخرى، ليتمكن من التأثير فيه، وبذلك يستغل ثقافته الدينية، التـــي تســـعفه في تقديم الخطاب الديني بكل ما يحمله من دلالات مؤثرة تؤكد وحدة المسلمين.

إن اســـتخدام التناص الديني لدى الكواكبي يبدو لنا استخداما لا واعيا أحيانا باعتباره جزءا من لاوعيه المقدس الذي كوّن أعماقه عن طريق التربية والثقافة التـــي تلقاهـــا، حـــتى باتـــت جزءا من كيانه، باختصار إنها أثر من آثار البيئة المتدينة التي نشأ فيها، ولكن أحيانا يبدو لنا استخدام هذا التناص استخداما واعيا مـــن قـــبله، فهـــو يريد أن يوظّف الدلالات المقدسة للخطاب الديني التي تحرك وجـــدان الناس وتؤثر في فكرهم أكثر من أي خطاب آخر، إذ تكاد تشكل الثقافة الوحيدة التي كانوا يتلقونها في حياتهم.

المقالة والموروث الشعبي:

إلـــى جانب لغة الموروث الديني في مقالاته برزت لغة الموروث الشعبي، وإن كانـــت بنســـبة أقل من لغة الموروث الديني، فقد لاحظنا استخدامه بعض العبارات الشعبية (التناص الشعبي) في مقالاته إذ يعتمد المباشرة في القول ("إذا أردت الأمــر أن يمشي ارش" "من لـــه فم لابد أن يأكل" "لا تؤكل العشرة حتى تطعم التسعة"...) والكناية ("نزل الميدان" "سحب رجله"...) كناية عن الوالي في العصـــر العثمانـــي الـــذي لا يمكـــن إلا أن يمر بميدان الفساد ويسحب رجله باتجاهه!!

إنه يريد بهذا الاستخدام للغة الشعبية أن يجسّد الداء بلغة أهله الذين يعانون مـــنه، كمـــا يســـعى إلى تقديم الدواء باللغة نفسها، لهذا بدا حريصا على تقديم العـــبارة الشعبية بلغة فصيحة بسيطة، يستطيع الصحفي أن يتواصل عبرها مع القـــارئ العـــادي، فتصله الرسالة الإصلاحية التي يراها الكواكبي وسيلة إنقاذ للإنسان الذي غيّبه الاستبداد في ظلمات الجهل.

استخدم في مقالاته أيضا الحكمة التي هي ضمير الشعب وخلاصة تجاربه، بالإضـــافة إلى أنها بدت جزءا من تجارب الكواكبي مع الاستبداد الذي أرّقه في كـــل لحظة من لحظات حياته، لهذا كانت رؤيته الخاصة صدى لرؤية الحكماء الذيـــن ســـبقوه في المعاناة فشكلوا وجدان الناس، وبذلك وضع يده على الحكمة المـــتوارثة التي شكلت وعيه ووعي الآخرين، فقد تعلّم منها تداعيات الاستبداد وامـــتداد ظلاله ليشمل الحاكم وعامة الناس معا، لذلك لن يحمل سيف الاستبداد شـــخص واحد هو السلطان، وإنما يحمله كثير من الناس في وجه بعضهم بعضا لأن "**الناس على دين ملوكهم**" .

ويـــبدو لنا أن معظم المقولات الشعبية التي قدّمها الكواكبي ذات صلة بما يقـــال عن الفساد أو الاستغلال، نجده يقول في افتتاحية الشهباء (العدد العاشر، كـــانون الثانـــي 1877) "**وقد قالت الحكماء إذا ظهر الاختلال في أحد أطراف المملكـــة فعلـــى أهلها أن يبادروا لإصلاحه حالا، وإلا فإذا دام عشر سنين يعزّ اســـتدراكه ويـــنقطع الأمل من ملاقاته، وحينئذ يتعين الاجتهاد في منع امتداده إلـــى سائر الأطراف بإبدال جميع مباشري إدارته بغيرهم، وأما إذا ترك الأمر فـــلا يلبـــث أن ينتشـــر في المملكة عموما، وحينئذ لا يبقى فيها من لم تفسد أخلاقهـــم ليســـتعان بهـــم، وإذا فلينـــتظر لهـــذه المملكـــة ما ينتظر للبدر في**

عجز الشهر"(19).

حين نتأمل الحكمة التي أوردها في هذا المقال نلاحظ أنها حكمة عملية، تمس حياة الدولة وموتها، إذ يجعلنا نحس أنها على صلة حميمة بحياة الناس وصحتهم! فإن أي خلل في الدولة إذا لم يسارع لتداركه وعلاجه استفحل أمره وصعب شفاؤه، كالداء الذي يصيب الجسد، لذلك يرى ضرورة الإسراع بالعلاج، بعزل المفسدين في الدولة، خشية أن يمتدّ الفساد في أرجائها كلها، ويستشري فلا نجد رجلا صالحا شريفا يتولى أمورها!

يتخذ الكواكبي من حكماء لا يسميهم قناعا يقول عبره أفكارا تنويرية، تعلن خطورة إهمال الإصلاح وضرورة معالجة الفساد قبل استفحاله، وذلك بتنظيف الدولة من الفاسدين سواء أكانوا ولاة أم موظفين، وهو لا يكتفي بالتعبير المباشر ، وإنما يلجأ إلى التلميح أيضا عبر التشبيه، لذلك لم يقل: إذا لم يعالج الفساد في الدولة بأسرع وقت انهارت الدولة، وإنما شبّه مآلها إلى الغياب المؤكد بغياب القمر آخر الشهر عن صفحة السماء، ولاشك أن مثل هذا الكلام الخطير لا يستطيع أن يقوله بشكل مباشر لذلك يلجأ إلى التشبيه، كما لا يستطيع أن ينسبه لنفسه صراحة، لذلك يتوارى وراء أقوال الحكماء! التي تكتسب أهمية خاصة في المخيال الشعبي والرسمي.

وبذلك يؤدي التناص الشعبي دورين أساسيين: الأول إضفاء مصداقية واقعية، تجعل الأفكار التنويرية امتدادا للوعي الجمعي واللغة اليومية المتداولة بين عامة الناس، وبالتالي تبدو الحكمة مكونا أساسيا من مكونات شخصيتهم، مما يجعلها أقرب إلى لغتهم الخاصة وبالتالي أكثر تأثيرا في وجدانهم.

أما الدور الثاني للحكمة الشعبية فيتمثل في كونه وسيلة فنية تتيح للكواكبي حرية التعبير عن أفكار خطيرة، سيحاسب عليها فيما لو أتت على لسانه بشكل مباشر، لذلك يقدّمها للمتلقي الرقيب على لسان الحكماء المجهولين، وهو يحرص على جمالية التعبير لذلك يلجأ إلى التشبيه الذي يمنحه حرية تجسيد الفكرة مهما كانت خطيرة، كما يزوّد النص بجمالية خاصة، تجعله أكثر قربا من المتلقي.

يلفت نظرنا التنوع الكبير في ثقافة الكواكبي، وهذا ما وجدناه في كتابيه "أم القرى" و"طبائع الاستبداد" ومقالاته الصحفية، وخير دليل على ذلك تنوع التناص لديه:

1. التناص التراثي: التناص الديني (قرآن كريم، أحاديث شريفة، أقوال آل

البيــت والخلفاء الراشدين...) والتناص الشعبي (حكمة، مثل، عبارات شــعبية...) كمــا وجدناه قد اطلع على الكتب التراثية الهامة، ليستفيد منها استفادة واعية (مقدمة ابن خلدون...).

2. التــناص الغربـــي: استمد من التاريخ الغربي القديم (نيرون) والتاريخ الحديــث ورجال السياسة(مكماهون) كما وجدناه قد اطلع على مؤلفات غربـــية ليستفيد منها استفادة مبدعة (كتاب "ما هو الاستبداد" لفيتوريو الفييري....).

جماليات المقالة لدى الكواكبي:

لكــن حين نتأمل لغة الموروث التراثي ولغة الثقافة الغربية نلاحظ سيطرة التــناص التراثـــي على خطاب الكواكبي وخاصة التناص الديني، نظرا لأهميته ودلالاتــه المقدســة، وفعالـــية لغته في التواصل مع العامة والتأثير فيهم، كما لاحظنا سابقا.

وبـــناء علـــى ذلــك يمكنـــنا القول بأن السمة الأساسية من سمات أسلوب الكواكبـــي، التـــي منحت مقالاته جمالية خاصة هي اللغة الدينية، فكان التعبير بمفردات وجمل ذات دلالات دينية فاعلة وحيوية إحدى خصائص التعبير الأدبي لديه، لنتأمل فقط هذه الجملة التي يختم بها افتتاحية العدد الرابع من "الشهباء" **"لا نقـــول هيهات أن يوجد في صلصال الشرق إبريز بل نقول وما شيء على الله بعزيز"** .

وقد جاءت هذه الخاتمة بعد أن تحدث عن شيخوخة الدولة وانهيارها، لهذا يخـــتار خاتمة ينعش عبرها الأمل، ويرد على أولئك المحبطين من أبناء الشرق الذين لا يرون حولهم سوى الوحل الذي يغطي حياتهم، ويبيّن لهم أن الذهب قد يختبئ في هذا الوحل! وهو يستغل كون المتلقي إنسانا مؤمنا، فيبيّن أن الله قادر علـــى صنع المعجزات، مما يبعث الأمل في الصدور، لذلك تبدو حالة الضعف التـــي يعيشـــها الشرق حالة آنية لابد أن تتغير، المهم أن يمتلك الإنسان الإيمان بالله والعمل والأمل.

يـــبدو لـــنا الكواكبي في مقالات مفكرا أديبا يهمه التغيير، لذلك يبدأ من أعماق الإنســـان الذي يعاني من الاستبداد والفساد فينظر إلى الحياة نظرة سوداوية، فيحاول أن يهـــزّ قـــناعاته ويبيّـــن إمكانـــية تغيير هذا البو ن والانحطاط، فرأى في الكتابة الصحفية إحدى وسائل المثقف التي تدل أولئك المحبطين على بداية الطريق.

صـــحيح أن الكواكبـــي لم يستطع أن يتخلص من بعض السمات الأسلوبية الشـــائعة فـــي عصره كالمحسنات البديعية، فقد لحظنا، في الجملة السابقة على ســبيل المـــثال، الجناس (إبريز/ عزيز) والطباق (صلصال/ إبريز) لكن هذه المحسنات لم تشكل عبأ، باعتقادنا، على اللغة الصحفية لدى الكواكبي، بل زادت لغـــته وضوحا في التعبير وجمالا في التصوير والإيقاع، ويمكن القول أن هذه المحسنات لم تكن سمة أساسية تكبل أسلوبه، وإنما تأتي أحيانا لتزيد أسلوبه تألقا وحيوية.

كمـــا يمكنـــنا القول بأن اللغة الأدبية كانت مكونا أساسيا من مكونات لغته الصـــحفية، وقد برزت لنا شخصية الكواكبي الأديب منذ أول مقال استطاع جان دايه العثور عليه في جريدة النجاح (ع 33، 27 آذار 1872 المأخوذ عن جريدة الفرات) فها هو ذا يصف حفلة مدرسية في حلب، قام طالب فيها **"بالثناء ببلاغة علـــى مـــا فاز به هذا العصر المأنوس من نصرة العلوم وافتتاح معاقل الآداب التي طالما حاصرتها جيوش التعصب و العدوان وحجبت سطوع أنوارها على الأمـــة...فـــيا ليت مكاتب[مدارس] الولاية كلها كانت تنحو هذا النحو، فكم في تشـــخيص الحـــوادث القديمة من الإفادات التي تحرّر العزيمة وتنبّه الفضيلة، وتؤنّب الرذيلة، وترفع عقول التلاميذ...وأين ذلك كله من تشاغل الأكثرين عن بـــذل الجهـــد والعناية في تأديب الأولاد إذ يتركونهم عرضة لافتراس وحوش الخشنية والبربرية عندما يقطعونهم عن المكاتب ويصدونهم عن أسباب التعلم والتأدب..ويا للمصيبة حين يغدو الوالدون عثرة لأولادهم بالمثل والعمل"(20).**

تمـــتاز اللغـــة الأدبية عادة بالانزياح عن سياقاتها المألوفة (نصرة العلوم، افتـــتاح معـــاقل الأدب، جـــيوش التعصب، تحرّر العزيمة، تنبّه الفضيلة، تؤنب الـــرذيلة...) فهـــي لغة تعتمد جمال التعبير والتخييل متجاوزة بذلك الاستعمال اليومـــي للغة، والكواكبي يتعمّد استخدامها كي يستطيع التأثير في المتلقي بشكل أقـــوى، لنتأمل هذه الصورة التي تبيّن حالة إهمال تعليم الآباء لأبنائهم فيضيّعهم الجهـــل، يشبهها الصحفي بصورة مؤثرة: إنها تشبه حالة ترك الأولاد في غابة تفترســـهم فيها الوحوش، وهكذا يبدو الجهل لدى الكواكبي معادلا فنيا للوحوش التي تقضي على الحياة الإنسانية!

لاحظـــنا مع بدايات ممارسة الكواكبي للكتابة الصحفية طغيان اللغة الأدبية على لغة اليومي المعيش، دون أن يعني هذا القول اهتمامه بالصنعة الأدبية على حســـاب الهم المعرفي والتنويري، لكن مع تطور ممارسته الصحفية ستخف هذه

الظاهرة، وسنجد سطوع لغة الفكر ومرونتها في مرحلة النضج، دون أن يتخلى عـن جمـال التعبـير والاستعانة بلغة الأدب، التي تبدو منسجمة مع لغة الحياة اليومية للكواكبي أي لغة الهم السياسي.

لنتأمل هذا التطور في مقالة له في جريدة "العرب" (1900) وهي آخر جريدة أصدرها الكواكبي يهاجم فيها أولئك الذين **"يدعون بطول العمر وبقاء الحياة لقوم هـم أبعـد الـناس عن شروط الخلافة، وقد انتحلوا لقب الخلافة بهتانا وزورا، وأقبلوا على المناهي والمنكرات، وجعلوا يخرّبون ملكهم ويهدمون ديارهم بما لم يـأت بمـثله الـزمان مـن المظـالم وقبايح الأعمال ويسلمونهم إلى أعدائهم، ويجـتهدون فـي تبديد ما بقي لهم من المنعة والسلطان، ويهتكون أعراضهم، ويسـلبون أموالهم بجميع ما تصل أيديهم الأثيمة من الوسائط، ويكيدون لهم كل يوم مكائد شنيعة ويغتالونهم اغتيالا تقشعر عند استماعه الأبدان وتتفتت الأكباد، بـل تتصدع له الجبال والصخور لو كانت تسمع كما يسمع الذين يدعون لأولئك الغاشـمين بالبقاء في مساجدهم التي هي لله تعالى وتبارك ...فيا أيها المسلمون مـتى تتنبهون من سباتكم الثقيل، وترتدعون عن غيكم الوبيل، فتنصبون خليفة من القرشيين، يصلح للخلافة ويملك شروطها؟"(21).**

تبدو لنا لغة الكواكبي الصحفية، هنا، أكثر سلاسة وحيوية، صحيح أنها لم تخـلُ مـن المترادفات والسجع، لكنها بدت أكثر مرونة من مرحلة البدايات، إذ قلّـت اللغة التصويرية، واستعاض عنها بالأفعال الحركية التي تزيد المعنى تألقا وفعالية (انتحلوا، أقبلوا، جعلوا يخربون، يسلمون، يغتالون، ...).

وحين أراد أن يجسّد هول أفعال وأقوال تصدر عن أعوان السلطة العثمانية المـنافقون (منها الدعاء للسلطان في المساجد، مع أن هذه المساجد خصصت لله تعـالى!) نجـده يسـتخدم أسـلوب المبالغة التي تبرز فظاعة ما يرتكبه هؤلاء المـنافقون مـن إثم، تتفتت له الأكباد، وتتصدّع له الجبال والصخور، إذ قدّسوا الطغاة، مع أن التقديس في الإسلام لا يكون إلا لله تعالى!!

لكـنه في خاتمة المقال حين يتوجه بالخطاب إلى عامة المسلمين غاضبا، نجـده يكـثف لغـته الانفعالـية عبر إيقاع قوي، فيلجأ إلى جملتين متوازنتين يؤطـرهما السجع "فيا أيها المسلمون متى تتنبهون من سباتكم الثقيل، وترتدعون عـن غـيكم الوبـيل" وقـد اختار لغة تحريضية ذات دلالات قوية، لذلك جعل للسـجع أحـرفا ذات إيقـاع قوي (الميم، واللام والنون المسبوقان بحرف المدّ) لـيرن جرسـها فـي أعمـاق المتلقي لعلها توقظه من سباته! فلا يقبل التعظيم

والتقديس إلا لله تعالى.

وهكذا لم يستخدم الكواكبي هذه المحسنات للزينة كما كان شائعا في عصره، وإنما استطاع أن يوظّفها لتصبح منسجمة مع فكرته، مما يجعلها أكثر رسوخا وتأثيرا، ليضمن تفاعل المتلقي مع رسالته التنويرية، لذلك بإمكاننا أن نلاحظ أن هذه اللغة استطاعت أن تضفي حيوية تعبيرية على المقالة الصحفية، ولم تكن قيدا يكبلها، وقد كان للممارسة الدائمة للغة أثر في تطويرها (سواء في الكتابة الصحفية أم في تأليف الكتب، أم في كتابة شكاوي الناس ضد ولاة الأمر الفاسدين) حتى يمكننا القول بأن معاناة الكواكبي اليومية للاستبداد كانت تتجلى لديه عبر الكتابة التنويرية، فهو أحد الذين نقلوا اللغة من قوالبها الجامدة إلى نبضّ الحياة وهمومها.

لذلك كان الكواكبي، إلى جانب رواد النهضة الآخرين، قد أسهم بالإصلاح الفكري واللغوي معا، فإذا كنا لم نجده يصرح بهذا، فإننا رأينا غيره من روّاد النهضة، كالإمام محمد عبده الذي يقول "**ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين، الأول: تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف...**

أما الأمر الثاني فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير، سواء كان في المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها، أو فيما تنشره الجرائد على الكافة ... كانت أساليب الكتابة في مصر (وغيرها من البلدان العربية) **تنحصر في نوعين، كلاهما يمجه الذوق في لغة العرب...الأول ما كان مستعملا في مصالح الحكومة ومما يشبهها، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات رثّ خبيث غير مفهوم، ولا يمكن ردّه إلى لغة من لغات العالم لا في صورته ولا في مادته...والنوع الثاني ما كان يستعمله الأدباء والمتخرجون من الجامع الأزهر، وهو ما كان يراعى فيه السجع وإن كان باردا، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس وإن كان رديئا في الذوق لا ينطبق على اللغة العربية...**"(22) .

إن أي تجديد فكري لا يمكن للغة تقليدية أن تعبّر عنه، لذلك وجدنا روّاد النهضة روّادا في اللغة العربية الجديدة التي خلعت عنها ثوب الجمود لتعبر عن توق للحياة الناهضة.

بناء على ذلك يعدّ الكواكبي أديبا ومفكرا أسهم في تجديد اللغة العربية عبر المقالة الصحفية إلى جانب رواد أدباء ومفكرين عاصروه أو سبقوه في هذا

المجـــال فـــي بلاد الشام ومصر، فمعظم الأدباء البارزين والمصلحين مع بداية النهضـــة كـــانوا صـــحفيين، أسسوا صحفا خاصة بهم أو أسهموا في تحريرها ("الـــتقدم" لأديـــب اســـحاق "الجوائـــب" لأحمد فارس الشدياق، "الجنة" لبطرس البستاني (أوكل رئاسة تحريرها لابنه سليم البستاني) "المنار" محمد رشيد رضا، "العروة الوثقى" جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده...) بل وجدنا بعضهم صديقا للكواكبي، ما إن تغلق السلطة العثمانية جريدته، حتى يفسح له المجال ليكتب في صحيفته متحديا السلطة العثمانية، لذلك نجده يراسل ("النجاح" "النحلة" "الأهرام" "المصباح" "لسان العرب" "التقدم"...).

يلفـــت نظـــرنا هذا التواضع الجم الذي لحظناه لديه، رغم مواهبه المتعددة وإنجازاته، لذلك استطاع أن يقدم ما ينفع الناس ويمكث في الأرض، فمثلا يختم افتتاحية العدد الأول من جريدة "الشهباء" بقوله **"نرجو من مطالعي صحيفتنا هذه أن يغضّوا الطرف عن ذلك القلم الفاتر وخلل الخاطر الضعيف القاصر، وينظر بعين السماحة والرضاء، فيستروا ما يبدو من أخطاء ونقصان، فإننا مشاة بين فرســـان هـــذا الميدان، ومبتدئون بما لم نأتلف عليه ولا بلغ مقامنا بعد إليه، ولكـــن حكم الدهر والزمان على أوطاننا بالخلو والحرمان سوّغ لنا اقتحام هذا المضمار مع قصور في الصناعة والبضاعة والأفكار، فنرجو العذر، فإن قبوله من شيّم الكرام"**(23) .

لابـــد أن يـــتأثر المـــرء بهذا التواضع الجم، الذي يوحي لنا برؤية موضوعية للـــذات، وبمقدرة على النقد الذاتي قلّ أن نجدها لدى المثقف العربي! من هو الكاتب العربي اليوم الذي نجده يصف كتاباته بمثل هذه الصفات؟ (القلم الفاتر، خلل الخاطر وضعفه، أخطاء ونقصان، كاتب مبتدئ، قصور في البضاعة والصناعة!!) .

كمـــا نلمـــس لديـــه شعورا بالامتنان لمن سبقه من الكتاب، فنجده يصفهم بالفرسان ويعدّ نفسه من المشاة قياسا لما أنجزوه في ميدان الصحافة!! ومثل هذا الشـــعور يحفزّ المرء على تقديم أفضل ما لديه، فلا يكتفي أن يتبع الآخرين بل يحاول بذل جهده كي يصل إلى سويتهم بل يتجاوزهم أيضا.

نلاحـــظ هـــنا كما لحظنا في مقالاته السابقة كيف طغى إحساس المسؤولية تجـــاه الوطـــن المهـــان، فكان دافعا للكتابة لديه، فقد آلمه ما يعانيه من تخلف وضعف، لذا بدا راغبا في المشاركة بالنهضة، فجنّد قلمه وسيلة تنويرية، يقاوم عبرها الاستبداد، ويسهم في نشر الوعي لدى الناس كافة.

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحواشي:

1. جان دايه "صحافة الكواكبي" ج1، مؤسسة فكر للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 1984، ص13.
2. جان دايه "صحافة الكواكبي" ج2 "جريدة العرب" فجر النهضة، انطلياس، ط1، 2000، ص21.
3. علي حرب، "مجلة عالم الفكر" الكويتية، يناير_مارس،2001، ع(29) ص118.
4. صحافة الكواكبي ج1، ص139.
5. صحافة الكواكبي ج2، ص51.
6. صحافة الكواكبي ج1، ص172.
7. المصدر السابق، ص173.
8. المصدر السابق نفسه، 149.
9. نفسه، ص146.
10. ابن خلدون "مقدمة ابن خلدون" دار القلم، بيروت، دون تاريخ، ص134_135.
11. صحافة الكواكبي، ج2، ص55.
12. المصدر السابق، ص62_65، بتصرف.
13. المصدر السابق نفسه، ص58_61، بتصرف.
14. نفسه، ص40.
15. صحافة الكواكبي، ج1، ص174.
16. المصدر السابق، ص165_166.
17. صحافة الكواكبي، ج2، ص37.
18. المصدر السابق، ص43.
19. صحافة الكواكبي، ج1، ص158.
20. المصدر السابق، ص169_170.
21. صحافة الكواكبي، ج2، ص46.
22. طاهر الطناجي (عرض وتحقيق وتعليق) "مذكرات الإمام محمد عبده" سيرة ذاتية، سلسلة كتاب الهلال، ع 507، رمضان، مارس، 1993، ص26_27 .
23. صحافة الكواكبي، ج1، ص140.

■ ■

الخاتمة:

يمثل الكواكبي ظاهرة تكاد تكون فريدة في الفكر العربي الحديث، إنها ظاهرة انسجام قول المفكر بفعله، لذلك يعدّ ابنا باراً بعصره، فقد كان صوت الحق الذي يعلو في وجه السلطة الظالمة، يحمل سيف الكلمة الصادقة مدافعا عن حقوق أبناء أمته، وموقظا لهم من غفوتهم.

وقد دفّعته سلطة الاستبداد ثمنا باهظا لمواقفه الثائرة وأفكاره التنويرية التي حاول أن ينشرها، ويساعد عبرها الناس بأية طريقة (تأليف الكتب، الكتابة الصحفية، كتابة الشكاوي ضد المستبدين للأميين وغيرهم من المظلومين...) فعانى صنوف الآلام والاضطهاد من أجل مواقفه الصلبة وكتاباته التي تفضح مساوئ الاستبداد، وتقرر المواجهة الواعية عبر الدراسة والتحليل، تبرز الداء وتصف الدواء، وهو بذلك يخاطر بحياته (حكم عليه بالإعدام في حلب، تعرض للاغتيال، ثم قتل بالسم في مصر) بل نجده من أجل نشر أفكاره وكتبه يخاطر باستقراره، ويهجر موطنه وأسرته في (حلب) .

استطاع الكواكبي بهذه الهجرة أيضا أن يقدّم مثلا حيا لمقاومة المستبد، حتى في رفض الإقامة في أرضه، فقد لجأ إلى المقاومة بكل ما يستطيع من وسائل، وحين أحس بأنه يكاد يستنفد جميع هذه الوسائل، سمعناه يردد ما جاء في الأثر "**من أعان ظالما على ظلمه، سلطه الله عليه**" لذلك كانت الهجرة من الوطن إحدى وسائل المقاومة، ورفض الإقامة في أرض الاستبداد! لأنها ستضطره للسكوت على الظلم وهذا في رأيه إعانة للمستبد، الأمر الذي يعني إخلالا بتعاليم دينية آمن بها، إذ "**إن أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**" ومن أجل كلمة الحق دفع الكواكبي حياته!!

ورغم مرور حوالي مئة سنة على اغتيال الكواكبي نجده معاصرا لنا، ينطق بهموم زمننا، التي هي هموم زمنه، فمازالت كلمة الحق التي نطق بها، والتي خاف أن تضيع في أودية الجهل، خير معين للعرب في يقظتهم، كي

يتجاوزوا تخلفهم، ويبنوا نهضتهم على أسس قويمة، حاول أن يقدمها لنا عبر جميع ما كتبه، فقدم، عبر الكلمة الأدبية الرفيعة، منهج عمل نهضوي يشمل مناحي الحياة كلها (الدين والأخلاق والتربية والاقتصاد والحكم...) كما تشمل المناحي التطبيقية للفكر والسلوك الخاطئ الذي يتبعه المثقف في حواره مع الآخرين (الإصرار على صحة آرائه، عدم سماع الرأي المخالف، ممالأة الاستبداد...) وهي أخطاء مازالت تعشّش في أعماق مثقف اليوم كما كانت تعشّش في الأمس!!

قد تختلف مع الكواكبي في بعض الآراء، لكنك حين تتأملها تحس أنها ابنة ظروف قاسية عاش وطأتها، فقد عانى هو وقومه العرب صنوف الاستبداد من السلطة العثمانية التي تحكم باسم الإسلام، لذلك رأيناه في كتابه "أم القرى" يفضل الحاكم الأجنبي، لأن الحاكم المسلم بات مشركا ظالما، لهذا من الأفضل شرعا وعقلا، في نظره، أن يحكمنا ملوك أجانب **لأنهم أقرب للعدل، ولإقامة المصالح العامة، وأقدر على إعمار البلاد وترقية العباد!**

ولا نستطيع أن نقول إن هذا الرأي تبناه جميع أعضاء رابطة "أم القرى" إنما طرحه أحد أعضائها (المرشد الفاسي) وقد ورد بين جملة آراء تبحث في سبل الخلاص من الحكم الاستبدادي.

سيكتشف الكواكبي في وقت لاحق حقيقة هذا الأجنبي (الاستعمار الإنكليزي) أثناء إقامته في مصر، لذلك وجدناه في كتابه "طبائع الاستبداد" ومقالاته الصحفية يفضح تناقض هذا الأجنبي واهتمامه بمصالحه فقط!

يدهشنا هذا الوعي المبكر لأهمية الموروث الديني في حياة الناس، فرأى ضرورة تجديده وإنقاذه من المشعوذين، ليصبح منهج حياة، يجدد على أساسه المجتمع، لذلك قدّم دراسة وافية لبعض الآيات القرآنية التي شوّه تفسيراتها رجال الاستبداد الذين يدّعون التدين، ليجعل بذلك من النصوص الدينية الأصيلة (القرآن الكريم والحديث الشريف) بداية النهضة والقضاء على الاستبداد.

وهكذا استطاع الكواكبي أن يمتلك حيوية فكرية، لعل خير دليل على ذلك مقدرته على تطوير رؤيته الفكرية شأن كل مفكر أصيل، أي يطوّر، في الوقت نفسه، أسلوبه في الكتابة شأن كل أديب أصيل، فاستطاع بذلك أن يجسّد لنا انسجام التطور الفكري والأسلوبي، فكانت اللغة لديه نبض الفكر وروحه، وبذلك استطاع أن يقدّم لنا لغة جديدة تجسد فكرا مبدعا!

تجلت موهبة الكواكبي الأدبية في تنوع أساليبه التي هي نتيجة حيوية

أفكـــاره، ورغبته في التواصل مع المتلقي والتأثير فيه، فلجأ إلى أسلوب القصة، والمناظرة، والمقارنة...الخ كما عمد إلى التخييل والسخرية والمبالغة، باختصار عمد إلى كل ما من شأنه أن يزيد فكرته وضوحا وجمالا.

صـــحيح أن الكواكبي لم يستطع في بعض الأحيان أن يتجاوز لغة عصره، لكـــنه استطاع أن يطوّع هذه اللغة ويكسبها مرونة، فلم نجد المحسنات البديعية التـــي استخدمها تثقل كاهل النص لديه، فقد تمكن من توظيفها في خدمة الفكر، واســـتغلّ ما تملكه من إيقاع كي يجعل الفكرة أكثر تأثيرا وحيوية، وقد استطاع، شأن المبدعين الكبار، أن يطوّر لغته مع الزمن بفضل الممارسة اليومية للكتابة في الصحافة والتأليف من جهة وفي كتابة الشكاوي في مكتب المحاماة من جهة أخرى.

إذاً حـــاول أن يـــنهض باللغة من قوالبها الجامدة كما نهض بالفكر، فكانت لغـــته صورة لفكره الذي كان يطمح إلى تجاوز المألوف، دون أن يقطع صلته بالأصول الحية التي مازالت فاعلة في حياتنا، فأبعد الركود عن فكره، كما أبعد الجمـــود عن اللغة، وذلك بفضل تحول الكتابة إلى تجسيد حي لمعاناته اليومية، يـــؤرّخ عـــبرها القهـــر اليومي الذي يتعرض له هو وأبناء وطنه، كما تؤرخ صـــراعه مع الاستبداد، فصارت الكلمة، على يديه، أحد الأسلحة الرئيسية التي يقـــارع بها المستبد، لذلك ليس غريبا أن تتطور اللغة على يديه، بل نستطيع أن نعـــدّه أحد أبرز رواد النهضة الذين قاموا بإحياء اللغة العربية حين أقدموا على إحياء الفكر من أجل تجاوز عصور الانحطاط.

لعل ميزة الكواكبي عن غيره من المصلحين أنه استطاع أن يوّظف مقدرته الأدبية وثقافته الدينية من أجل ابتكار خطاب يصل إلى العامة، فينهض بعقولهم وبوجدانهم معا.

وهكـــذا بـــدا لـــنا الكواكبي رجل القول والفعل، اجتمع لديه الإبداع الأدبي بالإبداع الفكري، وامتزجت لديه الرؤية النظرية بالرؤية النضالية، فقدّم لنا فكرا أصـــيلا، مـــازال يصلح لعصرنا، لأنه ابن التجربة المعيشة والجهاد اليومي، إذ شهر جميع الأسلحة التي يملكها في وجه المستبد.

ومن الملاحظ أنه لم تؤرّقه الأنا، فلم يكن معنيّا بظهورها، كما يفعل بعض المثقفين اليوم فيضخمون ذواتهم ويدورون حولها، بل كان حريصا على إيصال كلمـــته الحـــرة إلى جميع الناس، دون أن يكون معنيّا بالشهرة، لذلك لم يحرص علـــى اقتران اسمه بما يكتب دائما، فقد راعى ظروف الاستبداد، فاتخذ رموزا

لاســـمه، ونشـــر كتبه وبعض مقالاته موقّعة بها، دون أن يعلن اسمه صراحة، فاتخذ أسماء مستعارة (السيد الفراتي، الرحالة ك، ع حلب، مسلم حر الأفكار..) ولـــولا صداقته لأصحاب الصحف التي كان يراسلها لما عرفنا أن هذه المقالات للكواكبي!!

لذلـــك كله مازال الكواكبي معاصرا لنا، رغم مرور حوالي مئة عام على استشـــهاده، إنـــه مـــازال مـــثلا أعلى في التضحية والإبداع لكل المثقفين الذين يعملون لتحقيق حلم النهضة ومواجهة تسلط الاستبداد والغريب.

■ ■ ■



قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر

1. جان دايه "صحافة الكواكبي" مؤسسة فكر للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 1984.
2. جـان دايـه "صـحافة الكواكبي: جريدة العرب" ج2، دار فجر النهضة، أنطلياس، ط1، 2000.
3. عـبد الرحمـن الكواكبي "الأعمال الكاملة للكواكبي" إعداد وتحقيق محمد جمال الطحان، مركز الوحدة العربية، بيروت، 1995.

ثانيا: المراجع

1. ابـن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجـم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: مقدمة ابن خلدون" دار القلم، بيروت، دون تاريخ.
2. جان دايه "الإمام الكواكبي: فصل الدين عن الدولة" منشورات سوراقيا، لندن، 1988.
3. حسن سعيد "عبد الرحمن الكواكبي: جدلية الاستبداد والدين" سلسلة رواد النهضة (5) قم، ط1، 2000.
4. سـعد زغلول الكواكبي "عبد الرحمن الكواكبي: السيرة الذاتية" دار بيسان، بيروت، ط1، 1998.
5. طاهر الطناحي (عرض وتحقيق وتعليق) "مذكرات الإمام محمد عبده: سيرة ذاتية" سلسلة كتاب الهلال، ع705، رمضان، مارس، 1993.
6. عـباس محمـود العقاد "عبد الرحمن الكواكبي" دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، دون تاريخ .
7. عدنان عويد "إشكالية النهضة في الوطن العربي من التوابل إلى النفط" دار المدى، دمشق، ط1، 1997.
8. علـي حرب "فكر النهضة بين الإحياء والتنوير" مجلة عالم الفكر الكويتية، 1_3، ع(29) يناير، مارس، 2001.
9. ماجد الغرباوي "الشيخ محمد حسين النائيني" سلسلة رواد الإصلاح (4) قم، ط1، 1999.
10. محمد عمارة "الإمام محمد عبده" دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1985.
11. محمد عمارة "تيارات اليقظة الإسلامية الحديثة" كتاب الهلال، ع(380) أغسطس، 1983.
12. محمـود أبـو رية "جمال الدين الأفغاني" سلسلة نوابغ الفكر العربي (29) دار المعارف بمصر، دون تاريخ .

■ ■ ■



المحتوى

الإهـــــداء: 5

المقدمة: 7

لمحة عن حياة الكواكبي: 9

عمله الصحفي: 9

المهن التي زاولها الكواكبي: 10

معاناة الكواكبي مع السلطة العثمانية: 11

رحلات الكواكبي: 14

الحواشي: 16

كتاب (أم القرى) محاولة في تقديم الفكر التنويري في قالب قصصي.............. 17

كتاب "أم القرى" (1898) 18

1_الأسباب الدينية: 22

2_الأسباب السياسية: 24

3_إهمال العلم: 28

4_أسباب أخلاقية: 29

الأسباب التربوية والاجتماعية: 29

5_التفرنج: 32

6_الأسباب الاقتصادية: 32

دور المثقف ومسؤوليته لدى الكواكبي: 35

موقف الكواكبي من العروبة: 38

الحواشي: 50

كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) فلســفة النهضــــة في لغــة الأدب 51

تعريف الاستبداد: 54

الاستبداد والمجد: 60

الاستبداد والأخلاق: 61

الاستبداد والمال: 62

الاستبداد والتربية: 63

الاستبداد والدين: 64



الدين وحقوق الإنسان: 67
الاستبداد والعلم: 73
ما هي العلوم التي يخشاها المستبد؟ 73
دور العلماء في مقاومة الاستبداد: 74
كيف ينوّر المثقف العوام؟ 75
العلاقة مع الغرب: 77
المقارنة بين الغرب والشرق: 79
كيف يواجه اليوم الشباب المسلم الغرب؟ 80
تأملات في جماليات الخطاب الأدبي لدى الكواكبي: 83
الحواشي 89
الكواكبي الصحفي الأديب 93
لمَ لجأ الكواكبي للكتابة الصحفية: 94
الخطاب الصحفي ولغة الأدب: 96
تأملات في أسلوب المقالة الصحفية لدى الكواكبي: 99
1_الأسلوب القصصي: 99
2_الكواكبي مؤرخا وأديبا في صحافته: 105
3_ المقالة وأسلوب الرسالة: 107
4_ المقالة وأسلوب البحث العلمي: 108
5_المقالة وأسلوب المناظرة والمقارنة: 111
6_أسلوب السخرية : 115
المقالة والموروث الديني: 118
المقالة والموروث الشعبي: 122
جماليات المقالة لدى الكواكبي: 124
الخاتمة: 130
قائمة المصادر والمراجع: 134
أولا: المصادر 134
ثانيا: المراجع 134
المحتوى 135

■■



رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

عبد الرحمن الكواكبي : فارس النهضة والأدب : دراسة/ ماجدة حمود – دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2001 - 136 ص؛ 24سم.

1- 810.9 ح م و ع   2- العنوان

3- حمود

ع- 2001/12/2417   مكتبة الأسد

□□




اتحاد الكتاب العرب
ARAB WRITERS UNION
DAMASCUS دمشق







د. ماجدة حمود

من مواليد دمشق ١٩٥٤

مؤلفات

- "النقد الأدبي الفلسطيني في الشتات" دار كنعان، دمشق، ١٩٩٢.
- القلق وتمجيد الحياة (بالمشاركة) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٥ (كتاب في تكريم جبرا إبراهيم جبرا)
- "رواية الحب السماوي بين مي زيادة وجبران خليل جبران" دار الأهالي، دمشق، ١٩٩٧
- "علاقة النقد بالإبداع الأدبي" وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٧
- "نقاد فلسطينيون في الشتات" دار كوثا، دمشق، ١٩٩٨
- "مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن" اتحاد الكتب العرب، دمشق، ٢٠٠٠
- "الأدب المقارن: مدخلات نظرية ونصوص ودراسات تطبيقية" بالمشاركة، منشورات جامعة دمشق، ط١، ٢٠٠١
- "الخطاب القصصي النسوي: نماذج من سورية" دار الفكر، دمشق، ٢٠٠١



ثمن النسخة
200 ل.س في

مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق